سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (١٦)

شرح رسالة العبودية

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

شرح رسالة العبودية

شرح
رسالة العبودية

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المجلهم، سلمان جابر

شرح رسالة العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية. / سلمان جابر المجلهم. ـ الرياض، ١٤٤٠ هـ

.. ص؛... سم

ردمك: ٤-٩-٩١١٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- العبودية (لله تعالى) أ. العنوان

ديوي ٢٦١ ١٤٤٠/٢٦٦٩

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٢٦٦٩

ردمك: ٤-٩-٩١١٠١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

❖ الرئيسي ـ حولي ـ شارع المثنى ـ مجمع البدري

ص. ب: ١٠٧٥. الرمز البريدي ٣٢٠١١

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

❖ فرع حولي ـ شارع المثنى ـ تلفون: ٢٢٦١٥٠٤٦

❖ فرع المباركية ـ مقابل مسجد ابن بحر ـ ت: ٢٢٤٩٠٦٠٤

❖ فرع الفحيحيل البرج الأخضر شارع الدبوس ـ ت: ٢٥٤٥٦٠٦٩

❖ فرع المصاحف ـ حولي ـ مجمع البدري: ت: ٢٢٦٢٩٠٧٨

❖ فرع الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ التراث الذهبي ت: ٠٥٥٧٧٦٥١٣٨

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩

E – mail: z. zahby74@yahoo. com

سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (١٦)

شرح

رسالة العبودية

لشيخ الإسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:

فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم بطباعة شرح رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة

١٥/٨/١٤٢٩هـ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا، **أما بعد:**

فهذا شرح شيخنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان -رفع الله مقامه في الدنيا والآخرة- على رسالة العبودية لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي -رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الثواب الكبير والفوز العظيم عن ما قدم من مؤلفات نافعة، ورسائل ماتعة.

وكان هذا الشرح في دروس ألقاها فضيلة الشيخ العلامة/

صَالِح بْن فَوْزَان بْن عَبْد اللهِ الفَوْزَان

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِينَ

في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز بالرياض في يوم السبت الموافق الثامن عشر من شوال من عام ألف وأربع مائة وتسعة وعشرين من الهجرة، وانتهى منه -حفظه الله- يوم السبت الموافق غرة صفر من عام ألف وأربع مائة وواحد وثلاثين.

ومن هذه المؤلفات الطيبة في أهم موضوع، وهو عبادة الله تعالى، التي ضل فيها كثير من الخلق، بسبب الجهل واتباع الهوى، والانحراف في

القول والعمل عن الذي دلت عليه نصوص الوحيين الشريفين -كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، وسنة رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مع معارضة فهم السلف الصالح، والابتعاد عن طريقة الصحابة والتابعين، وعدم سلوك سبيل المؤمنين.

وقد كانت رسالة العبودية جوابًا من الإمام ابن تيمية على سؤال وجه إليه عن معنى الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١]، وقد قال شيخنا العلامة/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان عن هذا النداء الرباني الإلهي: (هذا أول نداء في المصحف الشريف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجميع الناس، لا يختص به أحد عن أحد، كل الناس مأمورون بعبادة الله، لا أحد يخرج عن هذا؛ لاالرسل، ولا الأنبياء، ولا الصالحون، ولا الأولياء، ولا عامة الناس، كلهم موجه إليه هذا النداء، فإنه نداء للناس جميعًا، مسلمهم وكافرهم، فـ(يا أيها الناس) كلمة عامة لجميع الناس؛ فكل الناس عباد لله، إما عبودية قهر، وإما عبودية اختيار)، ومن جميل ما كتبه شيخنا ووالدنا الكريم صالح الفوزان -جزاه الله الجنة-: (كنت شرحت للطلاب رسالة العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، التي وضح فيها معنى العبادة، وبينت أنها مبنية على أصلين: هما الإخلاص لله ومتابعة الرسول، فالأصل الأول يتضمن ترك الشرك، والأصل الثاني يتضمن ترك البدع والمحدثات، وقد خالف الأصل الأول عباد القبور، وخالف الأصل الثاني الصوفية وغيرهم، واستقام على الأصلين أهل السنة والجماعة الذين هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه).

ولقد نصح الامام ابن تيمية وأوضح معنى العبادة وحقيقتها وفروعها، وإخلاص العبادة وتجريدها لله العظيم، وأن العبادة والخشية لله القدير وحده دون ما سواه -جَلَّ شَأْنُهُ-، وأن دعوة الرسل والأنبياء هي عبادة الله وحده، وتوحيده وإفراده بالعبادة، وذكر ما اتصف به عباد الله الرحمن والملائكة والأنبياء بوصف العبادة، وأن من العبادة الأخذ بالأسباب، ومخاطبة الله لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبودية، وتعرض شيخ الاسلام ابن تيمية لعبودية القلب، وغير ذلك من فوائد عجيبة، وفرائد شيقة، وما يتعلق بالعبادة من مباحث ومسائل مهمة.

وقد طبع الكتاب على نفقة الشيخ أبي عبد الرحمن: مساعد بن علي الشايجي، والشيخ أبي وائل: محمد بن أحمد الفرحان وزوجته الكريمة، غفر الله لهم، وتقبل منهم، وجزاهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

ومما يشار إليه أن طباعة هذا الكتاب، وريعه والعائد من بيعه، وكل ما بذل فيه هو وقف لله تعالى، وهو مشروع وقفي من أموال وقفية، تقبل الله من الجميع، والله أعلم وأعظم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين، **أما بعد:**

فالعبادة كلمة عظيمة، ولها معنى جليل، وهي الحكمة والغاية التي خلق الله الخلق من أجلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فالله إنما خلق الخلق لأجل أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وقام بأرزاقهم وما يحتاجون إليه؛ من أجل أن يستعينوا بذلك على عبادته وحده لا شريك له.

وأول نداء في المصحف قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢]، هذا أول نداء في المصحف الشريف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لجميع الناس، لا يختص به أحد دون أحد، كل الناس مأمورون بعبادة الله، لا أحد يخرج عن هذا؛ لا الرسل، ولا الأنبياء، ولا الصالحون، ولا الأولياء، ولا عامة الناس، كلهم موجه إليهم هذا النداء، فإنه نداء للناس جميعًا، مسلمهم وكافرهم.

فـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، كلمة عامة لجميع الناس، فكل الناس عباد لله؛ إما عبودية قهر، وإما عبودية اختيار، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣]، باختلاف أصنافهم وأجناسهم وطبقاتهم، لا أحد يخرج عن عبودية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه هو الذي خلقهم ورزقهم، فهو المستحق للعبادة دون ما سواه، ممن لا يخلق ولا يرزق.

ولما كانت العبادة بهذه المنزلة، فلابد أن تعرف ما هي العبادة؛ لأنه ليس لكل أحد أن يعبد الله بما يراه وبما يستحسن.

فالعبادة الصحيحة لها ضوابط شرعية؛ ولهذا توجه هذا السؤال عنها، فسئل عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أولى من يجيب عن هذا السؤال العظيم؛ لما أعطاه الله من العلم والفقه في دين الله، والبصيرة النافذة.

والله خلق الخلق لعبادته، وبين لهم كيف يعبدونه على ألسن رسله، ولكن جاء من انحرف بالعبادة عما جاءت به الرسل؛ إما بالغلو فيها عن الحد المشروع -كما عليه الخوارج-، وإما بالنقص منها -كما عليه المرجئة-، وإما بالانحراف بها عن منهج الرسل -كما عليه المبتدعة من الصوفية-، وإما بالإشراك فيها -كما عليه المشركون-، وإما بالتكبر عنها -كما عليه الملاحدة.

أما أهل السنة والجماعة، فقاموا بالعبادة على منهج الرسل بالاعتدال والاستقامة، وهذه التقسيمات بينها الشيخ في هذه الرسالة القيمة.

سُئِلَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **عَنْ قَوْلِهِ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة:٢١]. **فَمَا الْعِبَادَةُ**[١] **وَفُرُوعُهَا؟**[٢] **وَهَلْ مَجْمُوعُ الدِّينِ دَاخِلٌ فِيهَا أَمْ لَا؟**[٣] **وَمَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ؟ وَهَلْ هِيَ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمْ فَوْقَهَا شَيْءٌ مِنْ الْمَقَامَاتِ؟ وَلِيَبْسُطُوا لَنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ**[٤].

الشَّرْح

[١] لابد أن يعرف ما هي العبادة الصحيحة والعبادة الباطلة، والله بيَّن العبادة الصحيحة في القرآن الكريم، ووضحها في الآيات والسور، فما علينا إلا أن نأخذ معنى العبادة من الكتاب والسنة، فهي الذل والخضوع مع المحبة لله.

[٢] أي: أنواعها، فهي ليست نوعًا واحدًا، بل لها أنواع كثيرة؛ كما سيأتي.

[٣] أي: هل هي شاملة لكل الدين، فكل الدين عبادة؟ نعم، الدين كله عبادة، وهذا سيأتي توضيحه، فالعبادة ليست قاصرة على بعض الشعائر التعبدية.

[٤] العبودية هي أعلى المقامات، ليس فوقها مقام من أمور الدين، فهي دين جميع الرسل وأتباعهم، لا أحد يخرج عنها.

وهناك فرق بين العبادة والعبودية:

فالعبادة هي: ما أمر الله جَلَّوَعَلَا به من الطاعات، وتجنب المحرمات.

وأما العبودية، فهي تتجه للأشخاص، فالناس كلهم -عباد الله-، لكن منهم من عبوديته لله طوعية اختيارية، وهم المؤمنون، ومنهم من عبوديته لله قهرية اضطرارية، بمعنى أنه خاضع لأقدار الله وأحكامه وما يجري عليه، فهو عبد لله العبودية العامة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، كلهم عباد لله؛ لكن منهم من عبوديته طوعية واختيارية، وهذه هي المطلوبة، ومنهم من عبوديته قهرية تسخيرية، ليست طوعية منه، بل هو عبد لله، بمعنى: أنه فقير إلى الله، وأن أقدار الله تجري عليه كما تجري على غيره، وأن مرده إلى الله، لا يخرج عن قبضته.

فَأَجَابَ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، «الْعِبَادَةُ» هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ[١]: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالحَجُّ، وَصِدْقُ الحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ، وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ، وَالْأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءُ، وَالذِّكْرُ، وَالْقِرَاءَةُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ.

الشَّرْح

[١] هذا هو تعريف العبادة التفصيلي: أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال؛ أي: من أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وأقوال اللسان، فهي شاملة لكل ما يحبه الله ويرضاه.

أما ما لا يحبه الله ولا يرضاه، فليس عبادة لله، وإن تقرب به من تقرب إلى الله، ما دام أن الله لا يحبه ولا يرضاه، وكيف نعرف أن الله يحب هذا الشيء ويرضاه؟ إذا أمر به، وشرعه، فإنه يحبه ويرضاه، وأما إذا لم يأمر به، ولم يشرعه، فإنه لا يحبه ولا يرضاه.

ومن أعمال الجوارح: الصلاة والصيام والحج وجهاد الكفار والمنافقين، فالكفار يجاهدون بالسلاح، والمنافقون يجاهدون باللسان والحجة، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه كلها من أعمال الجوارح الظاهرة التي ترى وتسمع.

وكذلك الأعمال التي على اللسان؛ كذكر الله، وتلاوة القرآن، والتسبيح، والتهليل، والتكبير، وغير ذلك من الأعمال التي تظهر وتسمع وترى.

والإحسان إلى من أمر الله بالإحسان إليهم من الجيران، وابن السبيل -وهو: المسافر المنقطع الذي ليس معه ما يبلغه من الزاد-، والسائلين، وفي الرقاب؛ من إعتاق الأرقاء وفك الأسرى.

وكذا الإحسان إلى المماليك من الآدميين والبهائم؛ فمن كان يملك شيئًا من العبيد أو الدواب، فليحسن إليهم، بمعنى: أنه يؤمن لكل صنف ما يحتاج إليه، ولا يعذبه، ولا يشق عليه، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]، كل هذا داخل في الأعمال الظاهرة التي أمر الله بها.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللهِ[١] وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ[٢]. وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ[٣]، وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ[٤]، وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ[٥]، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ[٦]؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ[٧].

الشَّرْح

[١] هذه أعمال القلوب، وأعظمها حب الله ورسوله، فالمحبة من أعمال القلوب، وهي المحركة على الطاعة والامتثال.

الله جَلَّوَعَلَا هو الذي يُخشى وحده؛ لأن الخشية عبادة، وهي لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠].

[٢] أي: الرجوع والتوبة إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من الذنوب.

[٣] أي: إخلاصه من الشرك، وإخلاصه من البدع والمحدثات؛ لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه، وصوابًا على سنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

[٤] أي: الصبر لحكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الشرعي والقدري، وهذا من أعمال القلوب أيضًا.

[٥] الشكر -أيضًا- من أعمال القلوب، فالشكر يكون بالقلب، ويكون بالجوارح؛ أي: بالعمل، قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

فالشكر يكون بالقلب والاعتراف لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالنعم، والثناء عليه بها، ويكون بالعمل بأن يصرف هذه النعم في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

[٦] أي: الرضا بقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القدري، وإن كان الإنسان يكرهه نفسيًّا، ويتألم منه؛ فما دام يعلم أنه من الله؛ فإنه يرضى بذلك، ولا يسخط، ولا يجزع لقضاء الله وقدره.

[٧] التوكل: تفويض الأمور إلى الله جَلَّ وَعَلَا، والتوكل من أعظم أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣].

وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالخَوْفُ لِعَذَابِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنْ الْعِبَادَةِ للهِ[١]. وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ للهِ هِيَ الْغَايَةُ المَحْبُوبَةُ لَهُ وَالمَرْضِيَّةُ لَهُ الَّتِي خَلَقَ الخَلْقَ لَهَا[٢]؛ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٩]، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ[٣].

الشَّرْح

[١] كل هذه من أعمال القلوب، كل الأعمال الظاهرة، وإنما ذكر الشيخ نماذج منها، وإلا فهي كثيرة، وكلها عبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن بالشرط الذي ذكره، وهو أن تكون مما يحبه الله ويرضاه، وعلامة ذلك: اتباع شرعه والأمر به؛ فلا يعبد إلا بما شرع.

[٢] فالعبادة هي التي يرضاها، وخلق الله الخلق من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

خلق الثقلين: الجن والإنس، والإنس هم بنو آدم، والجن: عالم من عالم الغيب -ومنهم إبليس-، لا يعلمهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهؤلاء كلهم عباد لله، وكلهم مأمورون بعبادة الله جَلَّ وَعَلَا.

[٣] الرسول: من أوحي إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه(١)، فالله أرسل جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النبوات» (ص٢٨١): (فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أُرْسِلَ مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالةً من الله =

ولما كان الناس لا يعرفون أو لا يعلمون العبادة التي ترضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يكلهم إلى اجتهادهم، ولا إلى ظنهم، وإنما أرسل الرسل؛ يبينون لهم كيف يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنزل الكتب -أيضًا- لبيان عبادة الله جَلَّ وَعَلَا، فقد أرسل الله بالعبادة جميع الرسل.

ومما يدل على هذا آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها ما هو خاص بأنبياء بأسمائهم، ومنها ما هو عام لجميع الأنبياء؛ وذلك أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ -وهو أول الرسل- قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، فقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ فيه أمر، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فيه نهي عن عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الرسل أمر قومه بعبادة الله وترك عبادة ما سواه، وكذلك هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥]، وكذلك صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٧٣]، وكذلك شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٨٥]، فاتفقت كلمتهم على هذه الجملة: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، وهذا دليل على أن العبادة عامة لجميع الأمم، وأن الرسل أمروا بها أممهم، وأن الرسل جميعهم نهوا عن الشرك؛ لأن العبادة لا تصح ولا تقبل مع الشرك.

=إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يُرْسَلْ هو إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالةً فهو نبي وليس برسول) اهـ. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٩٨).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ [النحل:٣٦][١].

الشَّرْح

[١] أرسل الله الرسل للأمم؛ تأمرهم بهذا الأمر العظيم، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه.

وكل عبادة لغير الله، فإنها عبادة للطاغوت(١).

فالطاغوت: هو كل ما عبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، فإن كان المعبود يرضى بهذا، فهو طاغوت، وإن كان لا يرضى بهذا -كالأنبياء والرسل والأولياء الصالحين-، فهي عبادة للطاغوت الذي هو الشيطان؛ لأنه هو الذي أمر بها(٢).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾، أي: لكل جيل من الناس ﴿رَّسُولًا ﴾ يأمرهم بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، وهذا معنى: لا إله إلا الله، ﴿فَمِنْهُم ﴾؛ فمن هذه الأمم ﴿مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾؛ أي: من امتثل لهذا الأمر، فعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأطاع الرسل.

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٢٦٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٦٣٤)، وإعلام الموقعين (١/ ٥٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري [(٥/ ٢٩٢- ٢٩٥)، (٧/ ١٣٤-١٣٥)]، والمحرر الوجيز (١/ ٣٣٨)، وتفسير ابن أبي حاتم [(٢/ ٤٩٥، ٣/ ٩٧٥)].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل:٣٦]؛ أي: منهم من حقت عليه الضلالة المقدرة عليه في اللوح المحفوظ بسبب عتوه وعناده، فأبى أن يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعبد غيره؛ وذلك بسبب دعاة الضلال من شياطين الإنس والجن، حيث أحدثوا في الناس الشرك، وصرفوهم عن عبادة الله، في حين أن الله هو المستحق للعبادة دون سواه، ويجب أن توجه عبادة جميع الخلق له عَزَّوَجَلَّ، فمن خرج عن هذا وعبد غير الله؛ فإنه خالف ما أمر الله جَلَّوَعَلَا به، وما أمرت به رسله من إخلاص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وخالف ما خلق من أجله.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١][١].

الشَّرْح

[١] كما أن الله أمر الناس جميعًا أن يكونوا أمة واحدة، وأن يوجهوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ الذي خلقهم، فكذلك الرسل وجه الله الأمر إليهم بذلك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]؛ أي من الحلال المباح.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾؛ أي: استعينوا بالأكل من الطيبات على العمل الصالح، وهو عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، فأمر الرسل أن يأكلوا من الطيبات؛ أي: الحلال المباح، وفي هذا نهي عن الأكل من الحرام، والتغذي بالحرام؛ لأن الأكل من الطيبات يعين على العمل الصالح، والأكل من الحرام يصرف عن العمل الصالح.

وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِمًا لِرَسُولِهِ إِلَى المَوْتِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩][١]. وَبِذَلِكَ وَصَفَ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠][٢].

الشَّرْح

[١] أي: جعل عبادة الله وحده لازمة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الموت؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، واليقين هو الموت، فليس لعمل المسلم غاية دون الموت، وليس هناك حد من العبادة إذا بلغه الإنسان يترك العبادة؛ لأنه وصل إلى الله -كما تقول غلاة الصوفية-؛ كما يظن الذين يرون أن من بلغ مرتبة من الولاية، فإنه تسقط عنه التكاليف، ويصير من الخاصة أو من خاصة الخاصة؛ لأنهم بزعمهم وصلوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مخالف لهذه الآية الكريمة، وهل هناك أعظم من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وهل هناك أفضل من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! وهل هناك من هو أعلى مقامًا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! ومع هذا أمره الله بمواصلة العبادة إلى الموت، ولم يجعل لها حدًّا إذا وصله ينتهي، وفي ذلك رد على هؤلاء؛ لأن عبادة المسلم تكون ممتدة شاملة لجميع حياة المسلم من الرسل وغيرهم؛ كما أن العبادة عامة لجميع الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

[٢] كذلك هي شاملة للملائكة، فالله جَلَّ وَعَلَا أمر الملائكة بعبادته وحده لا شريك له، وقد امتثلوا أمره، فقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾؛ من الملائكة، ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾؛ من الملائكة المقربون، ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠].

كما قال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

فالملائكة بجميع أصنافهم يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليلًا ونهارًا، لا يفترون عن عبادته، ومن استكبر عن عبادته، فعذابه أليم من الملائكة وغيرهم.

فالعبادة شاملة لكل الخلق بما فيهم الملائكة الكرام عمومًا، والملائكة المقربون خصوصًا، والأنبياء والرسل، والأولياء والصالحون، وسائر الخلق، فكلهم عباد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يجب أن يعبدوه وحده لا شريك له، وألا يشركوا به شيئًا، ولا يستكبروا عن عبادته.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦][١]. وَذَمَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠][٢].

الشَّرْح

[١] هم: الملائكة المقربون، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، لا يقولون: نحن بلغنا منزلة عالية عند الله، فلا نحتاج إلى العبادة -كما تقوله غلاة الصوفية.

[٢] الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذم المستكبرين عن عبادته، وتوعدهم بأشد الوعيد، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾، فسمى الدعاء عبادة، فالدعاء هو العبادة؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]، فهو أعظم أنواع العبادة.

وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**»[٢]؛ أي: أعظم أركان الحج الوقوف بعرفة، فهذا يدل على عظمة الدعاء، ومكانته، وأنه أعظم أنواع العبادة.

وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾؛ أي: صاغرين، أصغرهم الله وأهانهم لما استكبروا عن عبادته، بخلاف من تواضع لله، فإن الله يرفعه.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨): عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠]».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٧٥)، وابن ماجه واللفظ له (٣٠١٥)، من حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنَعَتَ صَفْوَةَ خَلْقِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦][١]، وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] الْآيَاتِ[٢]، وَلَمَّا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢][٣].

الشرح

[١] وقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خيار عباده بالعبودية وعدم الاستكبار، فدل على أنه لا يخرج أحد عن العبودية، فقال في سورة الإنسان: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦].

وهؤلاء هم السابقون المقربون، سماهم عباد الله مع مكانتهم عند الله، فهم السابقون المقربون عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدل على أنه لا يخرج أحد عن العبودية مهما بلغ من الفضل والمكانة.

[٢] وفي سورة «الفرقان» وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده بأوصاف عظيمة، بدأها بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٦٣]، فأضافهم لنفسه إضافة تشريف وتكريم لهم.

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]؛ يعني: متواضعين، ليس فيهم كبر؛ والكبر لا يتناسب مع العبد، وإنما الذي يتناسب مع العبد التواضع لله تعالى ولخلق الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ [الفرقان:٦٣]،

وهم الحمقى، لم يردوا عليهم بالمثل، وإنما يجيبونهم بجواب يسلمون فيه. والمراد بالجهل هنا: سوء الخلق، لا الجهل الذي هو عدم العلم.

ثم بين جزاءهم في آخر السورة، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾؛ يعني الجنة، ﴿بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان:٧٥]؛ أي: بسبب صبرهم.

والشاهد من هذا: أن الله وصف هؤلاء بأنهم عباد الرحمن، وذكر ما يصدر منهم من أفعال الخير، فدل على أنه لا أحد يخرج عن عبودية الله مهما بلغ من الفضل.

[٣] لعن الله إبليس؛ أي: طرده من رحمته[(١)] بسبب كفره واستكباره عن أمر الله، حينما أمره أن يسجد لآدم، قال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، ولم يقل: (إني غويت، فاغفر لي)، فاحتج بالقدر على المعصية، ولم يتب من الذنب؛ كما تاب آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ واعترف بذنبه.

ثم قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، توعد أن ينتقم من بني آدم؛ إلا إنه استثنى بعضهم، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠]، فقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤١-٤٢].

فالذين يعتصمون بالله، ويلجؤون إلى الله، لا يتمكن الشيطان من إغوائهم وإضلالهم؛ لأن الله يعصمهم؛ حيث أخلصوا عبادتهم لله.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٥٥)، ومقاييس اللغة (٥/ ٢٥٢).

وَقَالَ فِي وَصْفِ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨][١].

الشَّرْح

[١] كان بعض الناس في الجاهلية يزعمون أن الملائكة بنات الله؛ كما أن النصارى يقولون: (المسيح ابن الله)، فنسبوا لله ولدًا -بنين وبنات-، والله منزه عن ذلك، قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٣-٤]، وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس له ولد ولا والد؛ لأنه لا بداية له ولا نهاية؛ لأنه كامل لا يحتاج إلى أحد، وإنما يحتاج المخلوقون إلى الولد لفقرهم وحاجتهم، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه غني، له ما في السماوات وما في الأرض، ولا يحتاج إلى ولد.

ولأن الولد جزء من الوالد، وشبيه بالوالد، والله جَلَّ وَعَلَا ليس له جزء من خلقه، ولا شبيه له، فلا أحد من الخلق يكون من الله جَلَّ وَعَلَا أو بعضًا من الله، ولا شبيهًا له.

قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]، فوصف الملائكة بأنهم عباد مع شرفهم ومكانتهم، فلم يخرجوا عن العبودية، ولم يكونوا ولدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥][١].

الشَّرْح

[١] فاليهود والنصارى والمشركون وصفوا الله بأنه اتخذ ولدًا؛ فاليهود يقولون: (عزير ابن الله)، والنصارى يقولون: (المسيح ابن الله)، وأهل الجاهلية من المشركين فيهم من يقول: (الملائكة بنات الله)، ولفظ الولد يشمل الذكر والأنثى(١).

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾؛ أي: منكرًا عظيمًا، وكذبًا وبهتانًا، ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم:٩٠-٩٢]، فالسماوات والأرض والجبال تستنكر أن يكون للرحمن ولد، وأن يوصف الله بأنه اتخذ ولدًا.

(١) قَالَ اللَّيْث: (الوَلَد اسْم يجمع الواحِد وَالْكثير وَالذكر والأُنثى). انظر: العين (٨/ ٧١)، وتهذيب اللغة (١٤/ ١٢٥)، والصحاح (٢/ ٥٥٣)، ومقاييس اللغة (٦/ ١٤٣).

﴿ وَمَا يَنۢبَغِى ﴾؛ أي: لا يليق، ولا يجوز في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتخذ ولدًا؛ لأن ذلك تنقص لله عَزَّوَجَلَّ، ووصف له بأن له شريكًا، وله جزءًا من عباده، وأنه محتاج إلى الولد.

ثم بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الجميع عباد الله، فقال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

كل من في السماوات من المؤمنين والكفار، ومن الصالحين والفجار، ومن الملائكة، ومن الشياطين والجن والإنس، كل من في السماوات والأرض عباد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لم يتخذ منهم ولدًا؛ لأنهم عباده، والعبد لا يكون ولدًا لمعبوده، يأتونه يوم القيامة عبدًا منقادين له، يتلقون الجزاء على أعمالهم.

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾، واحدًا واحدًا يحاسبهم ويجازيهم، فلو كان أحد منهم ولدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لخرج عن هذه العبودية، فالعبد لا يجوز أن يكون ابنًا لله جَلَّ وَعَلَا، والمملوك لايكون ابنًا للمالك.

وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْمَسِيحِ -الَّذِي أُدُّعِيَتْ فِيهِ الْإِلَهِيَّةُ وَالْبُنُوَّةُ-[١]: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩].

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ»(١)[٢].

الشرح

[١] قد ادعت النصارى الألوهية في المسيح، وأنه ابن الله، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، والله جَلَّ وَعَلَا نفى ذلك، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾؛ أي: المسيح ما هو إلا عبد، فكيف يكون العبد ابنًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، والآيات العظيمة.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ قدوة يقتدي به في الخير.

[٢] نهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأمة أن تغلو في حقه، وترفعه فوق منزلته في العبودية؛ كما فعلت النصارى في حق المسيح؛ حيث رفعوه من منزلة البشرية والعبودية إلى منزلة الألوهية، فقالوا: المسيح ابن الله، وسموه بالإله والابن -تعالى الله عما يقولون-، فهذا شرك وكفر أكبر.

ولهذا حذر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الأمة من الغلو في حقه، والزيادة في مدحه ورفعه فوق منزلته من منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية، وقال: «لَا تُطْرُونِي»،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

والإطراء: هو الزيادة في المدح[1]، «كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ»؛ حيث غلت في مدحه.

ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ**»، لا يخرج عن العبودية، وكفاه بذلك شرفًا أن يكون عبدًا لله.

«**فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ**»، هذا فيه رد على الغلاة الذين يرفعونه فوق منزلة العبودية، «**وَرَسُولُهُ**»، هذا رد على النفاة الذين ينكرون رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالواجب على المسلم أن يقول: (محمد عبد الله ورسوله)، وكفاه بذلك شرفًا وفخرًا.

أما مسألة الألوهية والعبادة، فإنما هي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا حقَّ فيها لأحد؛ لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل.

(١) انظر معنى الإطراء في: تهذيب اللغة (١٤/ ٧)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٢٣)، ولسان العرب (١٥/ ٦).

وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ «بِالْعُبُودِيَّةِ» فِي أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ، فَقَالَ فِي الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١][١]، وَقَالَ فِي الْإِيحَاءِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠][٢]، وَقَالَ فِي الدَّعْوَةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩][٣].

الشَّرْح

[١] أي: وصفه الله «بالعبودية»؛ أي: وصف الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه عبد -وليس إلهًا- في أكمل أحواله؛ في مقام الإسراء.

قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، في مقام الوحي والتنزيل، قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، فهذه أشرف المقامات، ومع هذا لم يخرج فيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حد العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

وفي مقام الإسراء قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾: أسرى الله بعبده محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نقله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى على البراق في ليلة واحد، ثم عرج به؛ أي: رفعه إلى السماء، ثم نزل إلى بيت المقدس، ثم عاد إلى مكة في ليلة واحدة، بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأي شرف أعظم من هذا؟ ومع هذا لم يخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صفة العبودية.

[٢] أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ أي: إلى عبد الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾، وذلك ليلة المعراج، ففي مقام الوحي الذي هو أشرف المقامات وصف الله رسوله بالعبودية.

[٣] أي: الدعاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]؛ أي: لما قام يدعو الله في مكة ويصلي، صاروا يتعجبون من ذلك؛ لأنهم لم يعتادوا عليه؛ لأنهم كانوا يدعون الأصنام والأوثان والأحجار والأشجار.

وَقَالَ فِي التَّحَدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣][١].

الشَّرْح

[١] أي: في مقام تعجيز الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن؛ لأنهم كانوا يقولون: (إن القرآن من كلام محمد، افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون، وليس كلام الله)، فقال الله جَلَّوَعَلَا: (ما دمتم تقولون: إن هذا القرآن هو كلام محمد، وهو بشر مثلكم، فأنا أتحداكم أن تأتوا بسورة واحدة مثل هذا القرآن)؛ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣]؛ أي: ادعوا من يشهد لكم أن هذه السورة التي جئتم بها تشبه القرآن؛ فلما لم يقدروا على شيء من ذلك، دل على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

والشاهد في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ يعني: محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا في مقام التحدي والتعجيز للمشركين، ومع هذا لم يخرج صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن حد العبودية لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ»: «أَنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ وَسَأَلَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا». قَالَ: فَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ فَمَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك» ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الحَدِيثِ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١)، فَجَعَلَ هَذَا كُلَّهُ مِنْ الدِّينِ[١].

الشَّرْح

[١] أي: دين الله جَلَّ وَعَلَا كله داخل في العبادة، فالعبادة والدين بمعنى واحد، فالدين كله عبادة، والعبادة كلها دين.

والدليل على ذلك أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضرة أصحابه في صورة رجل، وقال: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ»، فأخبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأركان الإسلام الخمسة، قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ»، فأخبره بأركان الإيمان الستة، قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ»، فأخبره عن الإحسان، قال: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»؛ أي: كلنا لا نعلم ذلك، قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا»؛ أي: علاماتها،

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٨، ٩، ١٠).

فأخبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء من علاماتها، ثم في نهاية الحديث قال: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**».

فدل على أن الإسلام والإيمان والإحسان كل ذلك داخل في الدين، وأن الدين شامل لكل أنواع العبادة من إسلام وإيمان وإحسان.

وَ«الدِّينُ» يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الخُضُوعِ وَالذُّلِّ. يُقَالُ: دِنْته فَدَانَ؛ أَيْ: ذَلَّلْته فَذَلَّ، وَيُقَالُ: يَدِينُ اللهَ، وَيَدِينُ للهِ؛ أَيْ: يَعْبُدُ اللهَ وَيُطِيعُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ. فَدِينُ اللهِ عِبَادَتُهُ وَطَاعَتُهُ وَالخُضُوعُ لَهُ(١)[١]. وَ«الْعِبَادَةُ» أَصْلُ، مَعْنَاهَا الذُّلُّ أَيْضًا[٢]، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا قَدْ وَطِئَتْهُ الْأَقْدَامُ(٢)[٣].

الشَّرْح

[١] العبادة هي الذل والانقياد لله عَزَّوَجَلَّ، يقال: دان لله؛ أي: ذل لله وخضع وانقاد له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له، كلها بمعنى واحد.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ١٥٣): (الدِّين: العادة، تقول: ما زال ذلك دَيْدَنَه ودَيدَانه ودِينَه ودَأْبَه وعادَتَه). وانظر -أيضًا-: المصباح المنير (ص١٠٨) («دَانَ» بالإسلام «دِينًا» بالكسر تعبد به و«تَدَيَّنَ بِهِ» كذلك فهو «دَيِّنٌ» مثل ساد فهو «سَيِّدٌ»، و«دَيَّنْتُهُ» بالتثقيل وكلته إلى دينه، و«تَرَكْتُهُ وَمَا يَدِينُ» لم أعترض عليه فيما يراه سائغا في اعتقاده، و«دِنْتُهُ» «أَدِينُهُ» جازيته).

(٢) قال ابن القيم: (وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ أَصْلَيْنِ: غَايَةُ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ أَيْ مُذَلَّلٌ، وَالتَّعَبُّدُ: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ، فَمَنْ أَحْبَبْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ خَاضِعًا لَهُ، لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ، وَمَنْ خَضَعْتَ لَهُ بِلَا مَحَبَّةٍ لَمْ تَكُنْ عَابِدًا لَهُ حَتَّى تَكُونَ مُحِبًّا خَاضِعًا). انظر: التفسير القيم (١/ ٦٩)، ومدارج السالكين (١/ ٩٥-٩٦)، وتفسير القرطبي (١/ ٢٢٥، ١٧/ ٥٦).

قال الزجاج: (وَمعنى الْعِبَادَة فِي اللُّغَة: الطَّاعَة مَعَ الخضوع. وَيُقَال طريقٌ مُعَبَّدٌ إِذا كَانَ مذلَّلًا بِكَثْرَة الْوَطْء، وبعيرٌ مُعَبَّد إِذا كَانَ مَطْلِيًّا بالقَطِران). انظر: معاني القرآن وإعرابه (١/ ٤٨)، وانظر مادة (عبد) في: العين (٢/ ٤٨)، وتهذيب اللغة (٢/ ١٣٦)، والصحاح (٢/ ٥٠٢)، ومقاييس اللغة (٤/ ٢٠٥)، ولسان العرب (٣/ ٢٧٠).

[٢] أي: أصل العبادة في اللغة الذل، يقال: طريق معبد؛ أي: مذلل، فالعبادة في اللغة معناها الذل والخضوع.

[٣] هذا التعبير على ألسنة الناس اليوم، يقال: طريق معبد؛ يعني: ممهد، طرقته الأقدام حتى تذلل.

لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا[١] تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ[٢]، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ فَإِنَّ آخِرَ مَرَاتِبِ الْحُبِّ هُوَ «التَّتَيُّمُ»، وَأَوَّلُهُ «الْعَلَاقَةُ»؛ لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ «الصَّبَابَةُ»؛ لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ «الْغَرَامُ»، وَهُوَ الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، ثُمَّ «الْعِشْقُ»، وَآخِرُهَا «التَّتَيُّمُ»[٣]، يُقَالُ: يُقَالُ: تَيْمُ اللهِ؛ أَيْ: عَبْدُ اللهِ، فَالْمُتَيَّمُ: الْمُعَبَّدُ لِمَحْبُوبِهِ(١)[٤].

الشَّرْح

[١] أي: أما العبادة في الشرع، فهي غير العبادة في اللغة، فالعبادة في الشرع معناها: الذل لله، والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، والانقياد له والطاعة له.

[٢] فعبادة الله جَلَّوَعَلَا تتضمن معنيين أساسيين: غاية الذل مع غاية الحب، لا تكون ذلًّا فقط بدون محبة، ولا تكون محبة فقط بدون ذل؛ فإن من ذل لشيء ولم يحبه، لا يكون عابدًا له.

فتعريف العبادة إجمالًا: أنها غاية الذل مع غاية الحب، فالإنسان يذل للجبابرة والطواغيت، ولكنه لا يحبهم، فلا يقال: هذه عبادة. وكذلك الإنسان يحب زوجته، ويحب أولاده، ولكنه لا يذل لهم، فلايقال: إنه عبدهم.

فالعبادة: ما اجتمع فيها غاية الذل مع غاية الحب؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية(٢):

(١) انظر مراتب المحبة في: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٣)، ومدارج السالكين (٣/ ٢٢، ٢٣)، وروضة المحبين (ص٤٧)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص١٦٤).

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ٢٥٣).

وَعِبَادَةُ الرِّحمنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطبَانِ

وَعَلَيهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

ومَدَارُهُ بالأمرِ أَمْرِ رسُولِهِ ... لَا بِالهَوَى والنَّفسِ وَالشَّيطَانِ

[٣] الحب درجات يصل عددها إلى عشر؛ لأن المحبة تتفاوت، بعضها أشد من بعض، فغايتها وآخرها التتيم، وهذا إنما يكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن المحبة الكاملة لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، أما المحبة لغير الله، فتكون ناقصة، ولا يكون معها ذل ولا خضوع.

[٤] هذا اسم من أسماء قبائل العرب، وأصل تيم الله: عبد الله؛ فتيم الله؛ أي: المحب لله غاية الحب وأكمل الحب، فلا يقال: تيم فلان، وإنما يقال: تيم الله؛ أي: عبد الله.

وَمَنْ خَضَعَ لِإِنْسَانٍ مَعَ بُغْضِهِ لَهُ لَا يَكُونُ عَابِدًا لَهُ[١]، وَلَوْ أَحَبَّ شَيْئًا وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا لَهُ[٢]؛ كَمَا قَدْ يُحِبُّ وَلَدَهُ وَصَدِيقَهُ، وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى[٣]، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ اللهُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ وَالذُّلَّ التَّامَّ إِلَّا اللهُ.

وَكُلُّ مَا أُحِبَّ لِغَيْرِ اللهِ فَمَحَبَّتُهُ فَاسِدَةٌ وَمَا عُظِّمَ بِغَيْرِ أَمْرِ اللهِ كَانَ تَعْظِيمُهُ بَاطِلًا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤][٤].

الشَّرْح

[١] كما يخضع الإنسان للظلمة والجبابرة؛ خوفًا منهم.

[٢] كذلك من أحب شيئًا، ولم يخضع له، لم يكن عابدًا له؛ فالمحبة وحدها لا تكون عبادة، والذل وحده لا يكون عبادة، بل لابد من اجتماع الأمرين: غاية الذل، مع غاية الحب.

[٣] ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، لا يكفي الذل فقط، أو الحب فقط في عبادة الله، بل لابد أن يجتمعا في عبادة الله.

[٤] أي: لابد أن يحب الله غاية الحب؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤].

الإنسان يحب هذه الأشياء الثمانية: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن، يحب هذه الأشياء محبة طبيعية، ولا يلام على ذلك، ولكن إن قدمها على محبة الله -أي: قدم ما تحبه نفسه على ما يحبه الله-، فإنه يكون عاصيًا لله، أما إذا قدم ما يحبه الله، فإنه لا يلام على هذا.

فالذين تخلفوا عن الهجرة من أجل الشح بأوطانهم، أو محبة لأموالهم، توعدهم الله، فقال: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: انتظروا ما يحل بكم.

ولذلك ترك المهاجرون أموالهم وديارهم، وخرجوا وليس معهم شيء، مع أنهم يحبون هذه الأشياء، ولكنهم تركوها لله عَزَّوَجَلَّ، فقدموا ما يحبه الله على ما تحبه أنفسهم؛ ولذلك نالوا الشرف والثناء والجزاء العظيم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأشاد الله بذكر المهاجرين في القرآن؛ لأنهم تركوا أولادهم وأوطانهم وأموالهم، وآثروا رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فمن أحب محبوباته وقدمها على محبة الله، فإنه داخل في الوعيد، وأما من قدم محبة الله على محبوباته، فهذا الصادق في إيمانه، وله الجزاء الحسن من الله.

فَجِنْسُ المَحَبَّةِ يَكُونُ للهِ وَرَسُولِهِ كَالطَّاعَةِ[١]؛ **فَإِنَّ الطَّاعَةَ للهِ وَرَسُولِهِ**[٢] **وَالْإِرْضَاءَ للهِ وَرَسُولِهِ**: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢][٣].

الشَّرْح

[١] هناك أشياء مشتركة بين الله والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهناك أشياء خاصة بالله عَزَّوَجَلَّ، ومن الأشياء المشتركة: المحبة، قال: (**فَجِنْسُ المَحَبَّةِ يَكُونُ للهِ وَرَسُولِهِ**)، فالمحبة تكون مشتركة لله ولرسوله؛ يحب الله، ويحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحبة الرسول تابعة لمحبة الله.

[٢] وكذلك الطاعة أيضًا تكون مشتركة، قال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾ [المائدة:٩٢].

[٣] وكذلك الإرضاء مشترك يكون لله ولرسوله؛ فيرضي الله، ويرضي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢].

وَالْإِيتَاءُ للهِ وَرَسُولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٥٩][١].

وَأَمَّا «الْعِبَادَةُ» وَمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ التَّوَكُّلِ؛ وَالخَوْفِ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلَا تَكُونُ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤][٢].

الشَّرْح

[١] الإيتاء هو: الإعطاء، فيكون من الله ومن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٥٩]. وأما الحسب، فهو لله وحده، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٧٣]؛ لأنه من أنواع العبادة.

[٢] العبادة خاصة لله، ليس للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا غيره منها شيء، فالعبادة بجميع أنواعها؛ من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة كلها لله، وهذه عبادات قلبية.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقد أمر الله تعالى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء؛ أي:

عدل بينهم وبين المسلمين، وهذه الكلمة هي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فدل على أن العبادة لله وحده؛ فلا يعبد المسيح، ولا يعبد أحد غير الله جَلَّوَعَلَا.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ أي: شيء من الأشياء.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا نتخذ من دون الله من يحللون ويحرمون من عند أنفسهم؛ لأن التحليل والتحريم حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكذلك لا نتقرب لأحد من الخلق بأي نوع من أنواع العبادة؛ لاالذبح، ولا النذر، ولا غير ذلك من أنواع العبادة، فكل ذلك خاص بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: أعرضوا، ولم يقبلوا، وأصروا على ما هم عليه.

﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: أننا مسلمون لله جَلَّوَعَلَا؛ لا للمسيح ولا لغيره، فنحن عباد لله، وعبادتنا لله وحده لا شريك له، ونتبرأ من عبادة ما سواه، وهذا فيه وجوب المفارقة بين المسلمين والمشركين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة:٥٩][١].

فَالْإِيتَاءُ للهِ وَلِلرَّسُولِ؛ كَقَوْلِه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر:٧].

وَأَمَّا الحَسْبُ وَهُوَ الْكَافِي، فَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣][٢].

الشَّرْح

[١] هذه الآية فيها ما هو مشترك بين الله ورسوله، وفيها ما هو خاص بالله دون غيره، فقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، الإيتاء مشترك.

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ الحسب: هو الكافي وهو خاص بالله؛ ولهذا لم يقل: حسبنا الله ورسوله، ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾: الإيتاء مشترك.

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ الرغب خاص بالله؛ لأنه نوع من أنواع العبادة، فلا يدخل فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لم يقل: (إنا إلى الله ورسوله راغبون)، فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية الأشياء المشتركة بين الله والرسول والأشياء الخاصة بالله عَزَّوَجَلَّ وحده.

[٢] بعد وقعة أحد لما رحل المشركون إلى مكة، وعاد المسلمون إلى المدينة، أراد المشركون أن يروعوا المسلمين، فأرسلوا إليهم مندوبًا يقول: (إنا سنرجع عليكم، ونقتل بقيتكم)، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه الذين خرجوا معه إلى أحد أن يخرجوا، فخرج بهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزل في «حمراء الأسد» ينتظرهم، فلما بلغ المشركين خروجُ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، خافوا، وهربوا[1]. وقال المسلمون وهم في هذه الحالة الحرجة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، فقصروا الحسب على الله، ونعم الوكيل المفوض إليه، وهو الله جَلَّ وَعَلَا، هذه عقيدتهم لم تتغير، ولم يرهبهم تهديد الكفار؛ لأن الله حسبهم وهو كافيهم.

وماذا كانت العاقبة؟ ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤]، وهذا نتيجة التوكل والصدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدم الإصغاء لتهديد العدو.

(١) انظر غزوة حمراء الأسد في: سيرة ابن هشام (٢/ ١٠١)، وتاريخ الطبري (٢/ ٥٣٤)، والروض الأنف (٦/ ٦٢)، والبداية والنهاية (٥/ ٤٥٤).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤][١]؛ أَيْ حَسْبُك وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَك مِنَ الْمُؤمِنِينَ اللهُ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَعْنَى حَسْبُك اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ فَقَدْ غَلِطَ غَلَطًا فَاحِشًا كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦][٢].

الشَّرْح

[١] أي: حسبك وحسب من اتبعك الله؛ فيكون ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوفًا على ضمير المخاطب «الكاف» في قوله: ﴿حَسۡبُكَ﴾، فالله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، فهو الحسب الواحد لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس له شريك.

وليس المراد: حسبك الله والمؤمنون، فليس ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوفًا على لفظ الجلالة، وإنما هو معطوف على ضمير المخاطب في محل جر في قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: وهو حسب من اتبعك من المؤمنين، فكلكم حسبكم الله.

[٢] أي: من فسر الآية بهذا فهو غالط غلطًا فاحشًا؛ لأن الاعتماد على الحسب -وهو الكافي- نوع من أنواع العبودية، والعبودية لا تكون إلا لله، فهو الحسب والكافي، والدليل على ذلك أن الله قال: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾؟ هذا استفهام تقرير، فهو الكافي وحده، ولهذا قال: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٦]، فالله هو الكافي وحده، فلا تخف من غيره.

وَتَحْرِيرُ ذَلِكَ: أَنَّ الْعَبْدَ يُرَادُ بِهِ «الْمُعَبَّدُ»، الَّذِي عَبَّدَهُ اللهُ، فَذَلَّلَهُ وَدَبَّرَهُ وَصَرَّفَهُ[١]، وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالمَخْلُوقُونَ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللهِ؛ مِنْ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، وَأَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ؛ إِذْ هُوَ رَبُّهُمْ كُلُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ[٢]،

الشَّرْح

[١] العبودية على قسمين:

القسم الأول: عبودية عامة: لكل من في السماوات والأرض من المؤمنين والكفار، فالكفار عباد لله؛ بمعنى: أنهم تجري عليهم مقادير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وينفذ بهم قضاؤه، فكلهم بهذا الاعتبار عباد لله؛ المؤمن والكافر، فالكافر لا يخرج عن العبودية؛ فهو عبد لله عبادة قهرية، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان:١٧]، فالذين أشركوا بالله وعبدوا الملائكة يقول الله للملائكة: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ يعني: أأمرتموهم بعبادتكم؟ والملائكة نفوا أنهم أمروهم بذلك، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان:١٨]، وسمى الله المشركين عباده، وهي عبودية عامة.

القسم الثاني: عبودية خاصة: وهي عبودية المؤمن لله، فالمؤمن عبد لله عبادة اختيارية؛ لأن العبودية الخاصة الشرعية خاصة بالمؤمنين دون الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، هذه عبودية خاصة، وهي عبودية المؤمنين لله، الذين انقادوا لشرعه وأفردوه بالعبادة.

[٢] (وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللهِ)؛ أي: باعتبار التذليل والتدبير، فالخلق كلهم عباد الله؛ مؤمنهم وكافرهم؛ لأنهم مدبرون مذللون، تجري عليهم الأحكام القدرية.

وَكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ(١)[١]؛ فَمَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَاءُوا، وَمَا شَاءُوا إِنْ لَمْ يَشَأْهُ لَمْ يَكُنْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣][٢]. فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[٣]، وَخَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، وَمُحْيِيهِمْ وَمُمِيتُهُمْ، وَمُقَلِّبُ قُلُوبِهِمْ وَمُصَرِّفُ أُمُورِهِمْ، لَا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وَلَا مَالِكَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَلَا خَالِقَ إِلَّا هُوَ، سَوَاءٌ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرُوهُ، وَسَوَاءٌ عَلِمُوا ذَلِكَ أَوْ جَهِلُوهُ؛ لَكِنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ عَرَفُوا ذَلِكَ، وَاعْتَرَفُوا بِهِ؛ بِخِلَافِ مَنْ كَانَ جَاهِلًا بِذَلِكَ، أَوْ جَاحِدًا لَهُ مُسْتَكْبِرًا عَلَى رَبِّهِ، لَا يُقِرُّ وَلَا يَخْضَعُ لَهُ؛ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ.

الشَّرْح

[١] وتجري عليهم: «كَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَافَاجِرٌ»؛ أي: كلماته القدرية.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/ ٢٠٢ ٢٠٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٣٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١/ ٥٩٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٧٢)، وفيه: «... وَجَاءَ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ قُلْ»، قَالَ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ، وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَذَرَأَ وَبَرَأَ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ، يَا رَحْمَنُ، فَطَفِئَتْ نَارُ الشَّيَاطِينِ ...».

[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران:٨٣]، هذا من الإسلام العام، الذي هو الخضوع والانقياد القهري.

[٣] جميعًا: المؤمن والكافر، يتصرف فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويدبرهم.

[٤] فهم عباد لله، سواء اعترفوا بذلك، أو أنكروه.

فَالمَعْرِفَةُ بِالحَقِّ إِذَا كَانَتْ مَعَ الِاسْتِكْبَارِ عَنْ قَبُولِهِ وَالجَحْدِ لَهُ كَانَ عَذَابًا عَلَى صَاحِبِهِ[١]؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤][٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦][٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣][٤].

فَإِنْ اعْتَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، عَرَفَ الْعُبُودِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ[٥].

الشَّرْح

[١] أي: معرفة الحق إذا كان مع استكبار عن الحق، فهو عذاب على صاحبه؛ لأنه يعرف الحق، ولا يعمل به، فليس له حجة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٢] أي: جحدوا بآيات الله، وهم مستيقنون بها في أنفسهم؛ استكبارًا عنها؛ لأجل الظلم والتعالي على الناس.

[٣] أي: اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ أي: محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، ومع هذا كفروا به، فهذا كفر عن عناد واستكبار مع المعرفة.

[٤] فهم يعلمون صدق الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومع هذا يستكبرون عن طاعته واتباعه، فهم ظالمون للحق -والعياذ بالله.

[٥] التوحيد ثلاثة أنواع:

النوع الأول: توحيد الربوبية: أن يعرف العبد ربه، وأنه هو الذي خلقه ورزقه، وأحياه ويميته، ويدبر أمره، فهذا هو توحيد الربوبية الذي يعترف كل أحد أنه لا شريك لله في ذلك، والآيات في هذا كثيرة.

النوع الثاني: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، فلا يعبد غيره، ولا يدعى سواه، ولا يستغاث ولا يستعان إلا به فيما لا يقدر عليه إلا هو، ولا ينذر، ولا يذبح، ولا ينحر إلا له، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وهذا أقر به المؤمنون الموحدون، وجحده المشركون.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو داخل في النوع الأول، وهو: وصف الله تعالى وتسميته بما وصف وسمى به نفسه، وبما وصفه وسماه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأحاديث الصحيحة، وإثبات ذلك له من غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير تأويل ولا تعطيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

(فَإِنْ اعْتَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، عَرَفَ الْعُبُودِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ): هذا توحيد الربوبية، وهو ضروري، والإنسان معترف به ضرورة، وكل الخلق معترفون به، أما توحيد الألوهية، فإن من الناس من اعترف به، وأقامه، وهم الرسل وأتباعهم، ومن الناس من يأتي ببعض أنواع العبادة، ويشرك بأنواع أخرى من العبادة، وهم المشركون وأكثر الناس.

وَهَذَا الْعَبْدُ يَسْأَلُ رَبَّهُ، فَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، لَكِنْ قَدْ يُطِيعُ أَمْرَهُ، وَقَدْ يَعْصِيهِ، وَقَدْ يَعْبُدُهُ مَعَ ذَلِكَ، وَقَدْ يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَالْأَصْنَامَ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ[١]، وَلَا يَصِيرُ بِهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦][٢].

الشَّرْح

[١] أي: إن هذه العبودية القاصرة -التي يعبد فيها الله ببعض أنواع العبادة، ويشرك به في البعض الآخر- لا تنفع العابد، فقد كان للمشركين شيء من توحيد الألوهية؛ حيث كانوا يحجون، ويعتمرون، وكانوا يتقربون إلى الله ببعض أنواع العبادات، ولكنهم يشركون في الأنواع الأخرى؛ كالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة وغير ذلك.

فلا فرق بين هذا الذي أتى ببعض توحيد الألوهية وبين الذي جحده كله، فلا تفريق بينهما في الحكم؛ لأن الدين كله لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يصلح الدين إلا أن يكون كله خالصًا لله، قال تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:١٤].

[٢] أي: يؤمنون بتوحيد الربوبية، ولكنهم يشركون في توحيد الألوهية، فجمعوا بين الإيمان بتوحيد الربوبية والشرك بتوحيد الألوهية، فلم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية.

فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ[١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٣٨][٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٩][٣].

الشَّرْح

[١] فهم جمعوا بين الإيمان بإقرارهم بتوحيد الربوبية، وبين الشرك بدعاء غير الله، والنذر لغير الله.

[٢] أي: أيها الرسول، لو سألت المشركين: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، وكذا لو سألتهم: من خلقهم؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، فهم يعلمون أنه لا يقدر على هذا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنهم عبدوا غير الله عَزَّوَجَلَّ ممن لا يخلق شيئًا.

[٣] هذه الآيات من سورة «المؤمنون» تدل على أن المشركين معترفون بتوحيد الربوبية، ولكنهم جحدوا توحيد الألوهية أو بعضه، فلم يدخلهم إقرارهم بتوحيد الربوبية أو ببعض توحيد الألوهية في الإسلام، ولم ينجهم من النار؛ فالمدار على توحيد الألوهية توحيدًا خالصًا من الشرك.

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي الحَقِيقَةِ وَيَشْهَدُهَا لَا يَشْهَدُ إِلَّا هَذِهِ الحَقِيقَةَ[١]، وَهِيَ «الحَقِيقَةُ الْكَوْنِيَّةُ»، الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا وَفِي شُهُودِهَا وَمَعْرِفَتِهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ[٢]، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَإِبْلِيسُ مُعْتَرِفٌ بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ، وَأَهْلُ النَّارِ[٣]. قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦]. وَقَالَ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر:٣٩]. وَقَالَ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢]. وَقَالَ: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ [الإسراء:٦٢].

الشَّرْح

[١] من غلاة الصوفية الذين يشهدون توحيد الربوبية، ويعترفون بأن الله هو الخالق، الرازق، وأن الملك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسمون هذا بالشهود -شهود توحيد الربوبية-، ويظنون بزعمهم أن هذا يكفيهم، ويسمون أنفسهم بالعارفين، وأن الإنسان إذا عرف هذا النوع، فإنه يكفيه، وقد وصل إلى الله، ولا يحتاج إلى العبادات، وإنما العبادات للعوام الذين لم يصلوا إلى معرفة الربوبية بزعمهم.

فهؤلاء لما كان صنيعهم مثل صنيع المشركين -من الوقوف عند توحيد الربوبية، وترك توحيد الألوهية-، صاروا مثل المشركين، ولافرق، وربما يكونون أسوأ من المشركين.

وهذا المذهب مذهب خبيث، وهو الوقوف عند توحيد الربوبية فقط، وقول: (إن توحيد الألوهية والعبادة للعوام الذين لم يصلوا إلى هذه الحقيقة،

وأما العارفون، فلا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنهم وصلوا إلى الله، فتسقط عنهم التكاليف)، ويسمون أنفسهم الخاصة، أو خاصة الخاصة، والحقيقة أن الشيطان تلاعب بعقولهم، وأغواهم كما أغوى المشركين في الجاهلية.

[٢] أي: إن توحيد الربوبية لا يجحده أحد، وإن جحده أحد في الظاهر، فإنه معترف به في الباطن؛ كفرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ولكنه في الباطن مقر به، وإنما جحده من باب المكابرة والعناد؛ ولهذا قال له موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، رد عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الرد؛ أنه يعلم في قلبه وقرارة نفسه أن هذه الآيات التسع التي أعطاها الله لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنزلها، ولكن المكابرة والعناد حملته على الجحود -والعياذ بالله-، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

[٣] معترفون بها، فإبليس معترف بتوحيد الربوبية، وقد قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، وقال: ﴿فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، دعا ربه أن يؤخر حياته إلى يوم القيامة؛ لكي يضل بني آدم، والشاهد أنه قال: ﴿رَبِّ﴾، فاعترف أن الله ربه، ولم ينفعه ذلك، وهذا -أيضًا- فيه اعترافه بتوحيد الربوبية.

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أقسم بعزة الله، وهذا اعتراف منه بتوحيد الربوبية.

وقال لربه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، يخاطب الله بهذا الخطاب الكفري القبيح، وهو يعلم أن الله له الفضل، يؤتي فضله من يشاء، لا حجر على الله جَلَّوَعَلَا، فهذا كفر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لااعـتراض على الله جَلَّوَعَلَا.

وَأَمْثَالَ هَذَا مِنْ الْخِطَابِ الَّذِي يُقِرُّ فِيهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَخَالِقُ غَيْرِهِ[١]، وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٦][٢].

الشَّرْح

[١] كقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦]، فاعترف بأن الذي خلقه هو الله، وهذا إقرار منه بتوحيد الربوبية، لكن زعم إبليس أن النار أحسن من الطين، وهذا من انتكاس الفهم، فالطين أحسن من النار؛ لأن الطين طيب، ينبت ويثمر، وهو بارد، وأما النار، فهي محرقة، ولا تنتج شيئًا، ولهذا قيل: أول من قاس القياس الفاسد إبليس.

[٢] فأهل النار اعترفوا بتوحيد الربوبية وهم في النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٦]، يدعون الله، يقولون: (ربنا)، فهم مقرون بتوحيد الربوبية، ومع هذا قال الله لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١٠].

وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ [الأنعام:٣٠][١].

فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الحَقِيقَةِ وَعِنْدَ شُهُودِهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ المُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ، كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ[٢]، وَإِنْ ظَنَّ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ خَوَاصِّ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَهْلِ المَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ[٣]، الَّذِينَ يَسْقُطُ عَنْهُمْ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الشَّرْعِيَّانِ، كَانَ مِنْ أَشَرِّ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ[٤].

الشَّرْح

[١] فقد أقروا بربوبيته، وأقسموا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهم معترفون به في الدنيا والآخرة.

[٢] أي: من وقف عند توحيد الربوبية، وقال: (إنه يكفي)، وقول المصنف: (**وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ الحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ المُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ، كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ**)، لاشك أن هذا مذهب غلاة الصوفية، وهو من جنس مذهب المشركين ومذهب إبليس، لا ينفع شيئًا.

[٣] غلاة الصوفية يقولون: (نحن من خواص أولياء الله)، ولذلك يسمون أنفسهم: «الخواص»، و«خاصة الخاصة»؛ لأنهم -بزعمهم- عرفوا

الله عَزَّوَجَلَّ، مع أن الله عرفه أبو جهل وأبو لهب، وعرفه المشركون، ولم ينفعهم ذلك؛ لما لم يخلصوا له العبادة.

[٤] فهم يقولون: (إذا وصل الإنسان إلى معرفة الله ومشاهدة توحيد الربوبية، فلا حاجة إلى أن يصلي ويصوم، ويتجنب المحرمات، فكل شيء مباح له، الزنا واللواط والسرقة وكل شيء؛ لأنه رفعت عنه التكاليف، وليس عليه واجبات، ولا تحرم عليه محرمات؛ لأنه عرف الله، ووصل، وصار من خواص أولياء الله)، وهو في الحقيقة من خواص جند إبليس.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الَّذِينَ يَسْقُطُ عَنْهُمْ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الشَّرْعِيَّانِ، كَانَ مِنْ أَشَرِّ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ)، بل أشر من إبليس؛ لأن إبليس لم يعترض على كل الأوامر والنواهي، وإنما حسد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وحمله الحسد على الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الخَضِرَ وَغَيْرَهُ سَقَطَ عَنْهُمُ الْأَمْرُ لِمُشَاهَدَةِ الْإِرَادَةِ[١]، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَانَ قَوْلُهُ هَذَا مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ الْكَافِرِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ[٢].

الشَّرْح

[١] يقولون بأن الخضر -وهو العبد الصالح أو النبي على قول(١)- الذي ذكره الله في سورة «الكهف» حيث قال فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

يقولون: (قد سقطت عنه التكاليف؛ لأنه لم يتبع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس بحاجة إلى أن يتبع الأنبياء)، وقد كذبوا على الخضر؛ لأن الله قال فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، فهو من عباد الله المتقين، وقال بعض العلماء: (إنه نبي؛ لأن له معجزات، فهو عبد من عباد الله)، وليس كما تدعي الصوفية أنه وصل إلى الله، وإنه ليس بحاجة إلى اتباع موسى؛ لأنه قد خرج عن شريعة موسى.

والجواب: إن شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست عامة، بل هي خاصة بقومه، وإنما شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي العامة، أما بقية الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فشعائرهم خاصة بأقوامهم؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخصائص التي أعطيها: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية (٣/ ٥٢٩)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، بلفظ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا** =

فالخضر لم يؤمر باتباع موسى، ولا تشمله رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٢] لأن أمر الله وتشريعات الله لا تسقط عن أحد، مهما بلغ من المكانة، ومطلوب من كل العباد أن يقوموا بها، ولا يعفى منها أحد، والأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- من أكثر الناس عبادة، وأفضلهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي، ويصوم، ويجاهد، ويحج، ويعتمر، وكان يقوم حتى تتفطر قدماه من طول القيام[1]، وكان يتعبد لله بأنواع العبادات التي لا يطيقها أحد غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يقل: إني وصلت إلى الله، ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢].

=لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً». واللفظ للبخاري.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩): عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَكَلَّفُ هَذَا؟ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا».

حَتَّى يَدْخُلَ فِي «النَّوْعِ الثَّانِي» مِنْ مَعْنَى الْعَبْدِ، وَهُوَ الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْعَابِدِ، فَيَكُونُ عَابِدًا للهِ، لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ؛ فَيُطِيعُ أَمْرَهُ وَأَمْرَ رُسُلِهِ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُ[١].

وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِإِلَهِيَّتِهِ وَلِهَذَا كَانَ عُنْوَانُ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[٢]، بِخِلَافِ مَنْ يُقِرُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا يَعْبُدُهُ: أَوْ يَعْبُدُ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ[٣].

الشَّرْح

[١] لا يكون الإنسان عبدًا مؤمنًا بالله، إلا إذا قام بالدين بجميع شرائعه التي يستطيعها، فإذا قام بجميع شرائع الدين التي يستطيع، صار مسلمًا وعبدًا لله، أما إذا تمرد عليها، وعصى؛ فإنه ليس عبدًا لله العبودية الخاصة، وإن كان عبدًا لله العبودية العامة الكونية.

[٢] هذه الكلمة «لا إله إلا الله» معناها: لا معبود بحق إلا الله، فمعنى الإله: المعبود، والألوهية: هي العبادة، ومن عبد غير الله، فإنه معبود بالباطل لا بحق؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢]، فالعبادة حق لله جَلَّ وَعَلَا، ومعنى «لا إله إلا الله» لامعبود حقًّا إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وما عداه فهو معبود بالباطل.

[٣] أي: من لا يعبده أصلًا، فهو المستكبر، ومن يعبده ويعبد معه غيره، فهو المشرك، فكثير من الناس اليوم يصومون، ويصلون، ويحجون،

ويذكرون الله، ويسبحونه، ولكن يعبدون مع الله غيره بأنواع من العبادات؛ كالذبح والنذر والاستغاثة، وغير ذلك مما يفعلونه عند القبور؛ تقربًا إلى المولى، ويشركون بالله الشرك الأكبر، مع أنهم يعبدون الله ببعض أنواع العبادات؛ كما عليه أهل الجاهلية، فهذا لا يكفي، وعباداتهم باطلة؛ لأن الشرك يبطل الأعمال، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥]، فالشرك يحبط الأعمال.

فَالْإِلَهُ الَّذِي يألهه الْقَلْبُ[١] بِكَمَالِ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ(١).

وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ وَيَرْضَاهَا[٢]، وَبِهَا وَصَفَ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ[٣]، وَبِهَا بَعَثَ رُسُلَهُ[٤].

الشَّرْح

[١] الإله هو المألوه بأنواع العبادة، وأعظمها الحب في القلب؛ بأن يألهه القلب؛ يعني: يحب الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

[٢] ولهذا قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بداية هذه الرسالة: (الْعِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ)، هذه هي العبادة التي يحبها الله ويرضاها، أما العبادة التي لا يحبها الله ولايرضاها، فهي عبادة المشرك الذي يعبد الله، ويعبد معه غيره.

[٣] المصطفين جمع: مصطفى، والمصطفى هو المختار من الأنبياء وغيره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧]. فهم يعبدون الله وحده، ولا يشركون به شيئًا؛ فلا يتركون عبادة الله بحجة أنهم قد وصلوا؛ كما تقوله الصوفية الضلال.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٦٧)، ومختار الصحاح (ص٩)، والمصباح المنير (ص١٩).

[٤] أي: بعثهم بعبادة الله المستمرة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذه رسالة الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، جاؤوا بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والاستمرار عليها إلى الممات.

وَأَمَّا «الْعَبْدُ» بِمَعْنَى الْمُعَبَّدِ -سَوَاءٌ أَقَرَّ بِذَلِكَ، أَوْ أَنْكَرَهُ-، فَهَذَا الْمَعْنَى يَشْتَرِكُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ[١]. وَبِالْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ «الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ» الدَّاخِلَةِ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَدِينِهِ وَأَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ، الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا، وَيُوَالِي أَهْلَهَا، وَيُكْرِمُهُمْ بِجَنَّتِهِ[٢]، وَبَيْنَ «الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ» الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، الَّتِي مَنْ اكْتَفَى بِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعْ الْحَقَائِقَ الدِّينِيَّةَ، كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَالْكَافِرِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

الشَّرْح

[١] هذا كما سبق بيانه.

[٢] الناس مع التوحيد ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من أقر بالربوبية، ولم يعبد الله، فإنه كافر من أتباع إبليس؛ حيث آمن بربه، ولم يفعل ما أمر به.

النوع الثاني: (وَمَنْ اكْتَفَى بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ...)؛ من الناس من يرفض التوحيد، ويأتي ببعضه؛ كمن يعبد الله، ويعبد معه غيره، فهو مشرك.

النوع الثالث: من يعبد الله وحده لا شريك له، لكن عنده بعض الذنوب التي دون الشرك، فهذا عنده نقص (**نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَوِلَايَتِهِ للهِ بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنْ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ**)؛ وقد يكون النقص كثيرًا، وقد يكون قليلًا؛ فالمعاصي التي دون الشرك تنقص الإيمان والتوحيد، سواء كانت كبائر أو صغائر، فالكبيرة التي دون الشرك تنقص حقيقة الإيمان، خلافًا للمرجئة، الذين يقولون: (لا يضر مع الإيمان معصية).

وَمَنْ اكْتَفَى بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ فِي مَقَامٍ أَوْ حَالٍ، نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَوِلَايَتِهِ للهِ بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنْ «الحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ».

وَهَذَا مَقَامٌ عَظِيمٌ فِيهِ غَلِطَ الغالطون[١]، وَكَثُرَ فِيهِ الِاشْتِبَاهُ عَلَى السَّالِكِينَ، حَتَّى زَلَقَ فِيهِ مِنْ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ الْمُدَّعِينَ التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مَا لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْإِعْلَانَ.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ «عَبْدُ الْقَادِرِ» رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢] فِيمَا ذُكِرَ عَنْهُ، فَبَيَّنَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الرِّجَالِ إِذَا وَصَلُوا إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، أَمْسَكُوا، إِلَّا أَنَا، فَإِنِّي انْفَتَحَتْ لِي فِيهِ رَوْزَنَةٌ(١)، فَنَازَعْتُ أَقْدَارَ الحَقِّ بِالحَقِّ لِلْحَقِّ؛ وَالرَّجُلُ مَنْ يَكُونُ مُنَازِعًا لِلْقَدَرِ لَا مَنْ يَكُونُ مُوَافِقًا لِلْقَدَرِ[٣].

الشَّرْح

[١] وهو معرفة أمر التوحيد والعبادة، ومعرفة من هو المشرك ومن هو الموحد، ومن هو المؤمن ومن هو الكافر، ومن هو ناقص الإيمان. هذا مقام عظيم يحتاج إلى اهتمام، ويحتاج إلى تأمل ودراسة؛ لئلا يزل الإنسان فيه، فيهلك، وقد زل فيه كثير من الناس؛ كالمعتزلة(٢) .....

---

(١) قال ابن السِّكِّيْتِ: الروزنة: الكُوَّةُ. انظر: المطلع على ألفاظ المقنع (١/ ٣٠١)، ولسان العرب (١٣/ ١٧٩)، والقاموس المحيط (١/ ١٢٠٠).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو ابن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها. =

والأشاعرة[١]، فالخطر في هذا عظيم؛ ولهذا تعد هذه الرسالة -رسالة العبودية- رسالة قيمة وجيدة، ينبغي العناية بها ودراستها وفهم ما فيها، وتفهيم الناس لها.

[٢] الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، من علماء الحنابلة ومن أئمتهم، وهو عابد من العباد، وله كتاب في المذهب الحنبلي اسمه «الغنية»

= وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.
انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١-٧٩٢).

(١) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال الذهبي: ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. اهـ.
انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

(٢) هو أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله الجيلي الحنبلي شيخ بغداد، نسبة إلى جيل، وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان، ويقال لها أيضا جيلان وكيلان، مولده بها سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وهو من سادات مشايخ الصوفية، وتُنسب إليه الطريقة القادرية من طرق الصوفية المعروفة المشهورة، قال عنه ابن كثير: (كان فيه تزهد كثير وله أحوال صالحة ومكاشفات، ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالًا وأفعالًا ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحًا ورعًا) اهـ. وقال الذهبي في =

مطبوع مشهور، وقد غلا فيه الصوفية والقبورية، وادعوا له أنه ينفع ويضر؛ كغلوهم في الأولياء والصالحين، وجعلوا له طريقة، يسمونها «القادرية»، وهي طريقة صوفية نسبوها إليه، وهو بريء منها؛ لأنه على المنهج السليم والمنهج المستقيم، لكن غلا فيه كثير من الصوفية، وجعلوه شيخ طريقة، وهو بريء من ذلك.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الرِّجَالِ إذَا وَصَلُوا إلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، أَمْسَكُوا)؛ يعني: أمسكوا واستسلموا إلى القضاء والقدر في تبرير المعاصي، ويقول أحدهم: (قدر الله علي المعصية والذنوب، وأنا معذور في ذلك)، وهذا غلط، فلا يجوز أن يقف عند القدر بهذا المعنى، بل يفعل ما أمره الله به من طاعته؛ لأنه يقدر على هذا، فلديه اختيار وقدرة وإمكانيات، يستطيع بها أن يصلي، ويستطيع أن يصوم، ويستطيع أن يحج، ويستطيع أن يتصدق ويجاهد في سبيل الله، فعنده قدرة، لكنه لم يستعملها؛ استسلامًا للقدر.

والإيمان بالقضاء والقدر واجب، وهو ركن من أركان الإيمان، ولكن ليس معناه أن يعتمد الإنسان على القضاء والقدر، ويترك العمل؛ بل يفعل ما شرعه الله له، وأقدره عليه.

الروزنة: الكوة، وهي الفتحة في الجدار.

=آخر ترجمته: (وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه - والله الموعد- وبعض ذلك مكذوب عليه) اهـ. من مصنفاته: (الغنية لطالب طريق الحق)، و(فتوح الغيب)، و(الفيوضات الربانية)، توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة. انظر: الأنساب (٢/ ١٤٦)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩)، والعبر (٤/ ١٧٥)، والبداية والنهاية (١٢/ ٢٥٢)، وشذرات الذهب (٤/ ١٩٨).

ومعنى كلام عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه لم يقف عند القضاء والقدر، ويترك العمل، وإنما أخذ بالأمر والشرع، وعالج القضاء والقدر بالقضاء والقدر أيضًا؛ لأن فعل الطاعة وترك المعصية من قضاء الله وقدره، فكيف يأخذ ببعض القضاء والقدر، ويترك البعض الآخر، فكل شيء قدره الله عَزَّوَجَلَّ؛ الطاعة والمعصية والإيمان والكفر، كله بقدر الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(١)، وذلك لما قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: (فيم العمل وقد قدر علينا السعادة والشقاوة؟!).

وقول عبد القادر كقول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نَفِرُ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ»(٢).

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل:٦] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:١٠]».

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٩٨) (٢٢١٩) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ

فالناس في هذا على أقسام:

القسم الأول: من الناس من يقر بتوحيد الربوبية، ويقف عنده، وهو أن الله هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر المقدر للمقادير، فإذا اعتقد هذا عندهم، فهو الموحد، وهذا ما يسمونه بـ«شهود الحقيقة»، وعندهم أن من بلغ هذا لا حاجة به إلى الشريعة من الأوامر والنواهي والعبادة، وهؤلاء هم غلاة الصوفية وبعض علماء الكلام والمنطق.

القسم الثاني: ومنهم من يقول: (إن من أطاع القدر، فهو موحد مؤمن، إن عصى أمر الله، فقد أطاع قدره)، وهؤلاء هم الجبرية[1]، نفوا الشريعة، وأثبتوا القدر، وغلوا في إثبات المشيئة لله.

المُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ؟ قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ - فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ، قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ».

(١) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلًا. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٨)، والملل والنحل (١/ ٨٥)، والتعريفات (ص١٠١).

القسم الثالث: فرقة المعتزلة القدرية[1] الذين نفوا القدر، وأثبتوا الشريعة، وقالوا: (إن العبد يخلق فعل نفسه، ولم يقدر ما يفعله)، فهم غلوا في إثبات مشيئة العبد واختياره، ونفوا مشيئة الله.

القسم الرابع: وأهل الحق يجمعون بين الأمرين؛ بين الإيمان بالقضاء والقدر، وبين قدرة العبد على فعل الأوامر والنواهي، ولا تنافي في ذلك؛ فإن الله أعطاهم قدرة، وأعطاهم اختيارًا، وأعطاهم مشيئة، ومكنهم من فعل الطاعة واجتناب المعصية، وقدر المقادير، ويسر كلا لما خلق له.

(١) القدرية هم نفاة القدر القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وليس لله فيه إرادة ولا خلق ولا مشيئة، فأنكروا عموم المشيئة والخلق. قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٤٩٣): (والقدرية نفاة القدر جعلوا خالقين مع الله تعالى؛ ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أردأ من المجوس ...) اهـ. ويُطلق اسم القدرية على الغلاة في القدر. انظر: الفرق بين الفرق (ص١١٢، ٢٤١)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٧- ٥٨)، والصفدية (١/ ٥٠)، ودرء التعارض (١/ ٣٧١ -٣٧٤).

وَالَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ[١] هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ الرِّجَالِ غَلِطُوا، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَشْهَدُونَ مَا يُقَدَّرُ عَلَى أَحَدِهِمْ مِنْ المَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، أَوْ مَا يُقَدَّرُ عَلَى النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مِنْ الْكُفْرِ، وَيَشْهَدُونَ أَنَّ هَذَا جَارٍ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، دَاخِلٌ فِي حُكْمِ رُبُوبِيَّتِهِ وَمُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ[٢].

الشَّرْح

[١] يعني الشيخ عبد القادر، وهو الذي أمر الله به ورسوله، وهو الإيمان بالشرع والقدر، وأنه لا تنافي بينهما.

[٢] فيحتجون بالقدر على فعل المعاصي والكفر، ويقولون: (هذا هو التوحيد والإيمان)، وهذا قول المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:١٤٨]، احتجوا بالقضاء والقدر على الكفر والمعاصي، وعذروا أنفسهم في ذلك، وقالوا: (إن الله يرضى بذلك)، والإيمان بالقضاء والقدر حق، وأن كل شيء بقضائه وقدره، فهذا حق، ولكن كونهم يقفون عند هذا، وينكرون الشريعة، ويقولون: (لا حاجة إلى الأمر والنهي والطاعة والعبادة)، فهذا هو الغلط والكفر؛ لأن الله نهى عن الكفر والشرك والمعاصي، وعاقب عليها؛ فهو لا يرضاها.

فَيَظُنُّونَ الِاسْتِسْلَامَ لِذَلِكَ وَمُوَافَقَتَهُ وَالرِّضَا بِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ دِينًا وَطَرِيقًا وَعِبَادَةً؛ فَيُضَاهُونَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، وَقَالُوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس:٤٧]، وَقَالُوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠][١].

الشَّرْح

[١] أي: يظنون أن الرضا بالمعصية والرضا بالكفر هو الدين؛ لأن ذلك قضاء وقدر من الله، فهو قد رضيه منا، فهم بزعمهم أنهم أطاعوا الله فيما قضى وقدر، وهذا هو عين قول المشركين الذين أخبر الله عنهم في سورة الأنعام، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فاحتجوا بالقضاء والقدر، وهو ليس حجة لهم؛ لأنهم تركوا ما أمروا به وما يقدرون عليه، واستسلموا للقضاء والقدر، مع أنهم متمكنون من العبادة ومن الطاعة، فكما قدر الله المعاصي والكفر، فقد أمر بالطاعة والعبادة، فلماذا تترك أمره وتعصيه، وتركن إلى قدره؟

فالاحتجاج بالقدر إنما يكون على المصائب التي لا حيلة للعبد في دفعها، أما المعايب والذنوب، فلا يحتج عليها بالقضاء والقدر، بل يتوب إلى الله، ويستغفر الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن العبد فعلها باختياره ومشيئته.

فالمشركون -كما أخبر الله عنهم- لما نهتهم الرسل عن الشرك بالله والكفر والمعاصي، احتجوا بالقدر، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا

﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ فهو راضٍ عنا في ذلك. والله تعالى رد عليهم في هذا، فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨]؛ أي: ليس عندكم برهان على أن الله رضي فعلكم هذا، وإنما تتبعون الظن والخرص، بل البرهان والدليل يدل على أن الله حرم الشرك والمعاصي، ولم يرض بهما.

فلو كان في القضاء والقدر حجة لكم، لما بعث الله الرسل تنهى عن الشرك والمعاصي، فالله بعث الرسل بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فهذا دليل على أنه لا حجة لهم فيما قالوا، فلماذا يأخذون جانبًا يوافق أهواءهم، وهو القضاء والقدر، ويتركون الجانب الآخر الذي يخالف أهواءهم، وهو الأمر والنهي والشريعة وقدرتهم واستطاعتهم على الفعل والترك، فهم تركوا ما أمروا به اختيارًا منهم، لا اضطرارًا ولا إكراهًا.

ولذلك فإن أهل الإيمان جمعوا بين الأمرين، فآمنوا بقضاء الله وقدره، وآمنوا بشرعه، وفعلوا الطاعات، وتركوا المعاصي والمحرمات، فجمعوا بين هذا وذاك، ولم يحصل منهم تناقض ولا اضطراب؛ كما حصل عند هؤلاء.

ومما احتج به هؤلاء الجبرية قولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾، لما قيل لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧]،

وهذا احتجاج منهم بالقضاء والقدر -نسأل الله العافية-، لا يطعمون الفقراء، ولا يعطونهم، ويزعمون أن الله هو الذي أفقرهم، ويحتجون بذلك على ترك الصدقة.

ومن ذلك قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:٢٠]، لما أنكرت عليهم الرسل عبادة الأصنام والشرك، احتجوا بأن الله قدر علينا ذلك، فهو راضٍ عن فعلنا.

وَلَوْ هُدُوا، لَعَلِمُوا أَنَّ الْقَدَرَ أَمَرَنَا أَنْ نَرْضَى بِهِ، وَنَصْبِرَ عَلَى مُوجَبِهِ فِي الْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُنَا كَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْخَوْفِ[١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ(١) [٢].

الشَّرْح

[١] متى يحتج بالقضاء والقدر: قال الشيخ: (**وَلَوْ هُدُوا، لَعَلِمُوا أَنَّ الْقَدَرَ أَمَرَنَا أَنْ نَرْضَى بِهِ، وَنَصْبِرَ عَلَى مُوجَبِهِ فِي الْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُنَا كَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْخَوْفِ**)، فيحتج بالقدر على المصائب التي لا حيلة للعبد في الفرار منها، فيصبر عليها، ولا يجزع، وأما الذنوب، فلا يحتج بالقدر على فعلها؛ لأنه يقدر على تركها ويتوب من فعلها؛ لأنه ما أصابه ما أصابه إلا بسبب من قبله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، فيحتج بالقضاء والقدر على المصائب التي لا حيلة له فيها، أما الذنوب والمعاصي، فلايحتج عليها بالقضاء والقدر.

هذه قاعدة عظيمة في هذه المسألة، فقد احتج إبليس بالقدر، فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر:٣٩]، فنسب الإغواء إلى الله، ولم يقل: (أنا الذي غويت)، فآدم لم يحتج بالقضاء والقدر على أكله من الشجر ومعصيته لله، بل

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٢٣)، والبخاري معلقًا- كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن- (ص٩٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٦٦)، وشعب الإيمان (٧/ ١٩٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦).

اعترف بذنبه، وتاب إلى الله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فالمؤمن لا يحتج بالقضاء والقدر على المعصية، ويعتذر لنفسه بذلك، بل يتوب إلى الله، ويستغفر، ويندم، هذا هو الفرق بين إبليس وآدم، فآدم تاب، فتاب الله عليه، وغفر الله له، وأما إبليس، فاحتج بالقدر، ولم يتب، فلعنه وطرده.

[٢] الدليل على الاحتجاج بالقدر على المصائب: قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾؛ أي: بقضائه وقدره، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]؛ أي: من يؤمن بالله، ويعلم أن هذا قضاء وقدر، ولا يجزع ولا يتسخط؛ كما قال عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»، ولا يجزع ولا يتسخط مما تفعل الجاهلية من النياحة وغير ذلك.

قوله: (فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ) لله في مصيبته والله تعالى؛ يهدي قلبه للإيمان.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣][١].

الشَّرْح

[١] حدوث مصائب الأرض؛ بنقص الثمرات، وغور المياه، واحتباس الأمطار، وحدوث الأمراض والمكاره.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ من الأمراضن والهموم والأحزان، وغير ذلك.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾؛ أي: بقضاء وقدر، مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾؛ أي: نوجدها ونخلقها، فالقضاء سبق وجودها ووقوعها.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، فهو قدر الأشياء كلها، وعلمها ولا يشق عليه ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم بين الحكمة في كونه أخبرنا بذلك، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾، أخبرناكم بذلك؛ لئلا تجزعوا، بل تصبروا، وتحتسبوا المصائب، وترضوا بقضاء الله وقدره.

﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الخير والنعم فرح أشر وبطر وتكبر، بل تشكرون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمؤمن إذا أصابته ضراء، صبر، وإذا أصابته نعماء، شكر[١].

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٩٩): عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «احْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، فَهَلْ وَجَدْتَ ذَلِكَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى»(١)[١].

وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَحْتَجَّ عَلَى مُوسَى بِالْقَدَرِ؛ ظَنًّا أَنَّ الْمُذْنِبَ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ، وَلَوْ كَانَ هَذَا عُذْرًا، لَكَانَ عُذْرًا لإبليس وَقَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَكُلِّ كَافِرٍ[٢]، وَلَا مُوسَى لَامَ آدَمَ أَيْضًا لِأَجْلِ الذَّنْبِ[٣]،

الشَّرْح

[١] أهل الجهل والضلال والهوى يحتجون بهذا الحديث، يقولون: (إن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ احتج على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقضاء والقدر على فعل المعصية، وهي أكله من الشجرة، فحجه).

والجواب: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ احتج بالقدر على المصيبة، وهي إخراجه من الجنة، أما المعصية، فقد تاب منها، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقل: لماذا أكلت من الشجرة، لماذا عصيت الله؟ إنما قال له: «فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟»، عاتبه على هذه المصيبة التي حصلت، فقال له آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَهَلْ وَجَدْتَ ذَلِكَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى».

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩، ٤٧٣٦، ٤٧٣٨، ٦٦١٤، ٧٥١٥)، ومسلم (١٥) (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا هو طريق الإيمان، وهو الاحتجاج بالقدر على المصيبة، وهو الذي احتج به آدم على ابنه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يحتج على المعصية؛ فإن هذا لا يحتج به مؤمن ولا عاقل أبدًا.

[٢] وكذا كل مشرك يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، لو كان القضاء والقدر حجة على المعصية، لصار حجة للأمم السابقة من إبليس وأتباعه، ولو كان حجة، لم يرسل الله الرسل بالأوامر والنواهي.

[٣] أي: لم يلم موسى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجل الذنب، فلم يقل له: لماذا أذنبت؟ لماذا أكلت من الشجرة؟ حتى يحتج آدم على ذلك بالقدر، وإنما لامه على ما حصل بسبب الذنب من العقوبة، وهي إخراجهم من الجنة.

فَإِنَّ آدَمَ قَدْ تَابَ إِلَى رَبِّهِ، فَاجْتَبَاهُ، وَهَدَى، وَلَكِنْ لَامَهُ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ بِالْخَطِيئَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: «فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنْ الْجَنَّةِ؟»، فَأَجَابَهُ آدَمَ: أَنَّ هَذَا كَانَ مَكْتُوبًا قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، فَكَانَ الْعَمَلُ وَالْمُصِيبَةُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَيْهِ مُقَدَّرًا، وَمَا قُدِّرَ مِنْ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ لَهُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرِّضَا بِاللهِ رَبًّا. وَأَمَّا الذُّنُوبُ، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُذْنِبَ، وَإِذَا أَذْنَبَ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ، وَيَتُوبَ، فَيَتُوبُ مِنْ ذُنُوبِ الْمَعَائِبِ، وَيَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، وَقَالَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران:١٨٦]، وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠][١].

الشَّرْح

[١] ليس للعبد أن يذنب ابتداءً، بل يتجنب الذنب، ولكن لو غلبه الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء، وأذنب، فهذا يقع من بني آدم، حتى من الصالحين منهم، فليس هناك أحد معصوم غير الأنبياء، ولكن المؤمن يتوب إلى الله، ولا يقف عند القضاء والقدر؛ كما حصل من إبليس، وكما حصل من المشركين.

قوله: (فَيَتُوبُ مِنْ ذُنُوبِ الْمَعَائِبِ) المعائب هي الذنوب، فيتوب منها، ولا يحتج عليها بالقضاء والقدر.

قوله: (وَيَصْبِرُ عَلَى المَصَائِبِ) التي تصيبه، فيحتج على المصائب بالقضاء والقدر، ففرق بين الأمرين، فما كان لك حيلة في دفعه وممانعته، فلا تحتج بالقضاء والقدر.

ومما يدل على أن الواجب نحو المصائب: الصبر، ونحو الذنوب: الاستغفار: قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥]، تصبر على مشقة الطاعة وعلى ألم المصيبة، وتستغفر لذنبك إذا وقع منك ذنب، ولا تقل: (هذا قضاء وقدر)؛ فهناك فرق بين الصبر والاستغفار؛ إذ الصبر يكون على ما لا حيلة لك فيه، وأما الاستغفار، فإنه يكون عما وقع منك، ولك حيلة في تركه.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ تأمل كيف جمع بين الأمرين: أن تصبروا على القضاء والقدر، وتتقوا الله بفعل أوامره وترك نواهيه.

قوله: (وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾)، جرت على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أمور ومصائب كثيرة، منذ صغره وهو يقاسي من المصائب، ومن المتاعب، ثم في النهاية فرج الله له، وأعطاه الملك والأبهة، وجاء إخوته، ودخلوا عليه، ولم يعرفوه، وكانوا يظنون أنه ملك مصر، وليس يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى قال لهم: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٨٩-٩٠]، فقد نال هذا في الدنيا، وينال في

الآخرة الجنة والأجر والثواب بهاتين الخصلتين؛ الصبر على المصائب، وتقوى الله بفعل طاعته وترك ما نهاه عنه، فيجمع الله له بين الحسنيين، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٩١]، فاعترفوا بخطئهم نحوه، فقال لهم: ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢]، عفا عنهم، واستغفر لهم؛ على الرغم مما فعلوا به من الأذى، وتلك أخلاق الأنبياء وأتباعهم.

وَكَذَلِكَ ذُنُوبُ الْعِبَادِ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ فِيهَا أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ - بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ -[١]، وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُوَالِيَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، وَيُعَادِيَ أَعْدَاءَ اللهِ،

الشَّرْح

[١] لو كان القضاء والقدر حجة؛ لما شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تأمر الناس بشيء مقدر عليهم، أو تنهاهم عن شيء مقدر عليهم؛ بل تأمرهم بما يقدرون على فعله، ويقدرون على تركه، فهذا دليل على أنه لا تعارض بين الشريعة وبين القضاء والقدر؛ كما تقوله الجبرية وأهل الضلال، وقد شرع الله الجهاد للكفار، ولا يقال: (الكفار معذورون؛ لأن الكفر مقدر عليهم فكيف نجاهدهم؟!)، فدل على أن القضاء والقدر ليس فيه حجة على الكفر؛ لأنهم باستطاعتهم أن يتركوا الكفر، ويدخلوا في الإيمان، ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته؛ لقوله ﷺ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**[(١)]، فكون الله شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الاستطاعة دليل على أنه لا حجة بالقضاء والقدر؛ إذ لو كان حجة، ما شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولما كان لذلك فائدة.

(١) أخرجه مسلم (٧٨) (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قوله: (وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ): الجهاد في سبيل الله يكون بالسلاح وباللسان، فيجاهد الكفار بالسلاح، ويجاهد المنافقين باللسان، ولا يقال: (هذا مقدر عليهم؛ فلا يجاهدون)؛ كما لا يقال: (إن الإيمان مقدر على المؤمنين، فلا يستحقون المحبة والثناء والأجر على ذلك).

قوله: (وَيُوَالِيَ أَوْلِيَاءَ اللهِ) المطيعين، (وَيُعَادِيَ أَعْدَاءَ اللهِ) العاصين، ولو كان القضاء والقدر حجة للكفار، لما عاديناهم على شيء مقدر عليهم، والله أمرنا بمعاداتهم، فدل على أنهم ملومون في كفرهم؛ لأنه بإمكانهم الدخول في الإسلام، وبإمكانهم التوبة والاستغفار، ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

وَيُحِبَّ فِي اللهِ وَيُبْغِضَ فِي اللهِ[١]؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥][٢].

الشَّرْح

[١] فيحب أهل الإيمان، ويبغض أهل الكفر والمعاصي، ويسمى هذا «باب الولاء والبراء»، وهو باب عظيم، يحاول الملاحدة اليوم أن يكسروه وأن يلغوه، فيقولون: (الناس إخوان في الإنسانية، ولابد من التسامح)، وما أشبه ذلك من الألفاظ القبيحة؛ يريدون أن يذيبوا الولاء والبراء، ويزيلوا الفوارق بين المسلمين والكفار، وبين أهل الطاعة والمعصية، وبين أهل الفجور وأهل التقوى، ويسووا بين الناس، ويسمون هذا بالتسامح والإنسانية، وبعدم كره الآخر، وما أشبه ذلك من الألفاظ والأسماء البراقة. وهذا باطل؛ لأنه إلغاء لأصل من أصول الإسلام، فإذا زالت الفوارق بين المسلمين والكفار، وصاروا كلهم سواء؛ لم يكن للإيمان ميزة ولا للطاعة ميزة، ولا للكفر ذم

وقبح، وصار المطيع والعاصي سواء، وصار الكفر والإيمان سواء عندهم -نسأل الله العافية!

ويقولون: (لابد من الحرية في التعبير عن الـرأي...) إلى آخر ما يقولون، وهي حرية بهيمية، حرية في معصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالإنسان عبد، وليس حرًّا، فهو عبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يستطيع الخروج عن العبودية مهما كان، فإما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا للشيطان، وعبدًا للهوى والشهوات. فالكفار والمشركون لما أبوا أن يوحدوا الله بالعبادة، عبدوا الأصنام والأحجار والأشجار، بل عبدوا الفروج والبقر؛ لأنهم لا يمكن لهم الخروج عن العبودية، فيلتمسون شيئًا يعبدونه؛ حقًّا كان أو باطلًا، فالإنسان عبد، خلقه الله عبدًا، فهو إما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره. يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

[٢] ومن الأدلة على وجوب الولاء والبراء: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، الآية من سورة الممتحنة، وهي من أولها إلى آخرها في الولاء والبراء، وهؤلاء الملاحدة ومن قلدهم من الجهال يريدون أن يلغوا هذا الباب، بل يريدون أن يطمسوا ما في القرآن من آيات الولاء والبراء، ويزيلوا الفوارق بين المسلمين والكفار، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، والقرآن يفضحهم ليلًا ونهارًا، ولا يستطيعون أن يغيروا كلمة منه؛ لأن الله

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٤٦٦).

حفظه، ولو استطاعوا، لطمسوا القرآن كله، ولكن لم ولن يستطيعوا ذلك، فهو ينادي بفضيحتهم وشرهم، ويحذر منهم إلى أن تقوم الساعة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾ هذا نداء للمؤمنين؛ لأنهم أهل الامتثال، ﴿ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: لا توالوا الكفار بالمحبة والنصرة والمدح والثناء وغير ذلك من أنواع المجاملة والتملق، ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ على يد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ أي: يطردونكم من مكة، ويطردونكم من أوطانكم، من أجل ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، فهذا هو السبب، لم يخرجوكم إلا بسبب الإيمان بربكم.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾، فلا توالوهم و﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ فمهما حاول الإنسان الإخفاء؛ فإن الله يعلمه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]؛ أي: لكم القدوة في إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والمؤمنين الذين معه، الذين تبرؤوا من الكفار، فقد تبرأ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أبيه، لما تبين له أنه عدو لله.

فالولاء والبراء من دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

فالإيمان يتنافى مع موالاة الكفار، فالذي في قلبه إيمان لا يمكن أن يوالي الكفار، ويحبهم أبدًا؛ لأن الله يبغضهم، والمؤمن يبغض من يبغضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويحب من يحبه الله، وتلك علامات المؤمن، ومن والاهم، فقد حاد الله ورسوله، و﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فهو الذي كفر بالله ورسوله، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، بأن ﴿كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، فإذا كان هذا في الأقارب، فكيف بغير الأقارب من الكفار؟!

الشاهد من هذا: أنه لو كان هناك عذر بالاحتجاج بالقضاء والقدر، ما أمر الله بمعاداتهم ومقاطعتهم؛ لأنهم معذورون في كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥]، هذا استنكار من الله أن يجعل المسلمين كالمجرمين؛ بل لابد أن يفرق بينهم في الجزاء وفي الأحكام، فلا يليق بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا بعدله أن يسوي بين المسلمين والمجرمين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [فاطر:١٩-٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٢٩].

الشَّرْح

[١] وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]، هذا استنكار من الله أن يسوي بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار، بل يفرق الله بينهم في الجزاء والأحكام، ولو كان لهم عذر بالقضاء والقدر، لما فرق الله بينهم، ولما أمر بمعاداتهم ومقاطعتهم وبغضهم.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١].

وهذا استنكار من الله للذين يظنون أن الله سيسوي بين المؤمنين والمسيئين، فهذا لا يليق بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يليق بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:١٩-٢٢]، فالله فرق بين الأشياء المتضادة؛ من الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، فلم يسوِ الله بين الأعمى والبصير، ولا بين الظلمات والنور، ولا بين الظل والحرور، فالمتضادات لا تتساوى أبدًا، والكفر والإيمان متضادان، لا يسوي الله بينهما، والمؤمن والكافر متضادان، لا يسوي الله بينهما، ولا يجوز للمؤمن أن يسوي بينهما.

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩]، هذا مثل للمؤمن الموحد والمشرك الملحد؛ فالموحد كالمملوك لرجل واحد، يستريح معه، ويرضيه، وأما المشرك، فهو كالمملوك لعدة أسياد، لا يدري من يرضي منهم، ولهذا قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لمن معه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل:٧٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل:٧٥-٧٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠][١].

الشَّرْح

[١] وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ [النحل:٧٥]، وهذا مثل للمؤمن الحر الذي ينفق في سبيل الله والعبد المملوك الذي لا يملك شيئًا ولا ينفق، فهو مثل للمشرك والموحد.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، كذلك لا يستوي أصحاب النار -وهم الكفار المشركون- وأصحاب الجنة من المؤمنين المتقين؛ هؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، والله لم يسوِ بينهم في الجزاء، ففي هذه الآيات أنه لو كان القضاء والقدر حجة على الكفر والمعاصي، لسوى الله بين المؤمنين والكفار في الآخرة، وصاروا كلهم في الجنة.

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ مِمَّا يُفَرِّقُ اللهُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَأَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ المَعْصِيَةِ، وَأَهْلِ الْبِرِّ وَأَهْلِ الْفُجُورِ، وَأَهْلِ الهُدَى وَالضَّلَالِ، وَأَهْلِ الْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَأَهْلِ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ[١].

فَمَنْ شَهِدَ «الحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ» دُونَ «الدِّينِيَّةِ»، سَوَّى بَيْنَ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ، الَّتِي فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهَا غَايَةَ التَّفْرِيقِ[٢]، حَتَّى تَؤُولَ بِهِ هَذِه التَّسْوِيَةُ إِلَى أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨][٣].

الشَّرْح

[١] كل هذا واقع، وكل هذا حق، فالله لا يسوي بين المتضادات والمختلفات، لا يليق بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبعدله أن يجعل الكافر مثل المؤمن في الجزاء يوم القيامة، ولا يليق بحكمته وبعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يسوي بينهم في المودة والقدر والمكانة في الدنيا والآخرة.

فلو كان للكفار حجة على كفرهم بالقضاء والقدر، لما فرق الله بينهم وبين المؤمنين.

[٢] أي: من أثبت القضاء والقدر، ونفى الشرع، فقد سوى بين الكفر والإيمان والمؤمنين والكفار، ولم يفرق بينهما، وأما من أثبت القضاء والقدر، وأثبت الشرع، فإنه يفرق بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والبر والفاجر؛ فيفرق بين المتضادات والمتناقضات، فيحتج بالقضاء على المصائب، ويتوب من الذنوب والمعائب، ولا يحتج بالقضاء والقدر عليها.

[٣] فالمشركون سووا بين الله وبين الأصنام حينما عبدوها معه، وعدلوها بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك في الآخرة يندمون على ذلك، فيقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٩]، فإذا وقفوا على جزائهم، عرفوا أنهم أخطؤوا في الدنيا؛ حيث عبدوا مع الله غيره، وسووا المخلوق بالخالق.

بَلْ قَدْ آلَ الْأَمْرُ بِهَؤُلَاءِ إِلَى أَنْ سَوَّوْا اللهَ بِكُلِّ مَوْجُودٍ[١]، وَجَعَلُوا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ حقًّا لِكُلِّ مَوْجُودٍ؛ إذْ جَعَلُوهُ هُوَ وُجُودَ المَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ بِرَبِّ الْعِبَادِ[٢].

الشَّرْح

[١] هؤلاء هم غلاة الصوفية كابن عربي(١) وأتباعه من أهل وحدة الوجود(٢)، فهم يقولون: (لا تفريق في الكون بين خالق ومخلوق، كله سواء، كل الكون هو الله).

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو عبد الله الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي طاف البلاد وأقام بمكة مدة وصنف فيها كتابه المسمى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلدًا فيها ما يعقل ومالا يعقل، وله الكتاب المسمى بفصوص الحكم قال عنه الذهبي: ومن أردأ تواليفه كتاب الفصوص، فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر.
وقال العز بن عبد السلام: شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم، ولا يحرم فرجًا. توفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ١٥٦)، وميزان الاعتدال (٦/ ٢٦٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨).

(٢) هم الذين يقولون بوحدة الوجود، مَذْهَبُهُمْ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ: أَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ؛ وَيُسَمَّوْنَ أَهْلَ وَحْدَةِ الْوُجُودِ وَيَدَّعُونَ التَّحْقِيقَ وَالْعِرْفَانَ وَهُمْ يَجْعَلُونَ وُجُودَ الْخَالِقِ عَيْنَ وُجُودِ المَخْلُوقَاتِ فَكُلُّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ المَخْلُوقَاتُ مِنْ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَمَدْحٍ وَذَمٍّ إنَّمَا الْمُتَّصِفُ بِهِ عِنْدَهُمْ: عَيْنُ الْخَالِقِ وَلَيْسَ لِلْخَالِقِ عِنْدَهُمْ وُجُودٌ مُبَايِنٌ لِوُجُودِ المَخْلُوقَاتِ مُنْفَصِلٌ عَنْهَا أَصْلًا؛ بَلْ عِنْدَهُمْ مَا ثَمَّ غَيْرٌ أَصْلًا لِلْخَالِقِ وَلَا سِوَاهُ. وَمِنْ كَلِمَاتِهِمْ: لَيْسَ إلَّا اللهُ. فَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ لَمْ يَعْبُدُوا غَيْرَهُ عِنْدَهُمْ لِأَنَّهُ مَا عِنْدَهُمْ لَهُ غَيْرٌ. انظر: أمراض القلوب وشفاؤها (١/ ٦٤)، والفتاوى الكبرى (٥/ ١٢٢- ١٢٣)، والفرقان (١/ ١١٣)، ودرء التعارض (٧/ ١٢٥)، ومجموع الفتاوى (٢/ ١٢١- ١٢٦).

والتوحيد عندهم أنك لا تقسم الكون إلى مخلوق وخالق، بل تجعل الكون كله هو الله، حتى الكلاب والخنازير؛ فهي عندهم هي الله، فمن فرق، فهو مشرك، ويقولون: (إن فرعون لم يخطئ، إلا لأنه ادعى الربوبية لنفسه، ففرق بين الكائنات، وخص الربوبية فيه؛ ولذلك كفر، وإلا لو اعتقد أن الكون كله هو الله، صار موحدًا).

[٢] فقد جعلوا الله هو الوجود كله، لا تعدد فيه، ولا انقسام، والتقسيم شرك عندهم، فهذا توحيد أهل وحدة الوجود.

وَهَؤُلَاءِ يَصِلُ بِهِمْ الْكُفْرُ إلَى أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ عِبَادٌ[١]؛ لَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مُعَبَّدُونَ، وَلَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ عَابِدُونَ؛ إذْ يَشْهَدُونَ أَنَّ أَنْفُسَهُمْ هِيَ الحَقُّ[٢]؛ كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ طَوَاغِيتُهُمْ كَابْنِ عَرَبِيٍّ صَاحِبِ «الْفُصُوصِ»(١)[٣]، وَأَمْثَالِهِ مِنْ الْمُلْحِدِينَ الْمُفْتَرِينَ كَابْنِ سَبْعِينَ(٢)[٤]، وَأَمْثَالِهِ، وَيَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ هُمْ الْعَابِدُونَ وَالمَعْبُودُونَ[٥]، وَهَذَا لَيْسَ بِشُهُودٍ لِحَقِيقَةٍ؛ لَا كَوْنِيَّةٍ وَلَا دِينِيَّةٍ[٦]؛ بَلْ هُوَ ضَلَالٌ، وَعَمًى عَنْ شُهُودِ الحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، حَيْثُ جَعَلُوا وُجُودَ الخَالِقِ هُوَ وُجُودُ المَخْلُوقِ، وَجَعَلُوا كُلَّ وَصْفٍ مَذْمُومٍ وَمَمْدُوحٍ نَعْتًا لِلْخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ، إذْ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودُ هَذَا عِنْدَهُمْ[٧].

---

(١) كتاب فصوص الحكم لابن عربي. قال عنه الذهبي في الميزان (٦/ ٢٧٠): (وكذلك من أمعن النظر في فصوص الحكم، أو أنعم التأمل لاح له العجب؛ فإن الذكي إذا تأمل من ذلك الأقوال والنظائر والأشباه فهو أحد رجلين: إما من الاتحادية في الباطن، وإما من المؤمنين بالله الذين يعدون أن هذه النحلة من أكفر الكفر، نسأل الله العفو، وأن يكتب الإيمان في قلوبنا، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فوالله لأن يعيش المسلم جاهلًا خلف البقر لا يعرف من العلم شيئًا سوى سور من القرآن يصلي بها الصلوات، ويؤمن بالله وباليوم الآخر، خير له بكثير من هذا العرفان، وهذه الحقائق، ولو قرأ مائة كتاب، أو عمل مائة خلوة). اهـ. والكتاب مطبوع في مجلد واحد سنة ١٣٦٥هـ بدار إحياء الكتب العربية، مع تعليقات لأبي العلا عفيفي. وانظر كشف الظنون (٢/ ١٢٦١).

(٢) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن قطب الدين أبو محمد المقدسي، الرقوطي نسبة إلى رقوطة بلدة قريبة من مرسية، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة، فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد، وصنف فيه. انظر: البداية والنهاية (١٣/ ٢٦١)، والوافي بالوفيات (١٨/ ٣٧)، وشذرات الذهب (٥/ ٣٢٩).

الشرح

[١] أنه ليس لديهم عباد ومعبود، بل يعتبرون ذلك تفريقًا وشركًا؛ إذ الكون كله هو الله المعبود.

[٢] أي: يرون أنفسهم أنها هي الله، ويقول قائلهم: (ليس في الجبة إلا الله)؛ يعني: نفسه.

[٣] أي: كتاب «فصوص الحكم»، وهو كتاب يطبعه أتباعه اليوم، ويعرضونه في معارض الكتب؛ ترويجًا لهذا المذهب الخبيث الملحد.

[٤] من أهل وحدة الوجود، وكابن الفارض صاحب القصيدة التائية[١] التي نظم فيها هذا المذهب.

[٥] أي: لا يرون أن هناك معبودًا وعابدًا، فالكون كله إله معبود.

مآل هذا المذهب:

[٦] أي: هذا المذهب الخبيث ليس فيه إثبات شيء، وهذا أشد أنواع الإلحاد؛ لأنه مخالف للحس والعقل والشرع.

[٧] فقد قال قائلهم[٢]:

---

(١) أبو حفص عمر بن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال، وقد تكلم فيه غير واحد بسبب قصيدته التائية في السلوك على طريقة المتصوفة، والتي ينعق فيها بالاتحاد الصريح، مات ابن الفارض سنة ٦٣٢هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٤٣)، ولسان الميزان (٤/ ٣١٧).

(٢) الْبَيْتُ لِابْنِ عَرَبِيٍّ وَقَدْ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ «الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ» (٤/ ١٤١)، ط. مُصْطَفَى الْحَلَبِيِّ، =

وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ!

فيكون عندهم القرآن والشعر والسب والذم والشتم هو كلام الله -نسأل الله العافية!

ويقولون: (وما الكلب والخنزير إلا إلهنا).

فالواجب على الإنسان إذا اطلع على هذه الأمور -وهي واقعة- أن يسأل الله السلامة والعافية، وأن يشكر الله على نعمته، وعلى فضله أن هداه للإسلام والإيمان، وركب فيه العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: يخاف على نفسه من الضلال والزيغ والإلحاد، فهؤلاء آدميون لهم عقول، ولكن طمس الله بصائرهم وأبصارهم، وأضلهم على علم -والعياذ بالله-، فالإنسان يخشى على نفسه من هذه الأمور، وإنما يطلع عليها من أجل أن يحذر منها، وأن يشكر الله، وأن يسأل الله الثبات، أما إذا لم يعرفها، فإنه لربما وقع فيها واغتر بها، وهو لايدري -نسأل الله العافية-، لا سيما ولها دعاة يروجونها بين الناس اليوم، خصوصًا في معارض الكتب، التي لا رقابة عليها.

=دَارِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ، الْقَاهِرَةِ، ١٣٢٩، وانظر أيضًا: منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٧٣)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٩)، والعرش للذهبي (١/ ٨٩).

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، عَوَامُّهُمْ وَخَوَاصُّهُمْ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ، وَخَاصَّتُهُ»(١)[١].

الشَّرْح

[١] ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الصوفية -خصوصًا الغلاة منهم- يقسمون الناس إلى: خاصة، وعامة.

الخاصة: هم الذين يزعمون أنهم عرفوا الله، ووصلوا إليه، وسقطت عنهم التكاليف، فليس عليهم صلاة ولا زكاة ولا أوامر ولا نواهٍ.

وأما العامة عندهم: فهم العوام، الذين لم يصلوا إلى الله، فهؤلاء توجه إليهم الأمر بالتحليل والتحريم، وهم الرسل وأتباع الرسل الذين يحتاجون إلى الأوامر والنواهي والشرع!

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن هذا التقسيم باطل، فالمؤمنون هم الأنبياء وأتباعهم هم أولياء الله وخاصته، وأتباع الأنبياء: عوامهم وعلماؤهم، وهم الذين عرفوا الله حقيقة بأسمائه وصفاته وشرعه ودينه، فهم كلهم أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد سماهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهْلُ اللهِ، وَخَاصَّتُهُ»، وهؤلاء أرفع منزلة وأعلى درجة، ومع هذا لم تسقط عنهم التكاليف مهما بلغوا من

(١) أخرجه النسائي (٧٩٧٧)، وأحمد (١٩/ ٣٠٥)، والبزار (١٣/ ٥٢٠)، والحاكم (١/ ٧٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المنزلة عند الله، وليس المراد بأهل القرآن الذين يحفظونه ويرتلونه خاصة؛ بل أهل القرآن هم الذين يعملون به، حتى ولو لم يحفظوه، فالذين يعملون بالقرآن بأوامره ونواهيه وحدوده هم أهل القرآن، وهم أهل الله وخاصته من خلقه، وهم خاصة الخاصة، أما من يحفظ القرآن، ويجيد التلاوة، ويضبط الحروف، ويضيع الحدود، فهذا ليس من أهل القرآن، وليس من الخاصة، فأهل القرآن هم الذين يستدلون به، ولا يقدمون عليه غيره، ويأخذون منه الفقه والأحكام والدين.

فَهَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُهُ[١] وَأَنَّ الخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ، لَيْسَ هُوَ حَالًّا فِيهِ وَلَا مُتَّحِدًا بِهِ، وَلَا وُجُودُهُ وُجُودَهُ[٢].

الشَّرْح

[١] أي: المؤمنون يثبتون توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ويفرقون بين الخالق والمخلوق؛ فهم جمعوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وعرفوا الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته وكماله وجلاله وعظمته، وعبدوه حق عبادته، وهذا هو التوحيد الصحيح، فهم جمعوا بين هذا وذاك؛ بخلاف الصوفية وأتباعهم، فإنهم إنما عرفوا توحيد الربوبية والقضاء والقدر، وجحدوا الشريعة، ولم يعملوا بها، ويقولون: (إن الشريعة للعوام، ويكفي الإنسان أنه يعرف توحيد الربوبية).

[٢] أي: عرفوا الفرق بين الخالق والمخلوق، بخلاف غلاة الصوفية الذين يقولون: (الكون كله هو الله، ولا تعدد فيه ولا انقسام)؛ ولذلك يسمون أهل وحدة الوجود، فالوجود -بزعمهم- كله هو الله، تعالى الله عن ذلك، فالرسل وأتباعهم يعتقدون بوجود الفرق بين الخالق والمخلوق، وأن الله هو رب كل شيء وخالقه، وما سواه فهو مخلوق وعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هؤلاء هم المؤمنون، فيعتقدون أن الله جَلَّ وَعَلَا مباين لخلقه، ليس حالًا في المخلوق؛ كما تقوله الحلولية[١] من الصوفية وغيرهم، وكما تقوله النصارى: (إن الله حل

(١) **الحلولية**: هم الذين يعتقدون أن الله تعالى بذاته حل في مخلوقاته كما يحل الماء في الإناء، =

في المسيح)، فهذا قول الحلولية الكفار، فالله جَلَّوَعَلَا بائن من خلقه، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو فوق مخلوقاته، استوى على العرش فوق كل شيء، وهو العلي الأعلى جَلَّوَعَلَا.

فقول المصنف: (وَأَنَّ الخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ) هذا رد على الحلولية والاتحادية، وكلمة «مباين» معناها: منفصل، فالخالق منفصل عن المخلوق، والمخلوق منفصل عن الخالق، وليس بينهما اختلاط ولا اتحاد ولا حلول؛ كما يقوله الحلولية. (وَلَا وُجُودُهُ وُجُودَهُ)؛ كما يقوله أهل وحدة الوجود: (إن وجود الخالق هو وجود المخلوق)[1].

=وأنه تعالى بذاته في كل مكان، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. وأما الاتحاد: فهو القول بأن الله تعالى متحد بمخلوقاته وممتزج بها كما يمتزج الماء بالطين، وأن وجود الخالق هو عين وجود المخلوقات، أي أن الوجود واحد. والقول بالحلول والاتحاد مآلهما واحد، وهذه عقيدة غلاة الصوفية والفلاسفة، كابن عربي وابن سبعين والحلاج والتلمساني وغيرهم. انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ١١١- ٤٨٠).

(١) كما يقول ابن الفارض في تائيته:

لها صَلَواتي بالمَقامِ أُقِيمُها ... وأشهَدُ فيها أنَّها لِيَ صَلَّتِ
كِلانا مُصَلٍّ واحِدٌ ساجِدٌ إلى ... حقيقتِهِ بالجمعِ في كُلِّ سجدَةِ
وما كان لي صَلَّى سِوايَ وَلَم تَكُن ... صَلاتي لِغَيري في أدا كُلِّ رَكعَةِ

إلَى أَنْ قَالَ:

وما زِلْتُ إيَّاها وإيايَ لَم تَزَلْ ... ولا فَرْقَ بل ذاتِي لِذاتي أحَبَّتِ
إليَّ رَسولًا كُنتُ مِنيَ مُرْسَلا ... وذاتي بآياتي عليَّ استَدَلَّتِ
فإن دُعيَتْ كنتُ المُجيبَ وإن أكُن ... منادىً أجابَتْ مَن دعاني ولَبّت

انظر: ديوان ابن الفارض (ص٩٧).

وَالنَّصَارَى كَفَّرَهُمْ اللهُ بِأَنْ قَالُوا بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ بِالْمَسِيحِ خَاصَّةً، فَكَيْفَ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ؟[١] **وَيَعْلَمُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ**[٢]**،**

الشَّرْح

[١] النصارى أخف كفرًا من الحلولية؛ لأن الحلولية يعتقدون أن الله حال في كل شيء، حتى المراحيض ودورات المياه والحشوش -تعالى الله عن ذلك-، أما النصارى، فإنما زعموا أن الله اتحد بالمسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يعمموا اتحاده في كل المخلوقات، فهم أخف كفرًا من الحلولية والاتحادية، مع أن كفر النصارى هو أشنع الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧].

[٢] أي: يعلم أهل الإيمان، (**مَعَ ذَلِكَ**)؛ أي: مع اعتقادهم أن الله جَلَّ وَعَلَا ليس حالًا في خلقه، ولا متحدًا فيهم (**أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ**)، فهم يعلمون أن الله أمر ونهى، وأنزل الشريعة على الرسل، بخلاف الحلولية والاتحادية الذين يسقطون الشريعة عن الخواص، ويجعلونها للعوام.

وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَّ عَلَى الخَلْقِ أَنْ يَعْبُدُوهُ فَيُطِيعُوا أَمْرَهُ[١]، وَيَسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥][٢].

وَمِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ الْأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ -بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ- وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ[٣].

الشَّرْح

[١] والحلولية والاتحادية يقولون: (ما دام أنه قدر الفساد والمعاصي، فهو يرضاها ويحبها) -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا-، وذلك نتيجة لاحتجاجهم بالقدر على جواز أفعالهم الكفرية والشركية.

[٢] وهي أول سورة في المصحف، فجمع بين العبادة والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، فأهل الإيمان يقولون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: لا نعبد سواك، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي: لا نستعين إلا بك، فهم جمعوا بين الإيمان بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، بخلاف هؤلاء؛ فإنهم إنما اقتصروا على توحيد الربوبية.

[٣] لا يكفي من المؤمن أن يستقيم في نفسه، ولا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، ولا يجاهد في سبيل الله، بل لابد من الدعوة والجهاد، فلا يترك الناس من دون أمر ونهي، وبدون جهاد في سبيل الله، لا أحد منهم يقول: (ليس علي إلا من نفسي، وليس علي من الناس)؛ فقد أوجب الله على المؤمنين الدعوة إلى الله، وأوجب عليهم النصيحة، وكذا الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر -بحسب استطاعتهم-، وأوجب عليهم الجهاد في سبيل الله -بحسب استطاعتهم-؛ لإعلاء كلمة الله ونشر دينه؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**[1].

فجهاد أهل الكفر بالسلاح؛ لأنه لو ترك الكفار، ولم يُقَاتَلوا، لتسلطوا على المسلمين، ونشروا الكفر، ودعوا إليه، وصدوا عن سبيل الله، فلابد من جهادهم لكف شرهم عن الإسلام والمسلمين، فلو تركناهم، ما تركونا؛ كما هو مشاهد الآن من فعل الكفار بالمسلمين، فلابد من جهادهم مع الاستطاعة، والجهاد ليس من الأمور الفردية، كل يجاهد منفردًا، بل يشترط للجهاد الجماعة، ويشترط له السمع والطاعة لولي الأمر، واجتماع الكلمة تحت قيادة موحدة، فالجهاد إذًا لا يقوم إلا بجماعة وبإمامة وقيادة مسلمة، وليس الجهاد فوضى، كل يحمل السلاح ويقتل ويضرب، فليس هذا من الجهاد، ولم يأمر به الإسلام؛ لأن هذا من الفوضى التي تضر الإسلام والمسلمين، ومن التخريب المحرم والإفساد في الأرض.

وأما أهل النفاق، فيُجَاهَدون باللسان؛ لأنهم يظهرون الإسلام، ويظهر منهم كلام سيئ، وتفوح منهم روائح الكفر، فهؤلاء يجاهدون باللسان، وذلك بالرد عليهم، وإبطال شبهاتهم، وتتبع مقالاتهم ومؤلفاتهم، والرد عليهم؛ لئلا تروج عند الناس، فتشيع، ويظنوها حقًّا؛ لأنهم قد يعطون

---

(١) سبق تخريجه (ص٨٨).

فصاحة وبلاغة، فيغرون الناس بأساليبهم وفصاحتهم، ويلبسون الحق بالباطل. ولا يقوم بهذا إلا أهل العلم، فهم الذين يردون على المنافقين، ويبطلون شبهاتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣].

فَيَجْتَهِدُونَ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ، مُسْتَعِينِينَ بِهِ[١]، دَافِعِينَ مُزِيلِينَ بِذَلِكَ مَا قُدِّرَ مِنْ السَّيِّئَاتِ[٢]، دَافِعِينَ بِذَلِكَ مَا قَدْ يُخَافُ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا يُزِيلُ الْإِنْسَانُ الْجُوعَ الْحَاضِرَ بِالْأَكْلِ[٣]، وَيَدْفَعُ بِهِ الْجُوعَ الْمُسْتَقْبَلَ، وَكَذَلِكَ إِذَا آنَ أَوَانُ الْبَرْدِ دَفَعَهُ بِاللِّبَاسِ[٤]،

الشرح

[١] فالمؤمنون يقومون بالجهاد في سبيل الله لأهل الكفر ولأهل النفاق؛ لئلا ينتشر الكفر، ويختفى الإيمان، ويذل المسلمون، ويعز الكفار، فلابد من الجهادين: جهاد الكفار من الخارج، وجهاد المنافقين من الداخل، فالمنافقون يعيشون مع المسلمين، ويزعمون أنهم مسلمون، ولكنهم ينشرون الشر، وهم خدم للكفار في كل زمان ومكان، فلابد من جهاد الكفار من الخارج وجهاد المنافقين من الداخل؛ حتى ينتصر الإسلام، وينقمع أهل الشر.

[٢] فلا يقولون عن الكفر والنفاق: (هذا شيء مقدر قدره الله)، ونقول: الله قدر وأمرنا أن نجاهد الكفار، مع أنه قدر الكفر والشرك والمعاصي والنفاق، ومع هذا أمرنا أن ندافع هذه الأشياء وأن نقاومها، ولا نسكت عنها ونقول: (هذا مقدر)، فهذه حجة أهل الباطل.

[٣] ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذلك أمثلة محسوسة على وجوب فعل الأسباب:

المثال الأول: (كَمَا يُزِيلُ الْإِنْسَانُ الْجُوعَ الْحَاضِرَ بِالْأَكْلِ)، فنحن ندافع الكفر والشرك والنفاق -وإن كان ذلك مقدرًا-، ولا نستسلم له؛ كما أننا

ندافع الفقر والجوع والظمأ بالأكل والشرب، ولا نحتج بالقدر لنجلس ونستسلم، فلماذا لا يحتج هؤلاء بالقدر على ترك الطعام والشراب؟! فهم بفطرتهم يأكلون ويشربون، ويطلبون الرزق، ولايقولون: (هذا مقدر)، فلماذا يحتجون بالقدر في ناحية، ويتركونه في ناحية أخرى؟! فالقدر إذن ليس حجة لنا في ترك مدافعة الشرور، فكما ندافع الجوع والعطش كذلك ندافع الكفار والمنافقين والمشركين والعصاة.

[٤] **المثال الثاني**: قال: (وَكَذَلِكَ إِذَا آنَ أَوَانُ الْبَرْدِ دَفَعَهُ بِاللِّبَاسِ)، فالإنسان يلبس الملابس الثقيلة والصوفية لأجل أن يتقي البرد، فلماذا لايقول: (إن البرد قضاء وقدر)، ويترك اللباس والمدفئات؟! لا أحد يقول هذا وهو عاقل، فدل على أن القدر ليس حجة، فكما ندفع البرد بالملابس، وندفع الجوع بالطعام، وندفع الظمأ بالشراب، فإننا ندفع الكفر والنفاق بالجهاد.

وَكَذَلِكَ كُلُّ مَطْلُوبٍ يُدْفَعُ بِهِ مَكْرُوهٌ، كَمَا قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْت أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا، وَرُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا، وَتُقَاةً نَتَّقِي بِهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»[(١)]، وَفِي الحَدِيثِ: «إنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[(٢)] [١].

فَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ الْعَابِدِينَ للهِ وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ.

الشَّرْح

[١] **المثال الثالث:** كما قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْت أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا، وَرُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا، وَتُقَاةً نَتَّقِي بِهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئًا؟». سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأسباب هل ترد من قدر الله شيئًا، فقال: «هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»، فالأسباب التي نأخذ بها قدرها الله، فكما قدر الله البرد قدر لبس الملابس والاستدفاء لدفعه، وكذا قدر الظمأ، وقدر تناول الشراب لدفعه ... وهكذا.

وفي حديث آخر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»[(٣)]، فهل إذا أصاب الإنسان مرض يستسلم، ويقول: (هذا مقدر علي)؟! بل له أن يدفع القدر بالقدر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٦٥)، وابن ماجه (٣٤٣٧)، وأحمد (٢٤/ ٢١٧) من حديث أَبِي خِزَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البزار (١٤/ ٤٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٦٦)، والحاكم (١/ ٦٦٩)، والبيهقي في القضاء والقدر (ص٢١٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، ومسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والرقية المعروفة، وهي القراءة على المريض، والدعاء له بالشفاء، فالرقية مشروعة، والقرآن فيه شفاء، ولا يمكن أن نتكل على القدر ونقول: (اتركوا المريض فهذا مقدر عليه)!

ومما يدل على ذلك ما جاء في الحديث: «**إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»، فالبلاء مقدر، والدعاء مقدر، والدعاء يدفع البلاء بقدر؛ فيدفع المقدر بالمقدر.

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ «الحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ»[١]، وَهِيَ رُبُوبِيَّتُهُ تَعَالَى لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ اتِّبَاعِ أَمْرِهِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ عَلَى مَرَاتِبَ فِي الضَّلَالِ:

فَغُلَاتُهُمْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ مُطْلَقًا عَامًّا، فَيَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ فِي كُلِّ مَا يُخَالِفُونَ فِيهِ الشَّرِيعَةَ.

وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف:٢٠].

وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ تَنَاقُضًا: بَلْ كُلُّ مَنْ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ فَإِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقِرَّ كُلَّ آدَمِيٍّ عَلَى مَا فَعَلَ؛ فَلَا بُدَّ إِذَا ظَلَمَهُ ظَالِمٌ أَوْ ظَلَمَ النَّاسَ ظَالِمٌ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ، وَأَخَذَ يَسْفِكُ دِمَاءَ النَّاسِ، وَيَسْتَحِلُّ الْفُرُوجَ، وَيُهْلِكُ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّرَرِ، الَّتِي لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ بِهَا أَنْ يَدْفَعَ هَذَا الْقَدَرَ؛ وَأَنْ يُعَاقِبَ الظَّالِمَ بِمَا يَكُفُّ عُدْوَانَ أَمْثَالِهِ[٢].

الشَّرْح

[١] وهم الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية فقط، وينكرون الشريعة، هم متناقضون؛ فهم لا يحتجون بالقدر في كل شيء يخالفون فيه الشريعة، فهم يختلفون عن الاتحادية، الذين جعلوا الخالق والمخلوق سواء، وكل الأفعال من الكفر والإيمان سواء؛ لأنها مقدرة.

[٢] لأنهم لا يستطيعون أن يحتجوا بالقدر في كل شيء، بل هم يحتجون به في أمور الدين، فإذا تركوا الواجبات، احتجوا بالقدر، وإذا فعلوا المحرمات، احتجوا بالقدر، ولكنهم في أمور دنياهم لا يحتجون بالقدر، فلو ضربه إنسان -مثلًا- لا يقول: (هذا مقدر علي)، ويسكت، بل يطالب بحقه، وينتقم ممن ضربه.

فَيُقَالُ لَهُ: إنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً فَدَعْ كُلَّ أَحَدٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِك وَبِغَيْرِك، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً بَطَلَ أَصْلُ قَوْلِك: إنَّ الْقَدَرَ حُجَّةٌ.

وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ بِالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ لَا يَطْرُدُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَلَا يَلْتَزِمُونَهُ[١]، وَإِنَّمَا هُمْ بِحَسَبِ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ؛ كَمَا قَالَ فِيهِمْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِي، وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِي؛ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاك تَمَذْهَبْتَ بِهِ.

الشَّرْح

[١] (الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ بِالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ لَا يَطْرُدُونَ هَذَا الْقَوْلَ وَلَا يَلْتَزِمُونَهُ) في كل شيء؛ أي: إنهم لا يستمرون على مذهبهم، ويحتجون به في كل شيء، بل يحتجون بالقدر في ترك الأوامر وفعل النواهي فقط، ولايحتجون به في المطالب الدنيوية، فيتركونها لمن ظلمهم واعتدى عليهم فيها، بل يطالبونه، ويعاقبونه على ذلك، فهم عند الطاعة قدرية، وعند المعصية جبرية، فيأخذون بكل مذهب يوافق أهواءهم.

[٢] أي: هؤلاء يقسمون الناس إلى من يثبت فعل العبد واختياره، ومن ينفي فعل العبد، ويرى أنه مجبر عليه، لا اختيار له فيه، فالاختيار للأول دون الثاني، والناس عنده ينقسمون إلى عامة وخاصة:

فالعامة: هم من لم يصلوا إلى الله، فيلتزمون بالشريعة؛ لأنهم لم ترفع عنهم التكاليف.

والخاصة: هم من وصلوا إلى الله، ولا يلتزمون بالشريعة؛ لأنها قد رفعت عنهم التكاليف، ويقولون: (من آمن بالقضاء، سقطت عنه التكاليف الشرعية؛ لأنه صار مجبرًا، لا اختيار له)، وهذا هو الإيمان عندهم.

ويزعمون أن الخضر من هذا الصنف؛ لأنه آمن بالقضاء والقدر. وعلى هذا فالذي يثبت أفعال العباد يكون مكذبًا بالقدر عندهم.

وَمِنْهُمْ «صِنْفٌ» يَدَّعُونَ التَّحْقِيقَ وَالمَعْرِفَةَ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَازِمٌ لِمَنْ شَهِدَ لِنَفْسِهِ فِعْلًا وَأَثْبَتَ لَهُ صُنْعًا، أَمَّا مَنْ شَهِدَ أَنَّ أَفْعَالَهُ مَخْلُوقَةٌ، أَوْ أَنَّهُ مَجْبُورٌ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ المُتَصَرِّفُ فِيهِ؛ كَمَا تُحَرَّكُ سَائِرُ المُتَحَرِّكَاتِ، فَإِنَّهُ يَرْتَفِعُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ.

وَقَدْ يَقُولُونَ: مَنْ شَهِدَ «الْإِرَادَةَ»، سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ، وَيَزْعُمُ أَحَدُهُمْ أَنَّ الخَضِرَ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ لِشُهُودِهِ الْإِرَادَةَ.

فَهَؤُلَاءِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَالخَاصَّةِ الَّذِينَ شَهِدُوا الحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، فَشَهِدُوا أَنَّ اللهَ خَالِقُ أَفْعَالَ الْعِبَادِ، وَأَنَّهُ يُدَبِّرُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ، وَقَدْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ عِلْمًا وَبَيْنَ مَنْ يَرَاهُ شُهُودًا، فَلَا يُسْقِطُونَ التَّكْلِيفَ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِذَلِكَ وَيَعْلَمُهُ فَقَطْ، وَلَكِنْ عَمَّنْ يَشْهَدُهُ، فَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ فِعْلًا أَصْلًا، وَهَؤُلَاءِ لَا يَجْعَلُونَ الجَبْرَ وَإِثْبَاتَ الْقَدَرِ مَانِعًا مِنَ التَّكْلِيفِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.

وَقَدْ وَقَعَ فِي هَذَا طَوَائِفُ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ ضَاقَ نِطَاقُهُمْ عَنْ كَوْنِ الْعَبْدِ يُؤْمَرُ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ خِلَافُهُ، كَمَا ضَاقَ نِطَاقُ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةُ أَثْبَتَتْ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ الشَّرْعِيَّيْنِ دُونَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي هُوَ إِرَادَةُ اللهِ الْعَامَّةُ[١]،

الشَّرْح

[١] **أولًا: المعتزلة:** أثبتوا الشرع الذي هو الأمر والنهي، وأنكروا القضاء والقدر في أفعال العباد، فيقولون: (العباد هم الذين خلقوا أفعالهم من طاعات ومعاص، دون أن يقدر الله ذلك عليهم).

وَخَلْقُهُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَهَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ[١] وَنَفَوْا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ فِي حَقِّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ؛ إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُمْ نَفْيُ ذَلِكَ مُطْلَقًا.

وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ[٢]؛ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّلَفِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَحَدٌ، وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لِلْمَحْجُوبِينَ[٣] الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، وَلِهَذَا يَجْعَلُونَ مَنْ وَصَلَ إِلَى شُهُودِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَصَارَ مِنْ الْخَاصَّةِ.

وَرُبَّمَا تَأَوَّلُوا عَلَى ذَلِكَ[٤]، قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

الشَّرْح

[١] **ثانيًا: الجبرية**: وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر، لكنهم قالوا: (إن الإنسان مجبور على أفعاله؛ فلا يؤاخذ عليها)، فهم أثبتوا القضاء والقدر، ونفوا أفعال العباد، عكس المعتزلة.

[٢] قال الشيخ: (وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ)، ووجه ذلك: أن المعتزلة يعظمون الأمر والنهي، فإنهم يعظمون الشريعة، بخلاف الجبرية الذين لا يعظمون الأوامر والنواهي.

[٣] **ثالثًا: الصوفية**: يجعلون الأوامر والنواهي للعامة الذين لم يصلوا إلى الله، ويسقطونها عن الخاصة الذين وصلوا إلى الله، ويسمونهم المحجوبين.

قال الشيخ: (وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لِلْمَحْجُوبِينَ).

[٤] أي: ربما استدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، ويفسرون اليقين بالوصول إلى الله، فمن وصل إلى الله بزعمهم، سقطت عنه التكاليف، ويزعمون: أن الخضر سقطت عنه التكاليف؛ حيث لم يتبع موسى، وقد سبق الجواب عن ذلك.

وَجَعَلُوا الْيَقِينَ هُوَ مَعْرِفَةُ هَذِهِ الحَقِيقَةِ، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ صَرِيحٌ[١]، وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ طَوَائِفُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ كُفْرٌ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَازِمٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مَا دَامَ عَقْلُهُ حَاضِرًا إِلَى أَنْ يَمُوتَ، لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لَا بِشُهُودِهِ الْقَدَرَ، وَلَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ عُرِّفَهُ، وَبُيِّنَ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى اعْتِقَادِ سُقُوطِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَقَدْ كَثُرَتْ مِثْلُ هَذِهِ المَقَالَاتِ فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ.

وَأَمَّا الْمُسْتَقْدِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ المَقَالَاتُ مَعْرُوفَةً فِيهِمْ. وَهَذِهِ المَقَالَاتُ هِيَ مُحَادَّةٌ للهِ وَرَسُولِهِ، وَمُعَادَاةٌ لَهُ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَمُشَاقَّةٌ لَهُ، وَتَكْذِيبٌ لِرُسُلِهِ؛ وَمُضَادَّةٌ لَهُ فِي حُكْمِهِ، وَإِنْ كَانَ مَنْ يَقُولُ هَذِهِ المَقَالَاتِ قَدْ يَجْهَلُ ذَلِكَ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ هُوَ طَرِيقُ الرَّسُولِ، وَطَرِيقُ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُحَقِّقِينَ؛ فَهُوَ فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ؛ لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهَا بِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ، أَوْ أَنَّ الخَمْرَ حَلَالٌ لَهُ لِكَوْنِهِ مِنَ الخَوَاصِّ الَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ شُرْبُ الخَمْرِ؛ أَوْ أَنَّ الْفَاحِشَةَ حَلَالٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ صَارَ كَالْبَحْرِ لَا تُكَدِّرُهُ الذُّنُوبُ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الشَّرْح

[١] قال الشيخ: (وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ صَرِيحٌ)؛ لأنهم خالفوا النصوص التي فيها أن جميع الناس مكلفون بعبادة الله تعالى إلى الممات، قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، فمعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾؛ أي: حتى ينزل بك الموت، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ يَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ الْبِدْعَةِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرْعِ اللهِ؛ وَبَيْنَ الِاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللهِ؛ فَهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافُ فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِمَّا أَنْ يَبْتَدِعُوا، وَإِمَّا أَنْ يَحْتَجُّوا بِالْقَدَرِ، وَإِمَّا أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨][١].

الشَّرْح

[١] فالمشركون كذبوا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال الله عنهم: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾؛ أي: أن الله قدرها علينا. فاحتجوا بالقدر على فعل الفواحش، وأن الله راضٍ عنهم في ذلك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف:٢٨]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهى عن كشف العورات، وسمى ذلك فاحشة.

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف:٢٩]؛ أي: أخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ، فإقامة الوجوه معناها: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ بالعمل. فالله أمر بالقسط وهو العدل، ولم يأمر بالجور وهو الظلم، وأمر بإخلاص العبادة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يأمر بالشرك والفواحش.

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨][١].

وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ الدِّينِ الَّذِي فِيهِ تَحْلِيلُ الحَرَامِ، وَالْعِبَادَةُ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللهُ بِمِثْلِ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٣٨] إلَى آخِرِ السُّورَةِ[٢].

الشَّرْح

[١] فهم يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم، وكذلك الجبرية والصوفية، وقد ذكر الله عنهم أنهم قالوا ذلك؛ كما في سورة النحل.

المشركون ابتدعوا في الشرع تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ كما ذكر الله عنهم:

[٢] فقد كانوا يجعلون قسمًا من زروعهم وحروثهم لله، وقسمًا لأصنامهم لا يأكلونه، ويقولون: (هذا لله)، يتعبدون لله، فابتدعوا ما لم يشرع لهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦]، فيجعلون من الزروع والمواشي قسمين: قسمًا لله، وقسمًا للأصنام، كل هذا تحكم من عندهم، والأنعام التي يملكونها جعلوا منها البحيرة والوصيلة والحامي، أشياء

لم يشرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله خلق بهيمة الأنعام لمصالحنا ومنافعنا؛ نأكل منها، ونشرب من لبنها، ونركبها، ونستعملها في حاجاتنا، ونحمل عليها، ولم يأمرنا أن نسيب منها شيئًا للأصنام أو لله، ونقول: (هذه لا تركب، وهذه لا تحلب، وهذه لا تؤكل)، كل هذا تخبط في الحلال والحرام، لم يشرعه الله.

وَكَذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف:٢٧][١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف:٢٩]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف:٣١] ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف:٣٢] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

الشرح

[١] أي: ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة «الأعراف» ما فعله إبليس مع الأبوين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وأنه حاول معهما أن يطيعاه ليبدي لهما ما وري عنهما من سوآتهما؛ أي: عوراتهما، حاول معهما ذلك، حتى أكلا من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها، فبدت لهما سوءاتهما؛ أي: ظهرت عوراتهما، ولهذا قال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف:٢٧]، إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]، فأخبر أن كشف العورات مما يأمر به إبليس وأتباعه، واليوم المستغربون منا يدعون إلى العري، ونزع الحجاب، وإلى

الاختلاط بين الرجال والنساء، ويريدون بكل ذلك تغيير هذه النعمة التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين بما يستر عوراتهم، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٦]، فاللباس على قسمين: منه ما هو لستر العورة، ومنه ما هو زينة يتجمل به، وهذا من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فاللباس والتزين وستر العورة من نعم الله، غير أن المشركين والشياطين من الإنس والجن يقولون: لماذا التشدد في هذا والأمم المتحضرة على خلافه؟! ولا يبالون بكشف العورات.

هَؤُلَاءِ قَدْ يُسَمُّونَ مَا أَحْدَثُوهُ مِنْ الْبِدَعِ «حَقِيقَةً»[١]؛ كَمَا يُسَمُّونَ مَا يَشْهَدُونَ مِنْ الْقَدَرِ «حَقِيقَةً»[٢]. وَطَرِيقُ الحَقِيقَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ السُّلُوكُ الَّذِي لَا يَتَقَيَّدُ صَاحِبُهُ بِأَمْرِ الشَّارِعِ وَنَهْيِهِ، وَلَكِنْ بِمَا يَرَاهُ وَيَذُوقُهُ وَيَجِدُهُ فِي قلبه مَعَ مَا فِيهِ من غَفلَة عَن اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَهَؤُلَاءِ لَا يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ مُطْلَقًا، بَلْ عُمْدَتُهُمْ اتِّبَاعُ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَجَعْلُهُمْ لِمَا يَرَوْنَهُ وَيَهْوُونَهُ حَقِيقَةً، وَأَمْرُهُمْ بِاتِّبَاعِهَا دُونَ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ[٣] نَظِيرُ بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَقَائِقَ عَقْلِيَّةً يَجِبُ اعْتِقَادُهَا، دُونَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السَّمْعِيَّاتُ[٤].

الشَّرْح

[١] أي: إن الصوفية الذين يبتدعون عبادات لم يشرعها الله، ويتركون ما شرعه الله، ويقسمون الدين إلى حقيقة وشريعة، ويقولون: (الحقيقة للخواص، والشريعة للعوام)، مع أن الشريعة للجميع.

[٢] أي: فهم يزعمون أن ما يفعلونه موافق للقدر -وإن كان كفرًا وشركًا-، فهم مطيعون فيه لله، يعرضون عما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى ما تهواه نفوسهم، وتلذ به قلوبهم.

[٣] فهم زيادة على الاحتجاج بالقضاء والقدر، فقد أضافوا إلى ذلك اتباع ما يهوونه وما يتلذذون به من الأمور، فيشرعون لأنفسهم ما لذ لهم،

ووافق أهواءهم ورغباتهم، ويعرضون عن شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويسمون ما يشرعونه لأنفسهم -وهو الذوق والوجد... إلى آخره- أنه «حقيقة»، ويسمون ما جاءت به الرسل «شريعة»، ويقولون: (الحقيقة طريق الخواص، والشريعة طريق العوام).

[٤] فالصوفية في (وَأَمْرُهُمْ بِاتِّبَاعِهَا دُونَ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ)، (نَظِيرُ بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ...)، فالجهمية ورئيسهم الجهم بن صفوان، والمعتزلة ورئيسهم واصل بن عطاء ومن شابهه وعموم المتكلمين يحتجون بعلم الجدل وقواعد المنطق وما يسمونها البراهين العقلية، ويقدمونها على الأدلة الشرعية، ويقولون: (إن الأدلة الشرعية ظنية لا تفيد اليقين، وأما البراهين العقلية، فهي يقينية)؛ ولذلك أنكروا الأسماء والصفات الثابتة بالكتاب والسنة؛ لأنها لا توافق البراهين العقلية -بزعمهم- ويسمون الأدلة الشرعية «أدلة السمع»، وأدلة المنطق «أدلة العقل»، وعندهم العقل مقدم على الشرع؛ لأن الشرع لا يفيد اليقين، وأما العقليات، فإنها تفيد اليقين، وهذا من كيد الشيطان لبني آدم، فكما أنه أضلهم في العبادة أضلهم في العقيدة أيضًا.

ثُمَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ إِمَّا أَنْ يُحَرِّفُوهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا يَتَدَبَّرُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَهُ، بَلْ يَقُولُونَ: نُفَوِّضُ مَعْنَاهُ إِلَى اللهِ، مَعَ اعْتِقَادِهِمْ نَقِيضَ مَدْلُولِهِ[١].

وَإِذَا حُقِّقَ عَلَى هَؤُلَاءِ مَا يَزْعُمُونَهُ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَجَدْتَ جَهْلِيَّاتٍ وَاعْتِقَادَاتٍ فَاسِدَةً[٢].

وَكَذَلِكَ أُولَئِكَ إِذَا حُقِّقَ عَلَيْهِمْ مَا يَزْعُمُونَهُ مِنْ حَقَائِقِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَجَدْتَ مِنَ الْأَهْوَاءِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا أَعْدَاءُ اللهِ لَا أَوْلِيَاؤُهُ.

الشَّرْح

[١] فهم يتبعون الأدلة العقلية والبراهين المنطقية؛ لأن عقائدهم مبنية على ذلك، فهم لا يحتجون لا بالآيات ولا بالأحاديث، وإنما يحتجون بقواعد المنطق وعلم الكلام، ويسمونها «براهين قطعية».

وموقفهم من أدلة القرآن والسنة: إما أنهم يفسرون الآيات والأحاديث حتى توافق أهواءهم بغير تفسيرها الصحيح، وهذا ما يسمونه بالتأويل.

وإما أنهم يفوضون معناها، ولا يفسرونها، ويعتقدون في نفس الأمر أنها لا تدل على أسماء الله ولا على صفاته، ويقولون: (لا ندري ما المراد بها، بل نفوض معناها إلى الله)، فهم إما مؤولة، وإما مفوضة.

فهذه طريقتهم مع أدلة الشرع: إما تأويلها وتحريفها وتفسيرها؛ كما يريدون، وإما أن يفوضوها كأنها أحاج وألغاز لا تعرف معناها، وذلك

إذا عجزوا عن تأويلها بأنها لا تدل على ما يقوله أهل السنة والجماعة من إثبات أسماء الله وصفاته، وربما ينسبون هذه الطريقة الإلحادية إلى السلف، ويقولون: (طريقة السلف هي التفويض، وطريقة الخلف هي التأويل)؛ ولذلك قالوا: (طريقة السلف أسلم)، وهي التفويض عندهم، (وطريق الخلف أعلم وأحكم)، وهي التأويل.

وقد كذبوا؛ فهذه ليست طريقة السلف، وليست طريقة السلف أسلم فقط؛ بل هي الأسلم وهي الأعلم والأحكم.

[٢] هم يقولون: إن الأدلة العقلية يقينيات، فيعتبرون الأدلة العقلية -وهي في الحقيقة جهليات- يقينيات، واليقينيات: ما دل عليه الكتاب والعقل السليم، لا يخالف النقل الصحيح أبدًا، فإن اختلفا: فإما أن يكون النقل غير صحيح، وإما أن العقل غير سليم، هذه هي القاعدة؛ لأن العقل لا يدرك كل شيء، فهو قاصر وتابع للنقل، ولو كانت العقول كافية، لما احتجنا إلى نزول القرآن والسنة، ولشيخ الإسلام كتاب بعنوان: «درء تعارض العقل والنقل»، وهو مطبوع.

وَأَصْلُ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ هُوَ بِتَقْدِيمِ قِيَاسِهِ عَلَى النَّصِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَاخْتِيَارِهِ الهَوَى عَلَى اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ، فَإِنَّ الذَّوْقَ وَالْوَجْدَ وَنَحْوَ ذَلِكَ هُوَ بِحَسَبِ مَا يُحِبُّهُ الْعَبْدُ وَيَهْوَاهُ، فَكُلُّ مُحِبٍّ لَهُ ذَوْقٌ وَوَجْدٌ بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ وَهَوَاهُ[١]. فَأَهْلُ الْإِيمَانِ لَهُمْ مِنَ الذَّوْقِ وَالْوَجْدِ مِثْلُ مَا بَيَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[١]، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا»[٢]. وَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ وَالشَّهَوَاتِ فَكُلٌّ بِحَسْبِهِ.

الشَّرْح

[١] أي: إن سبب الضلال هو: تقديم العقل على النص المنزل من عند الله، وتقديم الهوى على اتباع الهدى.

فعلماء الكلام يقدمون آراءهم وعقولهم وما يزعمونه من العقليات على كتاب الله وسنة رسوله، وكذلك الصوفية يقدمون الذوق -وهو ما يتلذذون به-، ولو كان مخالفًا للكتاب والسنة، ويقدمون الوجد -وهو ما يحبونه- عليهما، وهذا هو أصل الضلال، فترك الكتاب والسنة وجعل بديلهما

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآراء والبدع والأذواق والمواجيد والأقيسة والعقول هو الذي أوقعهم في الضلال، ولهذا لما سئل سفيان بن عيينة: «مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ؟ ، فَقَالَ: أَنَسِيتَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣]»؛ أي: إن حب العجل كان سبب كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣].

قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ؟، فَقَالَ: أَنَسِيتَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:٩٣] أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنْ الْكَلَامِ؟.

فَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وَقَالَ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وَقَالَ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]، وَلِهَذَا يَمِيلُ هَؤُلَاءِ إِلَى سَمَاعِ الشِّعْرِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُهَيِّجُ المَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ[١]، الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، بَلْ يَشْتَرِكُ فِيهَا مُحِبُّ الرَّحْمَنِ، وَمُحِبُّ الْأَوْثَانِ[٢]، وَمُحِبُّ الصُّلْبَانِ وَمُحِبُّ الْأَوْطَانِ، وَمُحِبُّ الْإِخْوَانِ، وَمُحِبُّ الْمُرْدَانِ، وَمُحِبُّ النِّسْوَانِ.

الشَّرْح

[١] قال الشيخ: (وَلِهَذَا يَمِيلُ هَؤُلَاءِ إِلَى سَمَاعِ الشِّعْرِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُهَيِّجُ المَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ)، حرم الله جَلَّوَعَلَا هؤلاء من لذة القرآن والاستماع للقرآن، وصرفهم إلى استماع الشعر وإلى الأغاني، والمزامير وغير ذلك، ولذلك يتخذ المتصوفة الرقص والغناء والطبول عبادة يقيمونها حتى في المساجد -نسأل الله العافية-؛ لأنهم يحبونها، وتوافق أهواءهم.

[٢] أي: الأصوات التي تهيج المحبة المطلقة لا يختص بالميل إليها المؤمنون، لكن مع الفرق؛ فالمؤمنون يحبون الأصوات الطيبة، وغيرهم يحبون الأصوات الخبيثة.

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتْبَعُونَ أَذْوَاقَهُمْ وَمَوَاجِيدَهُمْ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ. فَالْمُخَالِفُ لِمَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ لَا يَكُونُ مُتَّبِعًا لِدِينٍ شَرَعَهُ اللهُ أَبَدًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى[١]: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية:١٨-١٩]، إِلَى قَوْله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٩].

الشَّرْح

[١] الذي يتبع هواه لا يكون متبعًا لدين شرعه الله، وإنما يتبع الدين الذي يمليه عليه هواه، وله حالتان: إما أن يكون صوفيًّا غاليًا يتبع ما يسمى بالحقيقة، ولا يتبع الشريعة، ويقولون: («الحقيقة» للخواص، و«الشريعة» للعوام)، وهذه «الحقيقة» بدعة ابتدعوها.

وإما أن يكون جبريًّا يحتج بالقدر -كما سبق بيانه-، والله تعالى قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ أيها الرسول ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وهذه الشريعة: ما شرعه من الأمر والنهي.

﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾؛ أي: اتبع هذه الشريعة، ولا تبغ لها بديلًا.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فيأخذون بما يسمونه «الحقيقة»، ويتركون الشريعة، أو يحتجون بالقدر على ترك الشريعة.

وهي أهواء ليست مبنية على العلم، وإنما هي مبنية على الذوق والوجد، وما أشبه ذلك مما تهواه نفوسهم، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: لو اتبعت أهواءهم، وتركت الشريعة، فلن يغنوا عنك يوم القيامة من الله شيئًا، ولن يخلصوك من عذاب الله جَلَّوَعَلَا .

بَلْ يَكُونُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١][١].

وَهُمْ فِي ذَلِكَ تَارَةً يَكُونُونَ عَلَى بِدْعَةٍ يُسَمُّونَهَا «حَقِيقَةً»، يُقَدِّمُونَهَا عَلَى مَا شَرَعَهُ اللهُ، وَتَارَةً يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ عَلَى الشَّرِيعَةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ هُمْ أَعْلَاهُمْ قَدْرًا وَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالدِّينِ فِي أَدَاءِ الْفَرَائِضِ الْمَشْهُورَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ، لَكِنْ يَغْلَطُونَ فِي تَرْكِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ[٢]،

الشرح

[١] فالتشريع حق لله جَلَّ وَعَلَا، والعبادة حق لله، هو الذي يشرعها، ويأمر بها، وأما العبادة التي لم يشرعها الله مما يسمونه بـ«الحقيقة»، فهذه بدعة، وليست من شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، هذا استنكار، فهؤلاء الشركاء شرعوا لهم دينًا غير الدين الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو شرع الله.

﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، هذا إنكار من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون لهم دين غير ما شرعه الله وجاء به رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك ترك العبادة والاحتجاج بالقدر لم يشرعه الله، وهو معنى: قوله: (وَتَارَةً يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ عَلَى الشَّرِيعَةِ)، فيقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام:١٤٨]، وأهل الحق يجمعون بين العمل بالشريعة، وبين الإيمان بالقضاء والقدر، ويقولون: (لا تنافي ولا تعارض بينهما).

[٢] أي: من الصوفية طائفة تأتي بالعبودية من أوامر ونواهٍ، فتجتنب المنهيات والمعاصي، وتفعل الواجبات، وتمتثل الأوامر، وهذه أخف ممن يترك الشريعة ويأخذ بالحقيقة، ولكنها ترى أنه لا قيمة للأسباب؛ ولذلك يقولون: إن الدعاء لا فائدة فيه، فهم يلغون الأسباب التي أمر الله بها، وهذا ضلال؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا أمر باتخاذ الأسباب، ولا تنافي بين اتخاذ الأسباب وبين الإيمان بالقدر؛ لأن الذين قبلهم قالوا: (إن الشريعة تعارض القدر)، وهؤلاء قالوا: (الشريعة لا تعارض القدر، ولكن الأخذ بالأسباب يعارض القدر)، فلا فائدة من اتخاذ الأسباب عندهم.

وهذا ضلال بلا شك؛ لأن الله أمر باتخاذ الأسباب مع فعل العبادة، ولا تعارض بينهما، فجعل الدعاء سببًا، والاستعانة بالله سببًا، والتوكل على الله سببًا.

واتخاذ الأسباب النافعة مأمور به، فإعداد العدة في الجهاد من أقوى الأسباب، فالأسباب لها فائدة كبيرة؛ لأنها تعين على العبادة.

ظَانِّينَ أَنَّ الْعَارِفَ إِذَا شَهِدَ «الْقَدَرَ» أُعْرِضَ عَنْ ذَلِكَ؛ مِثْلُ مَنْ يَجْعَلُ التَّوَكُّلَ مِنْهُمْ، أَوْ الدُّعَاءَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ دُونَ الخَاصَّةِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ عَلِمَ أَنَّ مَا قُدِّرَ سَيَكُونُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ[١].

الشَّرْح

[١] يقولون: (إنه لا حاجة إلى اتخاذ الأسباب مع وجود القدر، إن كان الله قد قدر شيئًا، فلا تنفع الأسباب مع القدر).

ويقولون: اتخاذ الأسباب (مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ دُونَ الخَاصَّةِ)؛ أي: يحتاجه العوام الذين إيمانهم ضعيف ويقينهم ضعيف، مثلما قال الذين من قبلهم: (إن الشريعة يحتاجها العوام)، فهم فرع منهم، وهذه مغالطة، فما من شيء إلا وله أسباب، إذا وجد السبب، وجد المسبب بإذن الله، وإذا عدم السبب، عدم المسبب.

فالله أمر باتخاذ الأسباب، وأما حصول المقصود، فهو عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تعارض بين اتخاذ الأسباب وبين العبودية لله عَزَّوَجَلَّ؛ كما أنه لا تعارض بين فعل الأسباب والإيمان بالقضاء والقدر؛ لأن فعل الأسباب من القضاء والقدر، وإذا اتخذ الإنسان السبب، فهذا دليل على أن الله قدر أن يتخذه، وإذا ترك الإنسان السبب، فهذا دليل على أنه قدر عليه ترك السبب، فالقدر يلازم الإنسان في كل تصرف، ولا محيد له عن القضاء والقدر.

فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا كَمَا قَدَّرَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ بِأَسْبَابِهِما[١].

الشَّرْح

[١] قوله: (فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا)، فلكل شيء سبب؛ فللسعادة ودخول الجنة أسباب، قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، فالعمل سبب لدخول الجنة، وبدون عمل، فلا، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

فلابد من الأسباب؛ فلن تدخل الجنة بدون سبب، والسبب هو العمل الصالح.

وكذا دخول النار له أسباب، وهي الكفر والمعاصي، فإنكار الأسباب مغالطة وجهل، وإن كانوا يظنون أنهم بلغوا القمة في العلم والمعرفة، وأن الأسباب إنما هي للذين ليس عندهم يقين، وليس عندهم اعتماد على الله عَزَّوَجَلَّ، فالله أمر باتخاذ الأسباب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، فهذا سبب للنصر، وقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]، فالتوكل سبب من الأسباب، وكذلك قال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]؛ أي: ابذلوا الأسباب لطلب الرزق، فلاتجلس وتقول: (يأتيني الرزق وأنا جالس)، وتعطل الأسباب، فكذا الطيور لا تبقى في أوكارها، بل تخرج وتبحث عن الرزق؛ ولذلك من حين تصبح تخرج من أوكارها، وتذهب في طلب الرزق؛ لأن الله فطرها على أنه لابد من اتخاذ الأسباب.

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا خَلَقَهَا لَهُمْ وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»(١)[١].

وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللهَ كَتَبَ الْمَقَادِيرَ، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَدَعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ فَقَالَ: «لَا. اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»(٢).

فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ فَهُوَ عِبَادَةٌ، وَالتَّوَكُّلُ مَقْرُونٌ بِالْعِبَادَةِ.

الشَّرْح

[١] ولم يقل: (خلق لها أهلًا يدخلونها بدون عمل)؛ فهو خلقهم، وقدر أن يعملوا شيئًا يدخلون به الجنة، ولذلك قال: «وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ»،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وأحمد (١/ ٤٤)، وابن حبان (٦١٦٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٤)، ولفظه: أَنَّ عُمَرَ بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئِلَ عن هذه الْآيَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قال عُمَرُ بن الْخَطَّابِ: سمعت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسْأَلُ عنها فقال رسول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَأَخْرَجَ منه ذُرِّيَّةً فقال: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ منه ذُرِّيَّةً فقال: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ،....» الحديث.

(٢) سبق تخريجه (ص٧٣).

وكذا خلق للنار أهلًا، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ»، فالعمل هو السبب.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-٧]، هذه أسباب.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٨-١٠]، فهذه أسباب السعادة والشقاوة، فلابد أن يعمل الإنسان؛ إما بالخير، وإما بالشر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[1]؛ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالكٍ الحارثِ بنِ عاصم الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الطُّهورُ شَطْرُ الإيمَانِ، والحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ -أَوْ: تَمْلأ- ما بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا».

كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣][١]. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠][٢]، وَقَولِ شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ تَتْرُكُ الْمُسْتَحَبَّاتِ مِنْ الْأَعْمَالِ دُونَ الْوَاجِبَاتِ، فَتُنْقَصُ بِقَدْرِ ذَلِكَ[٣].

الشَّرْح

[١] وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، فالتوكل سبب.

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤]، فالتقوى سبب للخروج من الشدائد، وهي عمل من الأعمال، والتوكل سبب، والتوفيق سبب.

[٢] أي: لا معبود لي بحق سواه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، هذا سبب.

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ أي: رجوعي من الذنوب إلى الطاعة؛ فالتوبة سبب للمغفرة، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]، فالمغفرة لها سبب، وما من شيء إلا وله سبب، فقطع الأسباب والاعتماد على القدر مغالطة وجهل، وإن كانوا يزعمون أنهم أهل اليقين وأهل المعرفة.

قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، فالتوفيق سبب التوكل والإنابة.

[٣] ومن هؤلاء الضالين من لا يترك الأسباب كلها، لكن يفعل الواجبات، ويترك المستحبات، وهذا نقص؛ فالمستحبات مع الواجبات سبب من الأسباب.

ومنهم من ينشغل بما يحصل له من الكرامات عن عبادة الله وشكره.

وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ يَغْتَرُّونَ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ خَرْقِ عَادَةٍ مِثْلِ مُكَاشَفَةٍ، أَوْ اسْتِجَابَةِ دَعْوَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْعَادَةِ الْعَامَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَشْتَغِلُ أَحَدُهُمْ عَمَّا أُمِرَ بِهِ مِنْ الْعِبَادَةِ وَالشُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا كَثِيرًا مَا تَعْرِضُ لِأَهْلِ السُّلُوكِ وَالتَّوَجُّهِ[١]؛ وَإِنَّمَا يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْهَا بِمُلَازَمَةِ أَمْرِ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ[١]. وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ -كَمَا قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ- مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ[٢][٢].

الشَّرْح

[١] هذه الأمور تحصل (لِأَهْلِ السُّلُوكِ وَالتَّوَجُّهِ)، وهم الصوفية.

[٢] أي: من أسباب النجاة مخالفة هؤلاء والتمسك بالسنة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[٣].

---

(١) انظر: سنن الدارمي (١/ ٢٣٠)، ومستخرج أبي عوانة (١/ ١٩)، والإبانة الكبرى لابن بطة (١/ ٣١٩- ٣٢٠)، والحلية لأبي نعيم (٣/ ٣٦٩).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٣٤٧)، وذم الكلام وأهله (٥/ ٨١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (١٤/ ٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤).

فعند ظهور الفتن والشرور لا نجاة إلا بالتمسك بالسنة، وهي من أعظم الأسباب التي أمر بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن المغالطة أن يقول الإنسان: (إن كتبت لي الهداية، اهتديت، وإن كتبت لي الضلالة، ضللت)، ويترك التمسك بالسنة.

ولهذا قال الأئمة: (السُّنَّةُ مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ؛ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ)، وذلك لما جاء الطوفان، وعم الماء الأرض، وغطى الجبال، ما نجا إلا الذين كانوا في السفينة مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والبقية غرقوا، ومنهم ابن نوح، قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود:٤٢]، فقال: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود:٤٣]، فغرق معهم؛ لأنه ترك السبب الذي أمر الله به نبيه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو صناعة السفينة والركوب فيها، فهذا سبب من الأسباب، فلما ترك هذا الجاهل السبب، غرق مع الكافرين -نسأل الله العافية-، وكذلك السنة: من تركها وقت الفتن، هلك مع أهل الضلال، فالفتن مثل الطوفان، ولا ينجي منها إلا التمسك بالسنة، ولا يمكن أن تتمسك بالسنة، إلا إذا عرفتها؛ فما كل من ادعى أنه متمسك بالسنة وأنه سلفي يكون كذلك، لا بد من معرفة منهج السلف، ومعرفة السنة ودراستها، والتمكن من فهمها؛ حتى يتمسك بها على الوجه الصحيح؛ لهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبة:١٠٠]، بهذا الشرط ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾؛ بمعنى: أنك تعرف منهجهم ومذهبهم، وتتمسك به على بصيرة؛ لأن كثيرًا

ممن يضللون الناس يقولون: (هذا منهج السلف، وهذا ما عليه السلف)، وهو غير صحيح، فيهلك ويظن أنه على منهج السلف؛ لأنه لايعرف هذا المنهج، ولم يدرسه دراسة صحيحة، وقد يكون اطلع عليه في الكتب، ولم يفهمه الفهم المطلوب، واعتمد على فهمه المحدود وقراءته القاصرة، ولم يدرس على أهل العلم، ولم يسأل عما أشكل عليه، فيظن أنه فهم في حين أنه لم يفهم، وأنه عالم وهو ليس بعالم، فيضل بهذه الطريقة، وإن كان يريد مذهب السلف، ولكن لكونه لم يعرفه، ولم يدرسه، ولم يتمعن فيه؛ فإنه لم يحصل عليه.

وَالْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَلُزُومُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَقْصُودُهَا وَاحِدٌ[١]، وَلَهَا أَصْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَلَا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ.

وَالثَّانِي: أَلَّا يَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا أَمَرَ وَشَرَعَ، لَا يَعْبُدُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالظُّنُونِ وَالْبِدَعِ[٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف:١١٠][٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢][٤].

الشَّرْح

[١] هذه كلها أمور مطلوبة، ولكن متى تحصل؟ تحصل إذا اتخذت أسبابها، وهي الاستقامة والطاعة، وسلوك الصراط المستقيم.

والعبادة والدين كل منها ينبني على أصلين، إن حققت الأصلين، تحقق لك ما تريد، وإن لم تحقق الأصلين، لم يتحقق لك شيء، والأصلان هما:

الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في القصد والنية، فلا يكون في عملك شرك أو قصد وتوجه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثاني: المتابعة للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلا يكون في عملك بدعة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢].

فقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: أخلص عمله لله من الشرك.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: وهو متبع لسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من جمع بين الشرطين، فإنه يحصل على هذه النتيجة: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، ومن أخل بهذين الشرطين أو بأحدهما؛ فلن يتحقق له هذا الوعد من الله.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]، فهذه هي الأسباب الصحيحة للنجاة، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**»(١).

[٢] وهذا معنى قوله: (أَلَّا يَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا أَمَرَ وَشَرَعَ، لَا يَعْبُدُهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالظُّنُونِ وَالْبِدَعِ)، فلا يعبد الله إلا بما شرعه على لسان رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**»(٣)، فمن ترك العمل بالسنة، ضل، ولهذا قال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وفي رواية: «**وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»(٤).

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨)، ورواه البخاري معلقًا في كتاب البيوع - باب النجش (٤/ ٣٥٦ مع الفتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ (١٣/ ٣١٧ مع الفتح).

(٣) سبق تخريجه (ص١٤٩).

(٤) سبق تخريجه (ص١٤٩).

هناك عوائد، وهناك استحسانات، وهناك مبتدعات يتبعها كثير من الناس، وهناك أهواء ورغبات مخالفة للسنة، وكل ذلك ضلال، يخرج عن سنة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠]، فليس هناك هداية إلا بالاستجابة لرسول الله ﷺ، والتمسك بسنته، ولن يحصل ذلك إلا إذا تعلم الإنسان سنة الرسول ﷺ، وفهمها، وأتقنها، ثم بعد ذلك يتمسك بها على بصيرة، أما إذا لم يعلم سنة الرسول ﷺ، فقد يكون على بدعة، ويظن أنها سنة؛ لأنه وجد الناس عليها، وأهل الضلال يدعون إليها، وينمقونها، ولكونه يجهل سنة الرسول ﷺ، فقد تنطلي عليه الضلالات، ويظنها سنة، وهو لا يميز بين السنة والبدعة.

[٣] هذا فيه الشرطان:

الشرط الأول: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ولا يكون العمل صالحًا، إلا إذا كان على سنة الرسول ﷺ.

والشرط الثاني: الإخلاص: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

[٤] بهذين الشرطين يحصل على الأجر، وبدونهما لا يحصل على شيء؛ فاليهود والنصارى قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]، اليهود يقولون: (لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا)، والنصارى يقولون: (لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا)، ورد الله عليهم

بقوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾، هذا نقض لنفيهم؛ أي: يدخلها ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، ولو لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فمن اتصف بهاتين الصفتين، دخل الجنة من أي لون ومن أي جنس وفي أي وقت؛ لاكما يدعيه اليهود والنصارى من حصرهم دخول الجنة لهم دون غيرهم.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥][١].

فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْإِحْسَانُ، وَهُوَ فِعْلُ الحَسَنَاتِ، «وَالحَسَنَاتُ» هِيَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ مَا أُمِرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ.

فَمَا كَانَ مِنَ الْبِدَعِ فِي الدِّينِ الَّتِي لَيسَتْ فِي الْكِتَابِ، وَلَا فِي صَحِيحِ السُّنَّةِ، فَإِنَّهَا -وَإِن قَالَهَا مَنْ قَالَهَا، وَعَمِلَ بِهَا مَنْ عَمِلَ- لَيسَتْ مَشْرُوعَةً، فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا رَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ مِنْ الحَسَنَاتِ، وَلَا مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ[٢]؛

الشرح

[١] وفي هذه الآية الشرطان -أيضًا-:

الشرط الأول: في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ أي: أخلص عمله لله.

والشرط الثاني: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصل السنة ما كان عليه إبراهيم الخليل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠]، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣]، فالذي عليه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل كل الأنبياء والمرسلين بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كلهم على ملة إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢] فلا يغتر الإنسان بما عليه الناس، وإن كان يظهر عليهم العلم والفضل، حتى يرى ما هم عليه: هل يوافق السنة أو يخالفها؟ فإن كان موافقًا للسنة، فهو إحسان وعمل صالح، وأما إن كان مخالفًا للسنة، فهو ضلال وعمل فاسد، وإن كان عليه من عليه من الناس، فلا يغتر أحد بالمظاهر ولا بحسن الظن، ما دام معه مقياس يقيس به الصحيح من الفاسد، والسنة النبوية من البدعة، والصحيح من السقيم، وليس المقياس ما عليه الناس أو الكثرة فقط.

كَمَا أَنَّ مَنْ يَعْمَلُ مَا لَا يَجُوزُ كَالْفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ لَيْسَ مِنْ الحَسَنَاتِ، وَلَا مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ[١].

وَأما قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وَقَولُهُ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ فَهُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ للهِ وَحْدَهُ، وَكَانَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا»[٢].

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]. قَالَ: «أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ».

قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا، لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا، لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ للهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ»(١)[٣].

الشَّرْح

[١] وأما البدع فلَيْسَت من الْحَسَنَات وَلَا من الْعَمَل الصَّالح، بل هي من الضلال، وإن كان صاحبها يظن أنه محسن، وأن هذه حسنات وأعمال صالحة؛ فهي هباء منثور؛ لأنها لم تبن على أصل.

فما خالف الكتاب والسنة، فإنه ضلال، وإن كان صاحبه يظن أنه حسن، فالعبرة ليست بالظن ولابالقصد، بل العبرة بالمتابعة بصدق.

---

(١) أخرجه: الثعلبي في تفسيره (٩/ ٣٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥)، والبغوي في تفسيره (٥/ ١٢٤).

والعمل يكون صالحًا، إذا كان موافقًا للكتاب والسنة، ويكون فاسدًا مردودًا، إذا كان مخالفًا للسنة.

[٢] هذا دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيه شرطا قبول العمل، قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا»، هذا هو المتابعة وترك البدعة، فيكون العمل صالحًا إذا كان على سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا»، هذا هو الإخلاص؛ بأن لا يكون فيه شرك.

[٣] الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء والعباد الصالحين، فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، لم يقل: (أكثر عملًا)؛ لأن العبرة بالأحسن، وهو الموافق للسنة، وليست بالكثرة مع مخالفة السنة، ولما سئل الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ عن معنى قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقال: ««أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ»، قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ، مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا، لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا، لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلهِ، وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ»، وهذا تفسير للآية الكريمة.

فَإِن قِيلَ: فَإِذَا كَانَ جَمِيعُ مَا يُحِبُهُ اللهُ دَاخِلًا فِي اسْمِ الْعِبَادَةِ، فَلِمَاذَا عَطَفَ عَلَيْهَا غَيرَهَا كَقَوْلِهِ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥][١]، وَقَولِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣][٢].

الشَّرْح

[١] العطف يقتضي المغايرة؛ وذلك أن الاستعانة داخلة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فلماذا عطف الاستعانة على العبادة؟

والجواب عن ذلك أن يقال: إن الشيء يعطف على ما هو داخل فيه من عطف الخاص على العام أحيانًا؛ لأجل الاهتمام بالخاص، وإن كان داخلًا فيه، ولأهمية الاستعانة عطفت على العبادة، فالعطف يقتضي الاختصاص، وكما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، فالصلاة الوسطى داخلة في الصلاة، فلماذا عطف عليها؟ قيل: هذا من عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا به، وهذا مما يؤكد أفضلية الصلاة الوسطى، وهي -على الصحيح- صلاة العصر[(١)]، فيكون الله قد أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى مرتين: مرة مع الصلاة العامة، ومرة وحدها، مما يدل على فضل هذه الصلاة.

[٢] فالتوكل داخل في العبادة، فلماذا عطفه عليها؟ لأنه من عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا به، وتأكيدًا له.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٣٤٣- ٣٤٩)، وزاد المسير (١/ ٢١٤)، والقرطبي (٣/ ٢٠٩- ٢١٣)، وابن كثير (١/ ٦٤٦- ٦٥٣).

وَقَوْلِ نُوحٍ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٣][١].

وَكَذَلِكَ قَوْلُ غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، قِيلَ هَذَا لَهُ نَظَائِرُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥][٢]، وَالْفَحْشَاءُ مِنَ الْمُنْكَرِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠][٣]، وَإِيتَاءُ ذِي الْقُرْبَى هُوَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، كَمَا أَنَّ الْفَحْشَاءَ وَالْبَغْيَ مِنَ الْمُنْكَرِ[٤].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٧٠]، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ مِنْ أَعْظَمِ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ[٥].

الشَّرْح

[١] فالتقوى داخلة في العبادة، وكذلك الطاعة داخلة في العبادة، فلماذا العطف؟ هو عطف للاهتمام بالمعطوف.

[٢] عطف الخاص على العام له نظائر، ولا شك أن الفحشاء داخلة في المنكر، لكن المنكر منه ما هو فاحش، ومنه ما هو دون ذلك، فعطف الفحشاء على المنكر من باب الاهتمام بالتحذير من الفحشاء، والفحشاء: ما فحش إثمه وعظم جرمه(١).

---

(١) انظر مادة (فحش) في: العين (٣/ ٩٦)، وتهذيب اللغة (٤/ ١١١)، والصحاح (٣/ ١٠١٤)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٧٨)، ولسان العرب (٦/ ٣٢٥).

[٣] وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل:٩٠]، وإيتاء ذي القربى داخل في العدل والإحسان، فعطفه عليهما؛ اهتمامًا بحق القرابة وصلة الرحم.

[٤] (كَمَا أَنَّ الْفَحْشَاءَ وَالْبَغْيَ مِنْ الْمُنْكَرِ)؛ لأن المنكر أعم، فكل ما نهى الله عنه، فهو منكر، وكل ما أمر الله به، فهو المعروف؛ فالفحشاء والبغي داخلان في المنكر، وعطفهما عليه من عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا به؛ لأن البغي -وهو التعدي على الناس- من أشد المنكر، والفحشاء من أشد المنكر.

[٥] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٧٠]، وإقام الصلاة داخل في التمسك بالكتاب، فالذين يتمسكون بما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعم جميع الكتب السماوية الإلهية؛ حيث إنها كلها داخلة في لفظ الكتاب، فالذين يتمسكون بالكتاب في كل وقت بحسبه، فبعد بعثة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار الكتاب هو القرآن والسنة، وقبل ذلك كان كل تابع لنبي يتمسك بالكتاب الذي أنزل عليه، وهذا هو العمل الصالح.

ثم قال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إقام الصلاة من التمسك بالكتاب، فعطف إقام الصلاة عليه من عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا به، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، جبريل وميكال داخلان في الملائكة، وعطفهما عليهم للاهتمام بهذين الملكين العظيمين.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَنْ أَنْبِيَائِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠][١]، وَدُعَاؤُهُمْ رَغَبًا وَرَهَبًا مِنْ الخَيْرَاتِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وَهَذَا الْبَابُ يَكُونُ تَارَةً مَعَ كَوْنِ أَحَدِهِمَا بَعْضَ الْآخَرِ، فَيُعْطَفُ عَلَيْهِ؛ تَخْصِيصًا لَهُ بِالذِّكْرِ؛ لِكَوْنِهِ مَطْلُوبًا بِالمَعْنَى الْعَامِّ وَالمَعْنَى الخَاصِّ، وَتَارَةً تَكُونُ دَلَالَةُ الِاسْمِ تَتَنَوَّعُ بِحَالِ الِانْفِرَادِ وَالِاقْتِرَانِ[٢]،

الشَّرْح

[١] وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، والدعاء داخل بالمسارعة في الخيرات، فعطفه عليها من عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا به.

[٢] الخاص يعطف على العام لأهميته والاهتمام به، مثل قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وهذا يدل على أهمية التوكل، مع أنه نوع من أنواع العبادة، فهو داخل في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فعطف الاستعانة على العبادة مع أن الاستعانة نوع من أنواع العبادة، ولأهمية الاستعانة عطفت على العبادة، وكذا قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨]، فمع أن الصلاة الوسطى داخلة في الصلوات؛ إلا أنه خصها بالعطف، وذلك للاهتمام بها.

فَإِذَا أَفْرَدَ عَمَّ، وَإِذَا قَرَنَ بِغَيْرِهِ خَصَّ، كَاسْمِ «الْفَقِيرِ» وَ«الْمِسْكِينِ»، لَمَّا أَفْرَدَ أَحَدَهُمَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة:٨٩]، دَخَلَ فِيهِ الْآخَرُ، وَلَمَّا قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، صَارَا نَوْعَيْنِ[١].

الشَّرْح

[١] نظائر ذلك: ومن نظائر ذلك في الكتاب مثل الفقير والمسكين يجمعهما الحاجة، وأنهما من أهل الزكاة، فإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر، فإذا ذُكر المسكين، دخل فيه الفقير، وإذا ذُكر الفقير، دخل فيه المسكين، أما إذا ذُكرا جميعًا، صار الفقير له معنى، والمسكين له معنى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]، فالفقراء هنا هم الذين لايجدون شيئًا، أو يجدون بعض الكفاية، والمساكين أحسن حالًا من الفقراء، فهم الذين يجدون نصف الكفاية أو أغلبها؛ ولهذا يقولون: (إذا اجتمعا، افترقا)؛ يعني: في المعنى، (وإذا افترقا، اجتمعا)، وكذلك الإسلام والإيمان؛ فإذا أطلق الإسلام، دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يكون إسلام صحيح بدون إيمان، وإذا ذكر الإيمان، دخل فيه الإسلام؛ لأنه لايكون إيمان بدون إسلام، وقد ذكرا جميعًا؛ كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ[١]، فإن الإسلام يكون في الأعمال الظاهرة، وأما الإيمان، فيكون في الأعمال الباطنة، وكلاهما متلازمان، وهذه من دلالات الألفاظ في اللغة العربية وفي الشرع، التي لابد للإنسان أن يعرفها.

(١) حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٨، ٩، ١٠).

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الخَاصَّ المَعْطُوفَ عَلَى الْعَامِّ لَا يَدْخُلُ فِي الْعَامِّ حَالَ الِاقْتِرَانِ؛ بَلْ يَكُونُ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ لَازِمًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨][١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧][٢].

وَذِكْرُ الخَاصِّ مَعَ الْعَامِّ يَكُونُ لِأَسْبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ: تَارَةً لِكَوْنِهِ لَهُ خَاصِّيَّةٌ لَيْسَتْ لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْعَامِّ؛ كَمَا فِي نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى[٣].

الشَّرْح

[١] إن قيل: الخاص لا يدخل في العام في حالة اقترانهما؛ لأن العطف يقتضي المغايرة. فالجواب: أن هذا موجود في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾؛ فإن جبريل وميكال داخلان في الملائكة.

[٢] وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾؛ فلفظ النبيين يشمل نوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدًا، ولكن ذكر الخمسة بعد ذكر النبيين لخاصية هؤلاء الخمسة -عليهم الصلاة والسلام-، فهم أولو العزم من الرسل، ذكروا في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ

بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ [الشورى:١٣]؛ فالله ذكرهم بعد ذكر النبيين؛ لاختصاصهم وفضلهم.

[٣] **أولًا**: (لِكَوْنِهِ لَهُ خَاصِّيَّةٌ لَيْسَتْ لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْعَامِّ)؛ كما ذكرنا في قوله: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [البقرة:٩٨]، وقوله: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧]، هذا لاختصاص المعطوف، وزيادة فضله على المعطوف عليه.

وَتَارَةً لِكَوْنِ الْعَامِّ فِيهِ إِطْلَاقٌ قَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْعُمُومُ[١]؛ **كَمَا فِي قَوْلِهِ:** ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة:٢-٤]، **فَقَوْلُهُ:** ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ **يَتَنَاوَلُ الْغَيْبَ الَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ؛ لَكِنْ فِيهِ إِجْمَالٌ فَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مِنْ الْغَيْبِ مَا** ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[٢]، **وَقَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْمُخْبَرِ بِهِ وَهُوَ الْغَيْبُ، وَبِالْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ، وَهُوَ مَا** ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[٣].

الشَّرْح

[١] **ثانيًا:** (وَتَارَةً لِكَوْنِ الْعَامِّ فِيهِ إِطْلَاقٌ قَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْعُمُومُ): فقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ هذا لفظ عام، يتناول كل ما غاب عنا، ولم نشاهده من الأمور الماضية، ومن الأمور المستقبلة، فذكر الإيمان بالكتب المنزلة للاهتمام بها من بين سائر المغيبات، ولأن العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم.

[٢] قوله: (فَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مِنْ الْغَيْبِ مَا ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾)، فقد يكون المعطوف لا يشمله المعطوف عليه، أو لا يتنبه السامع إليه؛ ففي عطفه عليه تنبيه على هذا الأمر، وبيان أنه يدخل في الغيب ما أنزل على الرسل.

[٣] **ثالثًا:** (**وَقَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْمُخْبَرِ بِهِ وَهُوَ الْغَيْبُ، وَبِالْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ، وَهُوَ مَا** ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾)؛ أي: يؤمنون بالخبر -وهو ما يذكر عن الماضي والمستقبل-، وبالمخبر عنه، وهو مَا ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْله تَعَالَى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠][١].

«وَتِلَاوَةُ الْكِتَابِ» هِيَ اتِّبَاعُهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة:١٢١] قَالَ: «يُحَلِّلُونَ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ»[١]، فَاتِّبَاعُ الْكِتَابِ يَتَنَاوَلُ الصَّلَاةَ وَغَيْرَهَا، لَكِنْ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِمَزِيَّتِهَا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِمُوسَى: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه:١٤] وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ لِذِكْرِهِ مِنْ أَجَلِّ عِبَادَتِهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:٧٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ هِيَ أَيْضًا مِنْ تَمَامِ تَقْوَى اللهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣][٢].

الشَّرْح

[١] أي: ليهتم بها بخصوصها، أما لو لم تعطف، فإنه قد لا يهتم بها.

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي (١/ ٢٦٦)، والتفسير البسيط (٣/ ٢٨٧- ٢٨٨)، وتفسير السمعاني (١/ ١٣٣)، وتفسير البغوي (١/ ١٦١).

[٢] ومما جاء فيه -وهو عطف الخاص على العام- هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ليس المقصود بالتلاوة هنا مجرد القراءة، بل المقصود بها الاتباع؛ من تلا الشيء؛ أي: اتبعه، فإقام الصلاة داخل في تلاوة الكتاب؛ أي: اتباعه، ولكن عطفه من باب الاهتمام.

٢- وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأعراف:١٧٠]، عطف إقام الصلاة على التمسك بالكتاب، مع أن إقام الصلاة من التمسك بالكتاب، لكنه من أهم التمسك بالكتاب.

٣- وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة:١٢١]، وحق تلاوته تحليل الحلال، وتحريم الحرام، والتمشي وفق الأحكام الشرعية، هذا من تلاوة الكتاب، فليس المقصود بالتلاوة هنا مجرد القراءة؛ كما قد يفهمها بعض الناس، فالتلاوة على قسمين:

القسم الأول: التلاوة بمعنى الاتباع.

القسم الثاني: والتلاوة بمعنى القراءة، وتلاوة القراءة وسيلة للاتباع[(١)].

٤- وكذلك قوله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه:١٤]، وإقامة الصلاة داخلة في قوله: ﴿ فَٱعْبُدْنِى ﴾، فالصلاة من العبادة؛ وذلك لأهمية الصلاة، ولأنها أعظم العبادات العملية.

---

(١) انظر مادة (تلو) في: العين (٨/ ١٣٤)، ومقاييس اللغة (١/ ٣٥١)، ومادة (تلا) في: تهذيب اللغة (١٤/ ٢٢٥)، والصحاح (٦/ ٢٢٨٩)، ولسان العرب (١٤/ ١٠٢).

٥- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب:٧٠]، فعطف القول السديد على تقوى الله، مع أن القول السديد داخل في تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وذلك لأهمية القول السديد وفائدته.

٦- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥]؛ أي: اطلبوا ما يقربكم إلى الله؛ فالوسيلة هي الطاعة التي تقرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا داخل في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، فمن تقوى الله ابتغاء الوسيلة، وهي: التقرب إليه بالعبادة، فهذا مما يدل على أن المعطوف له خاصية.

٧- قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، فكونك تكون مع الصادقين داخل في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ولكن عطفه عليه لأهميته.

٨- قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]، لما ذكر الشيخ هذه الأمثلة، وتقررت القاعدة؛ إذًا فيكون قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ هو من هذا الباب، وهو وجه عطف التوكل على العبادة؛ لأهمية التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالتوكل على الله من استعانة العبد به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستعانة داخلة في العبادة، فعطفها من باب الاهتمام بها.

فَإِنَّ التَّوَكُّلَ وَالِاسْتِعَانَةَ هِيَ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ؛ لَكِنْ خُصَّتْ بِالذِّكْرِ؛ لِيَقْصِدَهَا الْمُتَعَبِّدُ بِخُصُوصِهَا؛ فَإِنَّهَا هِيَ الْعَوْنُ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ؛ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ[١].

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَكَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ[٢]، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنْ الْعُبُودِيَّةِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ، أَوْ أَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ[٣].

الشَّرْح

[١] هذا من وجوه عطف الاستعانة على العبادة؛ لأن الاستعانة طلب العون، ولا يستطيع الإنسان أن يعبد الله، إلا إذا أعانه الله، فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله، وهذا يدل على حاجة العبد إليها في كل عباداته؛ ولذلك عطف الاستعانة على العبادة.

[٢] هذا فيه رد على الصوفية الذين يقولون: (إن المخلوق إذا وصل إلى المعرفة وإلى مرتبة المشاهدة، لم يعد بحاجة إلى العبادة؛ لأنه كمل).

ونقول: إن العبد بحاجة إلى العبادة دائمًا، ولا يستغني عن العبادة أبدًا، ولا يكمل إلا بالعبادة، فليس هناك حالة لا يحتاج فيها إلى العبادة.

فالعبد بحاجة إلى العبادة دائمًا وأبدًا، لا يستغني عنها في لحظة من اللحظات، فهو عبد، ولا يخرج عن العبودية؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]؛ يعني الموت.

[٣] كما تقوله الصوفية: (إن العبد يصل إلى مرحلة لا يحتاج معها إلى العبودية، ولا يحرم عليه شيء، ولا يجب عليه شيء)، وهذا باطل، فالعبد لا يزال عبدًا لله عَزَّوَجَلَّ، وكلما كثرت عبادته لله، كمل، وكلما نقصت عبادته، نقص، وليس هناك حد ينتهي إليه في العبادة، إلا الموت.

فإذا مات الإنسان، انقطع عمله؛ فالصوفية يقولون: (إن الخروج من العبودية أكمل؛ لأنه لا يخرج منها إلا من وصل إلى الله، فهو أكمل من العوام الذين لم يصلوا إلى الله؛ فهم يحتاجون للعبودية)، وهذا من تزيين وتسويل الشيطان لهم، فلا أحد يخرج عن حاجته إلى العبودية دائمًا وأبدًا؛ لأنه فقير محتاج إلى الله دائمًا وأبدًا في كل أحواله، لا يستغني عن الله طرفة عين، فهو بحاجة إلى العبادة التي تقربه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وتحببه إلى الله، فهو بحاجة إليها، ولا يستغني عنها ما دام على قيد الحياة وعقله باق.

وأفضل الخلق وهم الملائكة والأنبياء والرسل والأولياء والصالحون لا يخرجون عن العبودية، ولا يتركونها؛ كما ذكر الله عنهم في هذه الآيات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٧]. إِلَى قَولِهِ: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨][١].

الشَّرْح

[١] فالملائكة قال الله فيهم: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨]، هؤلاء هم الملائكة الذين اعتقد المشركون أنهم بنات الله، كذبهم الله بذلك، وبين أن الملائكة عباد من عباد الله، وأنهم يعبدون الله دائمًا وأبدًا ولم يترفعوا عن العبادة أبدًا، مع أنهم ملائكة ومقربون عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾، مع أنهم ملائكة ومقربون من الله، فهم من خشية الله مشفقون وخائفون، يخافون غضب الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يخرج عن العبودية أحد، لا الملائكة ولا غيرهم، بل هم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ [مريم:٨٨-٨٩]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥][١]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمَسِيحِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩][٢].

الشرح

[١] قوله تعالى في الملائكة: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٨٨-٩٥]، وهذا رد على من قالوا: (إن الملائكة بنات الله) -تعالى الله عن ذلك.

والذين جعلوا بينه وبين الجنة -أي: الجن- نسبًا قالوا: (إنه تزوج من الجن، فأنجبت له الملائكة)، فرد الله عليهم في قوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣]، فكل من في السماوات من الملائكة ومن غيرهم يأتون عبادًا لله، لا أحد يخرج عن العبودية، و«إن» بمعنى «ما» النافية، فهي نافية عن خروج أحد ممن في السماوات والأرض عن العبودية.

[٢] وقال تعالى في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]، النصارى نسبوا الولد إلى الله جَلَّوَعَلَا، فقالوا: (المسيح عيسى ابن مريم ابن الله).

والشاهد في قوله عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ لا يخرج عن العبودية، مع ما له من الفضل والمكانة عند الله، ولقوله: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٩]، ﴿مَثَلًا﴾؛ أي: آية تدل على قدرة الله جَلَّوَعَلَا؛ حيث خلقه من أم بلا والد، وليس هو ابن لله عَزَّوَجَلَّ، ولا جزءًا من الله؛ لأن الولد جزء من الوالد.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:١٥]، وهو الولد، فهو عبد من عباد الله، وليس جزءًا منه تعالى عن ذلك.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٧٣][٢].

الشرح

[١] قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾؛ يعني الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾؛ أي: لا أحد في السماوات والأرض مهما بلغ من الفضل والمكانة يخرج عن عبودية الله جَلَّوَعَلَا، فله من في السماوات والأرض ملكًا وعبيدًا، لا يستكبرون عن عبادته، ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، لا يفترون عن عبادته دائمًا، بخلاف الصوفية الذين يتركون عبادته استغناء عنها -بزعمهم.

[٢] قال تعالى في المسيح: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٧٢]، فلا أحد يخرج عن عبوديته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا الملائكة، ولا عيسى، ولا غيره من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾؛ فالمسيح معترف أنه عبد لله، لا يخرج عن العبودية، بل ولا الملائكة المقربون، فهم عباد، والله تعالى توعد من يستنكف عن عبوديته ويتوقف عنها من غير عذر؛ حيث قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾؛ فالمسيح لا ينكر أنه عبد لله، وكذا الملائكة المقربون لا ينكرون أنهم عباد لله جَلَّوَعَلَا، فكيف يدعي الصوفية في آخر أحوالهم أنهم ليسوا عبادًا لله، وأنهم مستغنون عن العبادة، وعن العبودية؟!

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت:٣٧-٣٨][٢].

الشَّرْح

[١] قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]، فمن يستكبر عن عبادة الله، فإن الله توعدهم بجهنم، يدخلونها صاغرين بسبب أنهم استكبروا عن عبادة الله، فلا أحد يستكبر عن عبادة الله جَلَّوَعَلَا إلا الأشقياء وأهل النار، ومن استكبر على الله، أهانه، ومن تواضع له، رفعه.

[٢] قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت:٣٧-٣٨]، كانوا في الجاهلية يعبدون معبودات كثيرة متفرقة، ومنها أنهم يعبدون الشمس والقمر، فقال الله: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾؛ فالشمس والقمر من آيات الله ومن مخلوقات الله، فكيف تعبد مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

ولهذا قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾؛ لأنها مخلوقة مثلكم مسخرة.

﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾؛ أي: اسجدوا للذي خلق الشمس والقمر؛ لأنه الذي يستحق العبادة، أما الشمس والقمر، فهما مخلوقان لا يستحقان العبادة.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، فأخلصوا له العبادة، ثم قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾؛ أي: استكبروا عن السجود لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾؛ فالملائكة لا يملون العبادة، ولا يتركونها، فهذا فيه أن الملائكة عباد لله، وأنهم لا يسأمون ولا يملون من عبادة الله، ولا يستكبرون عنها، فهل الصوفية أفضل من الملائكة؟!.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦][١]، وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا فِيهِ وَصْفُ أَكَابِرِ الخَلْقِ بِالْعِبَادَةِ[٢]،

الشَّرْح

[١] قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٥-٢٠٦]، وهذه مثل الآيات السابقة، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُۥ ﴾؛ أي: ينزهونه عن النقص، ﴿ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾؛ أي: يسجدون لله جَلَّ وَعَلَا.

[٢] وصف الله بالعبودية من هو أكمل خلقه؛ أي: هذا الأمر هو وصف أكمل الخلق وأفضل الخلق للعبودية لله، وهو متعدد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة؛ من الملائكة والرسل والأنبياء والأولياء والصالحين، فهو متعدد في القرآن، وإنما هذه نماذج من الآيات التي ذكر الله فيها ذلك.

وهذا كله رد على من يزعم أنه يخرج أحد عن العبودية؛ لفضله ومكانته؛ كما تقوله الصوفية ومن اقتدى بهم، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠] فيه ذم الخروج عن عبادة الله، فالذي يخرج عن عبادة الله مستكبر، والذي يعبد الله، ويعبد معه غيره مشرك، وكل من المشرك والمستكبر في نار جهنم.

وَذَمَّ مَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ بِذَلِكَ[١]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥][٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦][٣].

الشَّرْح

[١] أي: أخبر الله أنه أرسل جميع الرسل بالعبادة وبالدعوة إليها، من أولهم إلى آخرهم، كلهم يعبدون الله، ويأمرون بعبادة الله، فالذي لايعبد الله يكون مخالفًا للرسل.

[٢] قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾؛ أي: جميع الرسل من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن قبله، أرسلهم الله يأمرون بعبادة الله وحده لاشريك له، ويقولون للناس: (قولوا: لا إله إلا الله)، فهذا دعت إليه جميع الرسل، فكل الرسل أمروا بعبادة الله، ونهوا عن عبادة غيره، فأين الذين يزعمون أن لهم أن يخرجوا عن عبادة الله لفضلهم ومكانتهم؟!

[٣] فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا﴾: اللام لام القسم، و«قد» للتحقيق؛ تأكيدًا لقوله: ﴿بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾؛ أي: أرسلنا في كل جيل من الناس من قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم إلى آخر الأمم، أرسلنا إليهم ﴿رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ وهذا هو الذي خلق الله الخلق لأجله، فقد خلقهم لعبادته، ولا يخرج عن عبادة الله أحد من خلقه، إلا من استكبر -والعياذ بالله!

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ فلا يكفي أن تعبد الله، بل لابد من اجتناب الطاغوت، وذلك بترك عبادة غيره؛ لأن هناك من يعبد الله، ويعبد معه غيره، فالمشركون يعبدون الله، ولكنهم يعبدون معه غيره، فيخلطون عبادتهم بالشرك، فتكون عبادتهم باطلة؛ لأن العبادة لا تصح ولا تقبل إلا إذا كانت خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، ليس فيها شرك، فكل الرسل جاؤوا بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وهذا فيه رد على الصوفية الذين يخرجون عن هذا، ويتركون العبادة، ويزعمون أنهم ليسوا بحاجة إليها؛ لأنهم كملوا، ووصلوا إلى الله.

وَقَالَ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة:٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١][٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦][٣].

الشَّرْح

[١] فإذا مُنعت من عبادة الله في أرض؛ فهناك أرض أخرى تخرج إليها، وتعبد الله عَزَّوَجَلَّ فيها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء:١٠٠].

[٢] هذا أول أمر في المصحف، وهو أمر لجميع الناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، وفيه الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فبعد أن أمر بتوحيد الألوهية؛ استدل عليه بتوحيد الربوبية؛ لأنهم يعترفون بتوحيد الربوبية، وبأن الله هو الذي خلقهم، وخلق من قبلهم، وجعل لهم الأرض فراشًا والسماءَ بناءً، وأنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات رزقًا لهم، فجميع التدابير والرزق والحياة والموت والخلق بيد الله عَزَّوَجَلَّ، وفي ذلك يبدو تناقضهم، إذا كان لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، ولا يدبر إلا الله؛ فكيف يعبد غيره ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولاحياة ولا نشورًا؟!

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة)[١]، ولكن الشيطان ودعاة الضلال يزينون الشرك للناس، ويحسنون الشرك للناس، ويسمونه بأسماء تروجه، وهي لا تغير الحقائق؛ لأن الحقائق لاتتغير، وإن تغيرت الأسماء، وتعددت الحيل والشبهات، فالحقيقة باقية، وجميع المخلوقات عاجزة، وكل المخلوقات فقيرة إلى الله، والله جَلَّ وَعَلَا هو الغني، وهو الذي خلق السماوات والأرض، فكيف يعترفون بتوحيد الربوبية، ولا يقومون بتوحيد الألوهية؟!!

[٣] بين الحكمة من خلق الجن والإنس، وهي أن الله خلقهم لعبادته، قال تعالى: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات:٥٧]، فهو لا يريد منهم الرزق، بل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨]، وإنما خلقهم لعبادته فقط، والعبادة نفعها لهم، والشرك ضرره عليهم، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فلا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، وإنما فضل ذلك -فائدته أو مضرته- يرجع ذلك كله إليهم، ولو أشركوا كلهم، وكفروا كلهم، فإنهم لاينقصون من ملك الله جَلَّ وَعَلَا، ولايضرون الله جَلَّ وَعَلَا شيئًا، وإنما يضرون أنفسهم، ولو عبدوا الله كلهم، ولم يشركوا به شيئًا، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٧).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:١١-١٥][١].

الشَّرْح

[١] أمر الله رسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعلن ويصرح للناس أن الله أمره أن يعبد الله وحده، فإذا كان محمد مأمورًا بالعبادة؛ لأنه بحاجة إليها؛ فكيف يدعي هؤلاء أنهم ليسوا بحاجة إلى العبادة؟!

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، فلا يجوز أن يعبد الإنسان الله، ويعبد معه غيره، بل لابد أن يعبد الله، ويخلص العبادة له من الشرك.

فقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: العبادة، فسمى العبادة دينًا.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ يعني المنقادين لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم أول من ينقاد لعبادة الله، ولأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف بغيرهم ممن لا ينقاد، ويزعم أنه خرج عن نطاق العبودية، وصار وليًّا من الأولياء الذين ليسوا بحاجة إلى العبادة.

ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: إذا عصى ربه، فلم يعبده، فإن الله يعذبه في يوم عظيم، فلو قدر أن الأنبياء يشركون، لحبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ

﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦]، فالشرك لو وقع من أي أحد -نبيًّا كان، أو ملكًا، أو غير ذلك-، فإنه يحبط أعماله -نسأل الله العافية-، ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، هذا أمر تهديد لهم ووعيد، لا أمر إباحة؛ كما يقوله من يدعي حرية الاعتقاد وحرية التعبير اليوم، فالصوفية خرجوا من العبادة بزعم الوصول إلى الله، وهؤلاء خرجوا من العبادة بزعم الحرية في الاعتقاد.

وَكُلُّ رَسُولٍ مِنْ الرُّسُلِ افْتَتَحَ دَعْوَتَهُ بِالدُّعَاءِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ كَقَوْلِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون:٣٢][١].

الشرح

[١] (وَكُلُّ رَسُولٍ مِنْ الرُّسُلِ افْتَتَحَ دَعْوَتَهُ بِالدُّعَاءِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ)، وأولهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣]، وكذا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥]، وكذا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:٦١]، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:١٦]، وشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود:٨٤]، فكل نبي يقول لقومه أول ما يبدأ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، فيبدأ بالتوحيد، وهكذا أتباع الرسل أول ما يبدؤون بالدعوة إلى التوحيد وإصلاح العقيدة، ثم بعد ذلك يتوجهون إلى إصلاح بقية أمور الدين، أما الذي يترك الدعوة إلى التوحيد، ويدعو إلى أمور جانبية من أمور الدين، فهذا مخالف لدعوة الرسل، فبعض الجمعيات وجماعات الدعوات والدعاة الآن الذين لا يهتمون بالتوحيد، ولا يدعون الناس إلى التوحيد، وهم يشاهدون الشرك واقعًا في الناس، ولا ينكرونه، هؤلاء مخالفون لدعوة الرسل، فأول مراتب الدعوة وأول أوليات الدعوة: الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، فأي جمعية وأي

داعية لا يهتم بالتوحيد، ولا ينهي عن الشرك، فدعوته خاسرة وباطلة، ولا تنجح أبدًا؛ لأنها مخالفة لدعوة الرسل.

بل هؤلاء الدعاة ينهون عن الدعوة إلى التوحيد، ويقولون: (لاتنفروا الناس، اتركوهم على عقائدهم، ونجتمع على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه)، فمهمتهم التجميع فقط، مع أنه لايحصل الاجتماع الصحيح إلا على التوحيد.

وأما الاجتماع على غير التوحيد، فمستحيل، ولو تظاهروا به، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤]، فالاجتماع الحقيقي هو اجتماع القلوب، وما عداه فهو اجتماع صوري، واجتماع مصالح، سرعان ما ينفض.

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْت بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصِّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»(١) [١].

الشَّرْح

[١] يعني: الجهاد في سبيل الله، جاهد المشركين بعد دعوتهم إلى الله، إذا أبوا قبول الدعوة، فإنه يجاهدهم، حتى يكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

وقوله: «بُعِثْت بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الآخر: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»(٢)، فأين الذين ينادون بحرية العقيدة؛ فالحرية الصحيحة هي الحرية من عبادة غير الله؛ فهي الذل والخسار.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ**»؛ يعني: قرب قيام الساعة؛ لأنه آخر الرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس بعده إلا قيام الساعة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد (٩/ ١٢٦)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ١٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤١٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ١٤٥٧، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**»؛ فالغرض من الجهاد في سبيل الله أن يعبد الله وحده لا شريك له، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[(١)]، وليس الغرض من الجهاد الاستيلاء على الناس، أو سفك الدماء، أو أخذ الأموال، أو توسع الممالك، بل الغرض إقامة التوحيد والعبادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك فمن قبل الدعوة واستجاب، فإنه لا يقاتل: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٥].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»؛ يعني بذلك: الغنائم، فإن الله أحلها له ولأمته، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي**»[(٢)]، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال:٦٩]، فالغنائم هي: ما يأخذ المسلمون من أموال الكفار في الجهاد في سبيل الله، فهي أحل شيء، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال:٦٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٤٩) (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**».

(٢) سبق تخريجه (ص٦٣).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ، وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**»، لا شك أن من خالف أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه ذليل صغير حقير، وإن زعم أنه راقٍ، وأنه متحضر، وإن زعم أنه ملك، وأنه رئيس، فهو ذليل، فالذي يخالف أمر الرسول ذليل مهما كان، والذي يوافق أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عزيز ومرتفع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، ولو كان في أعين الناس ذليلًا.

وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ عِبَادَهُ هُمْ الَّذِينَ يَنْجُونَ مِنْ السَّيِّئَاتِ قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠][١]. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]. وَقَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣][٢]، وَقَالَ فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤][٣].

الشرح

[١] لما لعن الله إبليس بسبب تكبره عن أمر الله، عند ذلك توعد الخبيث ذرية آدم بأنه سيهلكهم بالذنوب وبالكفر والمعاصي، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠]، فلا ينجو من الشيطان ومن تسلطه إلا من أخلص العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، وعبد الله وحده لا شريك له، فليس للشيطان سبيل عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، فالذي يتبع الشيطان، ويشرك بالله، يغوي عن أمر الله، ويكون للشيطان عليه سلطان وولاية، أما الذي يخلص العبادة لله، فإنه فلا سبيل للشيطان عليه.

[٢] أقسم بعزة الله، وهذا دليل على أنه يعترف بتوحيد الربوبية؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾، وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾، ولكن الاعتراف بتوحيد الربوبية لايكفي، بل لابد من الاعتراف بالألوهية والعبادة، ولابد من توحيد الألوهية.

[٣] لما عصمه الله من كيد المرأة التي راودته عن نفسه، تريد أن توقعه في الفاحشة، وعصمه الله منها، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]، فعصمه الله من كيد المرأة بسبب إخلاصه لله، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾، والسبب: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فالإخلاص لله في العبادة هو الذي يمنع من كيد الشيطان وأعوانه.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات:١٥٩-١٦٠][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠][٢].

الشَّرْح

[١] أي: تنزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يصفه به المشركون؛ من الشريك، واتخاذ الولد والصاحبة، فقد نزه نفسه عما يصفه به أعداء الرسل، واستثنى ما يصفه به عباده المؤمنون، فقال: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾؛ من الرسل وأتباعهم، فإنهم يصفون الله جَلَّ وَعَلَا بصفات الكمال، وينزهونه عن صفات النقص، فيصفونه بما وصف به نفسه، أو وصفته به رسله، ولا يصفونه بالنقص والعجز وغير ذلك، واتخاذ الصاحبة واتخاذ الولد، فقد نزه نفسه عن ذلك: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨١]؛ لسلامة ما قالوه من العيب والنقص.

[٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ ﴾؛ أي: الشيطان ﴿ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ ﴾؛ أي: قوة يصرف بها العبد المخلص لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله عصمه من ذلك، فهو ليس له سلطان ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ ﴾؛ أي: سلطان الشيطان ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾؛ أي: يطيعونه وينقادون له، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ في عبادته، هؤلاء يتسلط عليهم الشيطان.

وَبِالْعُبُودِيَّةِ نَعَتَ كُلَّ مَنْ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ[١]؛ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٥-٤٧][٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧][٣]، وَقَالَ عَنْ سُلَيْمَانَ: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠][٤]، وَقَالَ: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص:٤١][٥].

الشَّرْح

[١] هذه الآيات في سياق خصوص العبودية لله جَلَّوَعَلَا، وأنه لايخرج عنها أحد؛ ردًّا على الصوفية الذين يزعمون أنهم إذا وصلوا إلى مرحلة من القرب إلى الله -بزعمهم-، يخرجون عن العبودية، وليسوا بحاجة إليها، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرد عليهم بأن المصطفين من عباد الله من الملائكة والرسل موصوفون بدوام العبودية لله، فلا يخرج أحد عن العبودية لله عَزَّوَجَلَّ مهما بلغ من الصلاح والقرب؛ كلٌّ فقير إلى الله جَلَّوَعَلَا، وعبد لله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] فقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ وصفهم بالعبودية، مع أنهم أفضل الخلق.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾؛ أي: القوة في العبادة وفي التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ أي: البصائر النافعة، فسماهم عبادًا له.

[٣] أي: ذا القوة في العبادة وفي الجهاد في سبيل الله، وداود عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنبياء بني إسرائيل وملوكهم، أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ أيها الرسول ﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾، فاقتد به، وتسل به لما أصابك من الناس.

[٤] وكذلك قال تعالى عن سليمان بن داود -عليهما الصلاة والسلام-: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ أي: رجاع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو كذلك نبي وملك، آتاه الله الملك بعد أبيه.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، فقد ورثه في الملك والنبوة، ولم يرثه في المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون.

[٥] وقال عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ابتلاه الله بالمرض الشديد، وأصاب منه المرض ما أصاب، وجفاه الناس وتركوه، ثم شكا إلى ربه، وشفاه الله، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١]، فقال الله جَلَّ وَعَلَا له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢]، فضرب الأرض برجله، فنبع الماء، واغتسل منه، فشفاه الله عَزَّوَجَلَّ مما أصابه، وقد أجاب دعوته في الحال، وأزال سقمه، ورفع مرضه، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٤٣].

والشاهد: أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصفه الله بالعبودية، وهذه عبودية خاصة، وإلا فكل الناس عبد لله العبودية العامة؛ كما سبق أن العبودية على قسمين: عبودية عامة يدخل فيها المؤمن والكافر، وعبودية خاصة لاتكون إلا للمؤمن.

وَقَالَ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣][١]، وَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وَقَالَ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، وَقَالَ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، وَقَالَ: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠][٢].

الشَّرْح

[١] وكذا وصف نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أول الرسل بأنه عبد، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر:٩]، وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، وصفه بالعبودية؛ ووصفه بأنه شكور لنعم الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] ووصف خاتم رسله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه عبد:

ففي مقام الوحي قال: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:١٠].

وفي مقام التنزيل قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، وفي مقام الإسراء قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، فوصفه بالعبودية في هذه المقامات العظيمة.

وكذلك في قيامه بالصلاة والدعاء قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]؛ يعني: محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلا يخرج عن العبودية لله عَزَّوَجَلَّ أحد مهما بلغ من المنزلة، لاكما تقول الصوفية.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ ﴾؛ أي: أوحى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾؛ أي: عبد الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوصفه بالعبودية في مقام الوحي، وهذا من أشرف المقامات.

وَقَالَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦][١]، وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣][٢].

وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ[٣].

الشرح

[١] كما وصف المقربين من عباده بالعبودية، فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، فوصف المقربين من أهل الجنة بأنهم عباد الله، فدل على أن أحدًا لا يخرج عن العبودية لله جَلَّوَعَلَا.

[٢] عباد الرحمن عمومًا وصفهم الله بأوصاف جليلة، أولها: أنهم يمشون على الأرض هونًا، فليس فيهم تكبر في مشيتهم، وإنما يمشون مشية المتواضعين؛ كما قال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

وفي الآية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧]، فأولياء الله وعباد الله عباد الرحمن يمشون مشية المتواضع، لا مشية المتبختر ولا المتكبر.

[٣] أي: وصف الله عباده المتقين والأبرار والصالحين؛ بل الأنبياء والملائكة وصفهم الله بالعبودية في كثير من القرآن، وهذا يرد على الصوفية، الذين يزعمون أن من الناس من يخرج عن عبودية الله، ويستغني عنها.

فَصْلٌ فِي التَّفَاضُلِ بِالْإِيمَانِ

إِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ[١]، فَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاضَلُونَ فِي هَذَا الْبَابِ تَفَاضُلًا عَظِيمًا[٢]، وَهُوَ تَفَاضُلُهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ[٣]، وَهُمْ يَنْقَسِمُونَ فِيهِ إِلَى: عَامٍّ، وَخَاصٍّ، وَلِهَذَا كَانَتْ إِلَهِيَّةُ الرَّبِّ لَهُمْ فِيهَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ[٤]؛ وَلِهَذَا كَانَ الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ «أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»(١).

الشَّرْح

[١] يعني: الذي سبق من أنه لا يخرج أحد عن عبوديته لله مهما بلغ من الفضل والمكانة، خلافًا للصوفية، الذين يزعمون خروج أئمتهم من العبودية إذا بلغوا حدًّا من العبادة.

[٢] أي: في العبودية ليسوا على حد سواء، فهم يتفاضلون في الإيمان،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٢/ ٣٨٣)، والطبراني في الأوسط (٤/ ١٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٠) عَنْ أَبِي عَلِيٍّ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ قَالَ: «خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ. فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ حَزْنٍ، وَقَيْسُ بْنُ الْمُضَارِبِ فَقَالَا: وَاللهِ لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ. قَالَ: بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ، خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**». فَقَالَ لَهُ: مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ**».

ويتفاضلون في العبودية، ويتفاضلون في الأعمال الصالحة، ويتفاضلون في الجزاء (تَفَاضُلًا عَظِيمًا) عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٣] أي: تفاضلهم في العبودية هو بسبب تفاضلهم في حقيقة الإيمان؛ لأن العبودية من الإيمان، فالأعمال من الإيمان، وكلما كثرت الأعمال الصالحة، قوي الإيمان، وكلما نقصت، نقص الإيمان؛ ولهذا يقول أهل العلم: (الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية)، فالمؤمنون يتفاضلون في الإيمان؛ بناءً على ذلك، ليسوا على حد سواء[١]، وفي هذا رد على المرجئة[٢]، الذين يقولون: (الإيمان شيء واحد، ليس فيه تفاضل؛ لأنه التصديق بالقلب، وهذا لا تفاضل فيه)، وهذا

(١) وقد نقل الإجماع على ذلك أكثر من واحد من أهل العلم، فقد قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد طفت الأمصار، ولقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم كلهم يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص» اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/ ١٧٣، ١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ٥٨، ٥٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٧، ٤٠٨)، وذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢١٧)، وابن حجر في الفتح (١/ ٤٧).
وقال أيضًا: «كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل» اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٥/ ٨٨٩)، وذكره ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧٩).
ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع عن الشافعي، انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٣٠٨).
وقال ابن عبد البر في التمهيد (٩/ ٢٣٨): «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان» اهـ.

(٢) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل من الرجاء لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى. انظر: (مقالات الإسلاميين) (ص ١٣٢)، و(الفرق بين الفِرق) (ص١٩٠).

غلط؛ فالإيمان يتفاضل، بعضه أكمل من بعض، حتى التصديق في القلب يتفاضل.

[٤] ولكون المؤمنين يتفاضلون في الإيمان، فمنهم المخلص الإخلاص التام الذي لا يقع فيه شرك، ومنهم من يقع منه شرك خفي، وهو الشرك الأصغر؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخْوَفُ ما أَخَافُ علىكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**». فسُئِلَ عَنْهُ. فَقَالَ: «**الرِّيَاءُ**»[(١)]، وهو أخفى من دبيب النمل؛ كما في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)]، وفي حديث آخر: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»[(٣)]، فالشرك الأصغر قد يحصل من المؤمن؛ ولذلك يجب الحذر منه، وقد خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٣٣) من حديث محمود ابن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٣٠١) من طريق محمود بن لبيد عن رافع بن خديج عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**».

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ»(١) [١].

الشَّرْح

[١] «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**»؛ أي: الذي يتعلق قلبه بالدرهم؛ يرضى له، ويسخط له، فهذا عبد للدرهم، فالطمع بالشيء عبودية لهذا الشيء، وهي عبودية شرك أصغر.

و«**تَعِسَ**»؛ يعني: هلك، دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتعس، وهو الهلاك، قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ**﴾ [محمد:٨]؛ أي: هلاكًا. والدرهم من الفضة.

و«**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**»، والدينار يكون من الذهب.

«**تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ**»، وهي نوع من الفرش؛ أي: يتعلق قلبه بطمع الدنيا؛ إما بدرهم، أو بدينار، وإما بقطيفة.

«**تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ**»، الخميصة: كساء يلبس.

«**تَعِسَ وَانْتَكَسَ**»، كرر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاء على من يتعلق قلبه بأطماع الدنيا، ويرضى لها، ويغضب لها، فالمؤمن لا يتعلق قلبه بحب المال، وإن كان يحب المال، ولكن لا يتعلق قلبه به بحيث يرضى له ويسخط له: «**إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ**».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

«**وَإِذَا شِيكَ**»؛ أي: أصابته شوكة.

«**فَلَا انْتَقَشَ**»؛ أي: لا يقدر على أخذ الشوكة من رجله، فهذا دعاء من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه بالعجز.

«**إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ**»، هذا سبب دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه: أن سخطه ورضاه من أجل الدنيا، يحب من أجلها، ويبغض من أجلها، ولا يحب من أجل الإيمان، ولا يبغض من أجل الكفر والمعاصي.

فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدَ الدِّينَارِ، وَعَبْدَ الْقَطِيفَةِ، وَعَبْدَ الخَمِيصَةِ[١]، وَذِكْرُ مَا فِيهِ دُعَاءٌ وَخَبَرٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»، وَالنَّقْشُ: إِخْرَاجُ الشَّوْكَةِ مِنْ الرِّجْلِ[٢] والمنقاش مَا يخرج بِهِ الشَّوْكَة. وَهَذِهِ حَالُ مَنْ إِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ، وَلَمْ يَفْلَحْ لِكَوْنِهِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ[٣]، فَلَا نَالَ المَطْلُوبَ[٤]، وَلَا خَلَصَ مِنْ المَكْرُوهِ[٥]، وَهَذِهِ حَالُ مَنْ عَبَدَ المَالَ[٦].

الشَّرْح

[١] فدل على أن العبودية قد تكون للمخلوقات.

[٢] يعني: يصاب بالعجز، وهذا دعاء عليه.

[٣] أي: أن معنى الحديث: أنه إذا أصابه الشر، لا يستطيع الخروج منه، بسبب أنه صار عبدًا للدينار والدرهم والقطيفة والخميصة.

[٤] أي: ما حصل على الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة.

[٥] أي: لم يسلم من شر العبودية لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك تعس وانتكس. فهذا فيه التحذير من تعلق قلب المؤمن بالدنيا؛ لها يرضى ولها يغضب، إن أعطي رضي، وإن لم يعطَ سخط؛ كحال المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨]، فرضاهم وسخطهم لأجل الدنيا، وليس من أجل الدين، والواجب أن يرضى المؤمن ويغضب لأجل دينه،

أما الدنيا، فإن جاءت من طريق حلال، أخذها، واستعان بها على طاعة الله، وإن لم تأتِ، لم يعلق قلبه بها.

[٦] لأن هناك من الناس من يعبد المال؛ ولذلك يقدمونه على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وتجدهم دائمًا في الأسواق والأسفار والبحار، ولا يأتون إلى المساجد، إلا نادرًا، ويتركون صلاة الجماعة، وفي هذا دليل على أنهم عبيد للدرهم والدينار.

وَقَدْ وَصَفَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ «إِذَا أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِذَا مُنِعَ سَخِطَ»[١]؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨][٢]. فَرِضَاهُمْ لِغَيْرِ اللهِ، وَسُخْطُهُمْ لِغَيْرِ اللهِ، وَهَكَذَا حَالُ مَنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِرِئَاسَةٍ[٣]، أَوْ بِصُورَةٍ[٤]، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ إِنْ حَصَلَ لَهُ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ سَخِطَ، فَهَذَا عَبْدُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ رَقِيقٌ لَهُ[٥].

الشرح

[١] فالضابط في عبودية المال: أنه إذا أعطي منه، رضي عن الذي يعطيه، ولو كان عدوًّا لله، وإن لم يعطَ، سخط على من لم يعطه، وإن كان وليًّا لله، فهو لا يحب ويبغض من أجل الدين، وإنما يحب ويبغض من أجل الدنيا؛ لذلك عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا في كتاب التوحيد، فقال: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)(١).

[٢] أي: من المنافقين، ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾؛ أي: يتنقص الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتكلم في حقه.

﴿ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾؛ أي: الزكوات، التي هي من موارد بيت المال.

﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨]. هذا من صفات المنافقين؛ أن رضاهم وسخطهم لأجل الدنيا ولغير الله، حتى مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، للمؤلف-حفظه الله- (٢/ ٩٩).

[٣] لأنه يبذل كل ما يستطيع؛ لكي يحصل على الرئاسة على قومه أو على دولته، ولو قدم دينه ثمنًا لذلك -والعياذ بالله-، لم يبالِ.

[٤] أو بصورة: بأن كان عاشقًا لامرأة، فيتعلق قلبه بهذه المرأة.

[٥] أي: رقيق لطمعه وهواه، يسترقه الطمع، ويخضع من أجله، ولو على حساب دينه.

إِذْ الرِّقُّ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي الحَقِيقَةِ هُوَ رِقُّ الْقَلْبِ وَعُبُودِيَّتُهُ[١] فَمَا اسْتَرَقَّ الْقَلْبَ وَاسْتَعْبَدَهُ فَهُوَ عَبْدُهُ[٢]، وَلِهَذَا يُقَالُ(١):

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَعَ ... وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمَعَ[٣]

وَقَالَ الْقَائِلُ(٢):

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي ... وَلَوْ أَنِّي قَنَعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا[٤]

الشَّرْح

[١] فالرق رق القلب وعبودية القلب، ولو تظاهر الإنسان بخلاف ذلك.

[٢] سواء كان من استرقه واستعبده هو الله، وهذا هو المقصود، وهو الذي خلق من أجله، أو يكون الذي استرقه واستعبده مخلوقًا من المخلوقين؛ من مال، أو امرأة، أو غير ذلك، فهذا عبد لمن استرقه.

[٣] فالقناعة هي الحرية، والطمع هو رق، فإذا طمعت، فأنت رقيق لما طمعت به، وإذا قنعت، فإنك تستغني عنه، وتكون حرًا، ولا تتشوف إلى الأطماع، ولهذا يقال: (الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَنْفَدُ)(٣)؛ فالقناعة كنز، وهي غنى

---

(١) البيت للكندي. انظر: نثر الدر في المحاضرات (٤/ ١١٨)، والتذكرة الحمدونية (٣/ ١١٨).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ٦٠٨)، والدر الفريد وبيت القصيد (٣/ ٤٢١).

(٣) هذا القول رفعه البيهقي في الزهد الكبير (١/ ٨٨) إلى النبي ﷺ، عن جابر رضي الله عنه بلفظ: «**الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى**»، ثم قال: (هَذَا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ). ورواه القشيري في الرسالة =

القلب، والغنى غنى النفس؛ كما في الحديث: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(١).

فقد يكون الإنسان عنده أموال الدنيا، ولكن قلبه فقير، وقد يكون العكس؛ إنسان ليس عنده شيء، ولكنه قانع وحر من الأطماع، وعبوديته لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يؤثر عليها طمع من مطامع الدنيا.

[٤] فالطمع يسيطر على الإنسان، ويكون عبدًا له؛ يأتمر بأمره، وينتهي عن نهيه، فلو قنع، لصار حرًّا، ولكنه لما طمع، صار عبدًا ورقيقًا لما يطمع به.

=القشيرية بإسناد ولفظ البيهقي (١/ ٢٩٤)، وذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١١٤) بلفظ: «**الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَنْفَدُ**».

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٢٠) (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَيُقَالُ: الطَّمَعُ غُلٌّ فِي الْعُنُقِ قَيْدٌ فِي الرِّجْلِ، فَإِذَا زَالَ الْغُلُّ مِنَ الْعُنُقِ زَالَ الْقَيْدُ مِنَ الرِّجْلِ[١].

وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «الطَّمَعُ فَقْرٌ[٢]، وَالْيَأْسُ غِنًى[٣]، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ»(١)[٤].

وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَيْأَسُ مِنْهُ لَا يَطْلُبُهُ وَلَا يَطْمَعُ فِيهِ[٥]، وَلَا يَبْقَى قَلْبُهُ فَقِيرًا إِلَيْهِ، وَلَا إِلَى مَنْ يَفْعَلُهُ، وَأَمَّا إِذَا طَمِعَ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَرَجَاهُ، تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ، فَصَارَ فَقِيرًا إِلَى حُصُولِهِ، وَإِلَى مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ سَبَبٌ فِي حُصُولِهِ، وَهَذَا فِي المَالِ وَالجَاهِ[٦] وَالصُّوَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ[٧].

الشَّرْح

[١] فالطمع يغل يدك، ويقيد رجلك؛ فلا تستطيع التصرف؛ بمعنى: أنك تكون أسيرًا لمطامعك. (فَإِذَا زَالَ الْغُلُّ مِنَ الْعُنُقِ زَالَ الْقَيْدُ مِنَ الرِّجْلِ)؛ لأن أصل الغل في العنق، فإذا زال زال القيد من الرجل، فإذا زال الطمع، زال الرق للمخلوقين.

[٢] فلو حاز الدنيا كلها، فإنه يظل يريد الزيادة، وفي الصحيح: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»(٢).

---

(١) انظر: تفسير الثوري (ص ١٨)، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/ ٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١١٦) (١٠٤٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٣] واليأس غنى؛ لأنه لا يلتفت إلى شيء، ولا يذل لشيء؛ ولهذا يقولون: (اليأس قوة، أما الطمع، فهو ضعف).

[٤] وقال الشاعر(١):

غَنِّنِي بِلَا مَالٍ عَنْ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَلَيْسَ الْغِنَى إِلَّا عَنْ الشَّيْءِ لَا بِهِ

[٥] فاليأس قوة -كما يقولون-، فإذا يئست من الشيء، استرحت، ولا يخطر على بالك.

[٦] ولذلك إذا طمع في المال، صار المال هو أكبر همه؛ له يرضى، وله يسخط، وعليه يعادي، وله يوالي، والجاه أيضًا بلاء، فحب الرئاسة بلاء؛ لأن المطلوب التواضع، فمن يحب الرئاسة قد يترك دينه؛ ليحصل عليها.

[٧] المراد بذلك عشق النساء والتعلق بهن؛ ولذلك أمر الله بغض البصر، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]، وغض البصر فيه نجاة للمؤمن من الذلة والشهوات والعشق، فمن غض بصره، سلم، طهر قلبه، ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، وأما النظر إلى ما حرم الله، فإنه ذلة في القلب، ودنس في السلوك.

(١) البيت لمحمد بن هانئ. انظر: الدر الفريد وبيت القصيد (٧/ ٣٠٧)، ونسبه السفاريني في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٥٤٣) للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَالَ الخَلِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧][١]، **فَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ رِزْقٍ، مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ**[٢].

الشَّرْح

[١] وقال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت:١٧]؛ لأنهم حجارة ضعيفة، أو حيوانات، أو آدميون، فهم لايملكون لكم رزقًا؛ لأن الرزق بيد الله، ثم قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾؛ أي: لا تطلبوا الرزق من الناس، وإنما اطلبوه من الله جَلَّ وَعَلَا، الذي يملك الرزق، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فعلق قلبك بالله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: إليه مردكم، فيحاسبكم، أما هذه الحجارة والأصنام، فلا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا، وليس عندها جزاء لكم يوم القيامة، فإذا كنت تريد العزة، فاعمل بهذه الوصية: اطلب الرزق من الله، واعبد الله عَزَّوَجَلَّ، واشكره إذا أنعم عليك نعمةً، فاعترف لله بالفضل والمنة، ولا تقل: (هذا بسبب فلان أو بسبب جهدي أو كدي)، فهذه وصية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، وهي وصية لكل الناس. وفي الآية دليل على أن طلب الرزق لا يتنافى مع العبادة، بل هو العبادة.

[٢] أي: ليس معنى الكلام السابق في التحذير من الطمع والحرص على تحصيل المال ليس معنى ذلك أنك لا تطلب الرزق، بل كما قال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧]. فالرزق عند الله، فاطلبه منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن لا تطلبه بذلة للمخلوقين؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

فَإِذَا طَلَبَ رِزْقَهُ مِنَ اللهِ صَارَ عَبْدًا للهِ، فَقِيرًا إِلَيْهِ[١]، وَإِنْ طَلَبَهُ مِنْ مَخْلُوقٍ، صَارَ عَبْدًا لِذَلِكَ المَخْلُوقِ، فَقِيرًا إِلَيْهِ[٢].

وَلِهَذَا كَانَتْ «مَسْأَلَةُ المَخْلُوقِ» مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ[٣]، وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ[٤]، وَفِي النَّهْيِ عَنْهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي «الصِّحَاحِ»، وَ«السُّنَنِ»، وَ«المَسَانِيدِ»[٥]؛ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ»(١).

الشَّرْح

[١] وهذا هو الواجب، قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧].

[٢] لأنه يخضع له، ويذل له، ويلتمس رضاه، ويخاف من سخطه عليه وغضبه، ويذل له، ويداريه، وهو عبد مثله.

[٣] الأصل أنه يحرم أن تسأل المخلوق مالًا؛ لأن في المسألة ذلًّا للمخلوق، ولا تباح المسألة عند الحاجة -كما يأتي-، أما إذا استغنيت، فلاتسأل الناس، واسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأصل السؤال للمخلوق محرم، وفيه وعيد شديد.

[٤] أي: أبيحت مسألة المخلوق في بعض الأحيان للضرورة التي لا تندفع إلا بها.

[٥] كلها تدل على تحريم مسألة الناس؛ مثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ».

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٣) (١٠٤٠).

وَقَالَ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا أَوْ خُمُوشًا أَوْ كُدُوشًا فِي وَجْهِهِ»(١)[١]، وَقَوْلِهِ: «لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ إِلَّا لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ، أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ»(٢)[٢].

الشَّرْح

[١] هذا إذا كان يسأل من غير حاجة، ويتخذ المسألة حرفة، فإنه تكون لها آثار سيئة في وجهه يوم القيامة، يفتضح بها.

[٢] دل هذا على أن المسألة محرمة في الأصل، ولكنها تحل عند الضرورة لثلاثة أشخاص:

الأول: «لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ»؛ يعني: ثقيل، بأن يكون عليه ديون مطالب بها، ولا يستطيع سدادها، فهذا تحل له المسألة؛ حتى يصيب ما يسدد ديونه التي يعجز عنها؛ لأنه غارم لنفسه، وكذلك الغارم لغيره كالغارم لإصلاح ذات البين؛ بأن يتوسط للصلح بين القبائل المتنازعة، فيتحمل لذلك مالًا، فهذا يساعد من الزكاة، ولا يترك ليتحمل الغرامة وحده؛ لأن ذلك يجحف بماله، ويسد باب الإصلاح.

الثاني: «أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ»؛ أي: عليه دية، ولا يستطيع التسديد؛ كدية العمد.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، وابن ماجه (١٨٤٠)، والنسائي (٢٣٨٤)، وأحمد (٦/ ١٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٤١)، والترمذي (١٢١٨)، وابن ماجه (٢١٩٨)، والنسائي (٦٠٥٤)، وأحمد (١٩/ ١٨٢).

الثالث: «**أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ**»؛ أي: به فقر شديد، فيسأل قدر ما يسد حاجته، ثم يمسك عن المسألة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى يُصِيبَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ**»، ثم يمسك؛ أي: يمتنع عن السؤال، غير أن بعض الناس إذا ابتلي بالسؤال، فإنه يستمر يسأل، ويصير السؤال حرفة له، فهذا هو الذي عليه الوعيد الشديد.

وَفِيهِ أَيْضًا: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَذْهَبَ فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»(١)[١]، وَقَالَ: «مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»(٢)[٢].

فَكُرِهَ أَخْذُهُ مِنْ سُؤَالِ اللِّسَانِ وَاسْتِشْرَافِ الْقَلْبِ[٣] وَقَالَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ؛ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ؛ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(٣)[٤].

الشَّرْح

[١] هذا إرشاد منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطلب الرزق والاحتراف، إذا كان الإنسان يقدر على الاحتراف وطلب الرزق، فلا يسأل الناس، ولو كان محتاجًا؛ لأنه غني بالقوة، فيأخذ حبله وفأسه، ويذهب إلى الجبل، ويأتي بالحطب، ويبيع، ويكف الله بذلك وجهه عن الناس، وهو ما أرشده إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أرشد إلى العمل وطلب الرزق، ولا ينظر إلى أيدي الناس وما يعطونه، فالذي يحترف أي حرفة -ولو كانت دنيئة- يعيش بها

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٠)، ومسلم (١٠٦) (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١١٠) (١٠٤٥) من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٢٤) (١٠٥٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ عِنْدَهُ، قَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ، فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أَعْطَى اللهُ أَحَدًا مِنْ عَطَاءٍ أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

أحسن من الذي يسأل الناس؛ لأن العمل وطلب الرزق شرف ورفعة وعزة، وصاحبه مأجور.

[٢] أي: إذا أعطيت شيئًا من غير أن تتطلع إليه؛ بأن ابتدأك صاحبه، وأعطاك مالًا، فخذه، فإن شئت، انتفع به، وإن شئت، ادفع لغيرك.

[٣] قال الشيخ: (فَكُرِهَ أَخْذُهُ مِنْ سُؤَالِ اللِّسَانِ وَاسْتِشْرَافِ الْقَلْبِ)؛ أي: تطلع القلب.

[٤] وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ**»؛ فالجزاء من جنس العمل، فمن يستغن عن الناس، يغنه الله.

«**مَنْ يَسْتَعْفِفْ**» عن السؤال، يرزقه الله العفة، «**يُعِفَّهُ اللهُ**».

«**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**» فيه: الصبر، فيصبر الإنسان ولو على شظف العيش، ويطلب الرزق، ولو مع التعب، ويصبر، ولا يذل للناس، وينظر إلى ما بأيديهم، بل يصبر على العمل والتعب وعلى الحاجة غير الشديدة، ولا يسأل الناس.

وَأَوْصَى خَوَّاصٌ أَصْحَابِهِ أَنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا[١]، وَفِي الْمُسْنَدِ: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ، فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِي إِيَّاهُ؛ وَيَقُولُ: خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا»(١)، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَغَيْرِهِ: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَايَعَهُ فِي طَائِفَةٍ، وَأَسَرَّ إِلَيْهِمْ كَلِمَةً خَفِيَّةً: أَنْ لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، فَكَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ، وَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ: نَاوِلْنِي إِيَّاهُ»(٢).

الشَّرْح

[١] أوصى ﷺ خيار الصحابة رضي الله عنهم عند البيعة أنهم لا يسألون الناس شيئًا مهما كان؛ لأن السؤال فيه ذلة للمخلوق، حتى في غير المال، فكان أحدهم يسقط سوطه في الأرض، فلا يقول لأحد: (ناولني إياه)، بل ينزل هو، ويأخذه؛ استغناء عن الناس، ففي هذا رفعة وعزة وشرف.

وأما إذا سأل الناس، وطلب منهم -ولو رفع سوطه إليه-، فإنه يذل لهم، والإنسان إذا عود نفسه على الشيء -ولو كان قليلًا-، فإنه يتجرأ على الكثير، فلا يفتح الباب على نفسه، مهما أمكنه الاستغناء عن الناس، فإنه يستغني عنهم، والناس يملونه من سؤاله، ويستثقلونه، قال الشاعر(٣):

وَلَوْ سُئِلَ الناسُ الترابَ، لأَوْشَكُوا ... إذا قِيلَ: هاتُوا، أَن يَمَلُّوا ويَمْنَعُوا

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٨) (١٠٤٣).

(٣) البيت لثعلب. انظر: لسان العرب (١٠/ ٥١٣)، والمقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (٢/ ٢٧٦).

وَقَدْ دَلَّتْ النُّصُوصُ عَلَى الْأَمْرِ بِمَسْأَلَةِ الخَالِقِ، وَالنَّهْيِ عَنْ مَسْأَلَةِ المَخْلُوقِ؛ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ؛ كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾[١] ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧-٨][٢].

الشَّرْح

[١] أي: دلت الأحاديث الكثيرة على وجوب مسألة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والاستغناء عن سؤال المخلوق.

فتسأل الله كل ما تحتاج إليه؛ لأن هذا من العبودية والاستغاثة والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، وكل هذا من أنواع العبودية.

ومن كمال العبودية أن لا تسأل الناس شيئًا، وإنما تحصر سؤالك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الذي ييسر لك ما تسأله، وأما المخلوق، فهو وإن سألته وأعطاك؛ فإن سؤالك له فيه ذلة للمخلوق، كما أن المخلوق يكره أن تسأله، أما الله جَلَّوَعَلَا، فإنه يفرح إذا سألته؛ ولهذا يقول الشاعر[١]:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقد قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وكان صغيرًا-: **«إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»**[٢]، فهذا منه تربية لهذا

(١) ذكر هذين البيتين أبوسليمان الخطابي في كتابه (العزلة) (ص٦٧) وعزاهما إلى الخزيمي. وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥١٩)، وفيض القدير (١/ ٥٥٦)، وتحفة الأحوذي (٩/ ٢٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وأبويعلى في مسنده (٤/ ٤٣٠)، =

الشاب على أن يعلق قلبه بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينظر إلى ما بأيدي الناس.

وسبق حديث: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيذْهب فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يسْأَل النَّاس أَعْطوهُ أَو منعُوهُ**»(١)، فمهما أمكن أن الإنسان يستغني عن سؤال الناس، فإنه لا يفعل ذلك، وهو أعز له.

[٢] هذا خطاب للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو خطاب لأمته -أيضًا-؛ أي: إذا فرغت من أشغالك وأعمالك الدنيوية، فانصب لعبادة ربك بالصلاة وذكر الله عَزَّوَجَلَّ، واشغل فراغك بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

ومعنى «انصب»؛ أي: اتعب في ذلك، واشغل فراغك في ذلك، وهو خير لك؛ لأنك تجده عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وكثير من الناس يشغلون فراغهم بما يضرهم من اللهو واللعب والغفلة، ويقولون: نقتل الوقت، نحن عندنا فراغ، ماذا نصنع به؟! وكأنهم نسوا أن الوقت من ذهب، وأن اللائق بالمسلم أن يستغل وقته لآخرته، فليس عند المسلم فراغ أبدًا، بل يشغل وقته بما ينفعه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فكما يؤمن مستقبله في الدنيا -كما يقولون-، يؤمن مستقبله في الآخرة.

[٣] هذا محل الشاهد، فتقديم: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يفيد الحصر؛ أي: فإلى ربك وحده، فارغب -أي: اطمع بما عنده-، لا إلى غيره، فارغب فيما عند الله، واسأل ما عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، واسأل كل ما ترغب من الأمور، واطلبه من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

=وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، وابن المستفاض في القدر (ص١٣٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤)، وأبونعيم في الحلية (١/ ٣١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧).

(١) سبق تخريجه (ص٢١٨).

وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لِابْنِ عَبَّاسٍ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»**(١)[١]. **وَمِنْهُ قَوْلُ الخَلِيلِ:** ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:١٧][٢]. **وَلَمْ يَقُلْ: فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللهِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالحَصْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: لَاتَبْتَغُوا الرِّزْقَ إِلَّا عِنْدَ اللهِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢][٣].

الشَّرْح

[١] فإن الله هو الغني الحميد، الذي عنده حوائجك، ولا تسأل غيره، واستغن بالله عن غيره، وهذا توجيه لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ولغيره بأن يوجهوا سؤالهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»، الاستعانة: أن تطلب من يعينك على تحصيل شيء(٢)، والاستعانة بالمخلوقين فيما يقدرون عليه لا بأس بها، ولكن الاستغناء عنها والاستعانة بالله أحسن.

وأما الاستعانة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه، فهي شرك.

[٢] قال الشيخ: (**وَمِنْهُ قَوْلُ الخَلِيلِ:** ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:١٧]، **وَلَمْ يَقُلْ: فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللهِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالحَصْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: لَاتَبْتَغُوا الرِّزْقَ إِلَّا عِنْدَ اللهِ**)، خاطب

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢١).

(٢) انظر: دَرْج الدُّرر في تَفسِير الآيِ والسُّوَر ط. الحكمة (١/ ٨٨، ١٦٠)، والمفردات في غريب القرآن (١/ ٥٩٨)، ومجموع الفتاوى (١/ ١٠٣)، والبحر المحيط في التفسير (١/ ٤١- ٤٤).

الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧]، فقدم المعمول ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول، وهو الرزق، فلم يقل: (ابتغوا الرزق عند الله)؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر؛ والمعنى: لا تبتغوا الرزق من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

[٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٢]. فوجه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده إلى أن يسألوه، ولا يتمنوا ما عند الآخرين؛ بل تسأل الله أن يكون لك مثل فلان، فاطلب الرزق منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واسأل الله أن يعطيك مثلما أعطى فلانًا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريب مجيب، بدل أن تتمنى ما عند فلان.

وَالْإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حُصُولِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ وَنَحْوِهِ؛ وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ[١]، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُ للهِ؛ فَلَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ وَإِلَيْهِ يَشْتَكِي؛ كَمَا قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦].

وَاللهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ «الْهَجْرَ الْجَمِيلَ»، وَ«الصَّفْحَ الْجَمِيلَ»، وَ«الصَّبْرَ الْجَمِيلَ»، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ «الْهَجْرَ الْجَمِيلَ» هُوَ هَجْرٌ بِلَا أَذَى، وَ«الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» صَفْحٌ بِلَا مُعَاتَبَةٍ، وَ«الصَّبْرَ الْجَمِيلَ» صَبْرٌ بِغَيْرِ شَكْوَى إِلَى الْمَخْلُوقِ[١]. وَلِهَذَا قُرِئَ عَلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِهِ أَنَّ طَاوُسًا كَانَ يَكْرَهُ الْأَنِينَ فِي الْمَرِيضِ[١] وَيَقُولُ: إِنَّهُ شَكْوَى. فَمَا أَنَّ أَحْمَدُ حَتَّى مَاتَ[٢][٢]. وَأَمَّا الشَّكْوَى إِلَى الْخَالِقِ فَلَا تُنَافِي الصَّبْرَ الْجَمِيلَ؛ فَإِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦][٣].

الشرح

[١] لا شك أن الإنسان دائمًا في حاجة؛ فهو فقير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]. فالإنسان فقير وبحاجة إلى من يعينه، مهما كان، فهو فقير ومحتاج إلى الإعانة، ولكن يوجه طلب إعانته إلى الله تعالى.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ١١٣)، وعدة الصابرين (ص٥٢)، ومدارج السالكين (٢/ ١٦٠).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥).

[٢] هو طاووس بن كيسان اليماني، أحد أئمة التابعين، كان يكره الأنين للمريض؛ لأنه نوع جزع، وشكوى إلى المخلوقين، فلما بلغ الإمام أحمد ذلك في مرضه، ترك الأنين حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ تجنبًا للمحذور.

[٣] الشكوى هي ذكر حاجتك، فليكن ذلك إلى الخالق والمشتكى إلى الله، فالشكوى إلى الخالق عبادة، ولا تنافي الصبر، ولهذا قال يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما فقد أولاده الثلاثة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣]، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، فدل على أن الشكوى إلى الله لا تتنافى مع الصبر.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ بِسُورَةِ (يُونُسَ)، (وَيُوسُفَ)، (وَالنَّحْلِ)، فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي قِرَاءَتِهِ، فَبَكَى حَتَّى سُمِعَ نَشِيجُهُ مِنْ آخِرِ الصُّفُوفِ(١)[١].

وَمِنْ دُعَاءِ مُوسَى: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، وَإِلَيْكَ المُشْتَكَى، وَأَنْتَ المُسْتَعَانُ، وَبِكَ المُسْتَغَاثُ، وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»(٢)[٢].

وَفِي الدُّعَاءِ الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَعَلَ بِهِ أَهْلُ الطَّائِفِ مَا فَعَلُوا: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي. اللَّهُمَّ إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَه أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى؛ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»(٣)[٣].

---

(١) أخرجه القاسم بن سلام في غريب الحديث (٣/ ٣٣٧)، وفي فضائل القرآن (١/ ١٣٧)، والهروي في الغريبين في القرآن والحديث (٦/ ١٨٣٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣٥٦)، وفي الصغير (١/ ٢١١)، والبيهقي في الدعوات الكبير (١/ ٣٥٤): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُعَلِّمُكُمُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ جَاوَزَ الْبَحْرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ؟» فَقُلْنَا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ، وَإِلَيْكَ المُشْتَكَى، وَأَنْتَ المُسْتَعَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَظِيمِ».

(٣) أخرجه الطبراني في الدعاء (ص ٣١٥)، وفي المعجم الكبير (١٣/ ٧٣).

الشرح

[١] أي: لما مر على قول يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، عند ذلك بكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واشتد بكاؤه من رغبته إلى الله.

[٢] الشاهد في قوله: «وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى»، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر والاحتساب، فهذا كليم الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقول في دعائه: «وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى»، فهو يشكو إلى الله ما أصابه من أذى فرعون وبني إسرائيل.

[٣] لما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة، وآذاه المشركون، وضايقوه غاية المضايقة، وازداد ذلك الأذى عليه، لما مات عمه أبو طالب، الذي كان يدافع عنه ويحميه من أذى قومه، وكذا توفيت زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي كانت تؤنسه وتطمئنه، وتسري عنه ما يصيبه؛ فاشتد عليه فقدهما، وتسلط عليه المشركون، وخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله؛ لعلهم يستجيبون له، لما جفاه أهل مكة، وضايقوه، خرج يلتمس من يؤويه؛ حتى يبلغ دعوة ربه عَزَّوَجَلَّ، ولكن أهل الطائف قابلوه مقابلة سيئة، وردوا عليه، وسلطوا سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رجع، ولم يحصل على طائل؛ أهل مكة ضايقوه، وضيقوا عليه، وأهل الطائف ردوه، فلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدعا بهذا الدعاء العظيم المشهور بدعاء الطائف، فقال: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو**

ضَعْفَ قُوَّتِي» فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتكى إلى الله عَزَّوَجَلَّ مع ما آتاه الله من الصبر، فهذا دليل على أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر[1].

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَاشْتَدَّ أَذَاهُمْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَصَرُوهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ فِي الشِّعْبِ شِعْبِ أبي طالب ثَلَاثَ سِنِينَ، وَقِيلَ سَنَتَيْنِ، وَخَرَجَ مِنَ الْحَصْرِ وَلَهُ تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقِيلَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْهُرٍ مَاتَ عَمُّهُ أبو طالب وَلَهُ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، وَفِي الشِّعْبِ وُلِدَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، فَنَالَ الْكُفَّارُ مِنْهُ أَذًى شَدِيدًا، ثُمَّ مَاتَتْ خديجة بَعْدَ ذَلِكَ بِيَسِيرٍ، فَاشْتَدَّ أَذَى الْكُفَّارِ لَهُ، فَخَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ هُوَ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَدْعُو إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَأَقَامَ بِهِ أَيَّامًا فَلَمْ يُجِيبُوهُ، وَآذَوْهُ وَأَخْرَجُوهُ، وَقَامُوا لَهُ سِمَاطَيْنِ، فَرَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى أَدْمَوْا كَعْبَيْهِ، فَانْصَرَفَ عَنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ) انظر: زاد المعاد (١/ ٩٥)، وسيرة ابن هشام (١/ ٤٢٠)، والسيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٥٠). وأخرج قصة ذهابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللهِ[١] وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ، قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ؛ فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ[٢] فَيَأْسُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ عَنْهُ؛ كَمَا قِيلَ: اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْت تَكُنْ نَظِيرَهُ[٣].

الشَّرْح

[١] أي: كلما قويت الرغبة فيما عند الله؛ لأن هذا يدل على كمال الإيمان، وكمال التوحيد، والتوكل على الله والدعاء والاستغاثة والاستعانة به؛ كما قال الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩].

[٢] أي: كلما نظرت إلى ما عند المخلوقين، ورجوتهم، وسألتهم، صرت عبدًا لهم، وذليلًا لهم. فترفع عن هذا إلى عبودية الخالق وسؤال الخالق عَزَّوَجَلَّ، تعتز.

[٣] هذه حكمة تقول: إذا استغنيت عن شخص، صرت مساويًا له، هو عبد، وأنت عبد، فلا أنت تحتاج إليه، ولا هو يحتاج إليك.

وَافْضُلْ عَلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَمِيرَهُ[١]، وَاحْتَجْ إِلَى مَنْ شِئْت تَكُنْ أَسِيرَهُ[٢].
فَكَذَلِكَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لَهُ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ[٣]، وَإِعْرَاضُ قَلْبِهِ عَنْ الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ اللهِ وَالرَّجَاءِ لَهُ يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنْ الْعُبُودِيَّةِ للهِ[٤]؛ لَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوقَ وَلَا يَرْجُو الْخَالِقَ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا إمَّا عَلَى رِئَاسَتِهِ وَجُنُودِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَمَمَالِيكِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى أَمْوَالِهِ وَذَخَائِرِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ؛ كَمَالِكِهِ وَمِلْكِهِ؛ وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ وَغَيْرِهِمْ؛ مِمَّنْ هُوَ قَدْ مَاتَ أَوْ يَمُوتُ[٥].

الشَّرْح

[١] أي: إذا اعطيت أحدًا شيئًا، تكون أرفع منه؛ كالأمير عليه.

[٢] أي: إذا احتجت إلى شخص، فأنت أسير وعبد له؛ لأن قلبك متعلق به، وأنت ترغب فيما عنده.

[٣] أما طمع العبد فيما عند الله، ورجاؤه له، ورغبته فيما عند الله، فترسخ عقيدته؛ لأن العبرة بالحاجة، فإذا احتاج إلى أحد من الخلق، تعلق قلبه به، أما إذا علق الإنسان قلبه بالله، وأنزل حوائجه بالله، صار عبدًا لله، وإذا أنزل حوائجه بالمخلوقين، صار عبدًا لهم، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

[٤] ولهذا قال: (**وَإِعْرَاضُ قَلْبِهِ عَنْ الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ اللهِ وَالرَّجَاءِ لَهُ يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنْ الْعُبُودِيَّةِ للهِ**)، إذا انصرف القلب عن الله، فإن ذلك يصرفه عن عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ، فهو إما أن يعتمد على الله، فيكون عبدًا لله.

[٥] (**وَإِمَّا عَلَى سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ؛ كَمَالِكِهِ وَمِلْكِهِ؛ وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ وَغَيْرِهِمْ؛ مِمَّنْ هُوَ قَدْ مَاتَ أَوْ يَمُوتُ**)، فإنه يكون عبدًا لهم، حتى الملوك إذا ذلوا لخدماهم وقصروا نظرهم عليهم، صاروا عبيدًا لهم، مع أنهم ملوك، فإنهم يحتاجون إلى المخلوقين، أما لو أنهم علقوا طمعهم بالله عَزَّوَجَلَّ، ورجاءهم بالله، لاجتمع لهم عز الدنيا والآخرة، فالملك يزول ولا يبقى، والمال والثروة تزول، والأصدقاء والأقارب يموتون، ويعود الإنسان فقيرًا وذليلًا، فإذا اعتمد على الحي الذي لا يموت، عز، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٨].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٨]. وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ، أَوْ يَرْزُقُوهُ، أَوْ أَنْ يُهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ، وَصَارَ فِيهِ مِنْ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ[١]، وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ أَمِيرًا لَهُمْ مُدَبِّرًا لَهُمْ مُتَصَرِّفًا بِهِمْ، فَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إِلَى الحَقَائِقِ لَا إِلَى الظَّوَاهِرِ[٢]، فَالرَّجُلُ إِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِامْرَأَةٍ -وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً لَهُ-، يَبْقَى قَلْبُهُ أَسِيرًا لَهَا؛ تَحْكُمُ فِيهِ وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ[٣]،

الشَّرْح

[١] فإذا تعلق قلبك بالمخلوقين، وطمعت فيما عندهم، صرت عبدًا لهم، تحاول إرضاءهم، وتخاف من سخطهم وغضبهم، فعلق قلبك بالله، ولا تعلق قلبك بالمخلوق مهما كان هذا المخلوق، قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠]، فالنصر يطلب من الله عَزَّوَجَلَّ، بل كل الأمور تطلب من الله، وهذا فيه عز العبد وترفعه عن الحاجة للمخلوقين.

[٢] فالملك إذا علق أمره بخدمه وعبيده وقوته وجيوشه وجنوده، فإنه يكون عبدًا لهم، وإن كان ملكًا عليهم في الظاهر.

[٣] إذا تعلق الرجل بامرأة وأحبها -ولو كانت زوجته ومباحة له-، فإنه يبقى أسيرًا لها؛ يتلمس رضاها، ويتجنب ما يسخطها، وفي ذلك ذلة له وعبودية لها، بحيث: (تَحْكُمُ فِيهِ وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ).

وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ سَيِّدُهَا لِأَنَّهُ زَوْجُهَا[١]، أَو مَالِكُهَا، وَفِي الحَقِيقَةِ هُوَ أَسِيرُهَا وَمَمْلُوكُهَا لَا سِيَّمَا إِذَا دَرَتْ بِفَقْرِهِ إِلَيْهَا، وَعِشْقِهِ لَهَا[٢]، وَأَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا؛ فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ؛ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الخَلَاصَ مِنْهُ بَلْ أَعْظَمُ[٣]، إِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ[٤]، وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ، فَإِنَّ مَنْ اسْتَعْبَدَ بَدَنَهُ وَاسْتَرَقَّ لَا يُبَالِي إِذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحًا مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنًّا، بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الخَلَاصِ[٥].

الشَّرْح

[١] هو في الظاهر سيد لهذه المرأة، ولكنه في الباطن عبد لها؛ لأنه متعلق قلبه بها، ويراقب طاعتها وما تريده، ويحذر من إغضابها، وقد دعا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]؛ أي: أميل إليهن، وألتمس رضاهن.

[٢] أي: فإنها تتسلط عليه إذا علمت أنه يطمع فيها وأنه يحبها، فينبغي له أن لا يظهر لها ذلك.

[٣] أي: إذا علمت (**أَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا؛ فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ؛ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الخَلَاصَ مِنْهُ بَلْ أَعْظَمُ**)؛ لأن كيد النساء عظيم.

[٤] لأنه لما تعلق قلبه بها، صار أسيرًا، وأسير البدن مكبل بالحديد أو بالحبال، وأسير القلب مكبل بالحب، وهو أشد من الحديد والحبال؛ فقد يكون الإنسان موثقًا في بدنه، ولكن قلبه حر قوي؛ لأنه متعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأسر القلب أشد من أسر البدن.

[٥] وذلك بذكر الله وعبادته، ولا يضره أسر البدن، ولكن إذا كان قلبه هو الأسير، حتى ولو كان طليق البدن، فالأعضاء تابعة للقلب، فإذا كان القلب أسيرًا، كانت الأعضاء مأسورة، بخلاف العكس.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمِلْكُ رَقِيقًا مُسْتَعْبَدًا مُتَيَّمًا لِغَيْرِ اللهِ[١]، فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ المَحْضُ، وَالْعُبُودِيَّةُ الذَّلِيلَةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبُ.

وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ، أَوْ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِك إذا كان قائِمًا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْوَاجِبَاتِ[٢]، وَمَنْ اسْتَعْبَدَ بِحَقٍّ[٣] إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ(١)[٤].

الشَّرْح

[١] أي: إذا كان محبًّا لغير الله، فالتتيم درجة من درجات المحبة. إذا كان، فإنه لا ينفعه أن يكون طليق البدن.

[٢] أي: إذا أسر بدنه وأعضاؤه، ولكن قلبه طليق، ومتعلق بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن ذلك لا يضره، بخلاف العكس، إذا كانت أعضاؤه مطلقة، ولكن قلبه مأسور، فهذا عبد ذليل، ولا ينفعه إطلاق أعضائه وجسمه؛ ولذلك لما سجن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب هذه الرسالة قال: (أنا جنتي وبستاني فِي صدري، أين رحت فَهِيَ معي، لاتفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٧، ٣٠١١)، ومسلم (٢٤١) (١٥٤) عن أبي بُرْدَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ».

وإخراجي من بلدي سياحة)[١]؛ لأنه يذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ويتلو القرآن، ويتأمل، ويتدبر كتاب الله، فهو مرتاح في السجن؛ كأنه في روضة، ويقول: (أنا حبسي خلوة).

[٣] يعني: من أصابه الرق الشرعي في الحرب، أما الاستعباد بالغصب والنهب، فهو بغير حق، وهو من أشد المحرمات، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ اللهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ**»[٢]، وذكر منهم: «**وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ**»، والدول الكافرة اليوم تنادي بالحرية، وهي تسترق الشعوب.

[٤] أجر أدائه لحق الله، وأجر أدائه لحق مواليه، وصبره على ذلك؛ لأنه حكم الله فيه.

وأما ما يقوله بعض الكتاب الجهال: (إنه ليس هناك رق شرعي، وإنما الإسلام وجد الرق في الناس، فشرع التخلص منه بالتدريج؛ لأنه لايستطاع منعه دفعة واحدة)، فهذا كلام باطل ناشئ عن جهل، فالإسلام شرع الرق الشرعي، وأجاز بيع المملوك والتسري بالأمة بملك اليمين.

---

(١) انظر: المستدرك على الفتاوى (١/ ١٥٣)، والوابل الصيب (ص٤٨)، والذيل على طبقات الحنابلة، (٤/ ٥١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ، فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ[١]، وَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ، فَصَارَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللهِ، فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ[٢]؛ فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ[٣].

الشَّرْح

[١] لأن المدار على القلب، فلا يجوز للإنسان أن يتكلم بالكفر وهو مختار، وإذا تكلم بكلام كفر وهو مختار؛ فإنه يرتد عن الإسلام؛ لأن ذلك من نواقض الإسلام ومن أنواع الردة.

أما إذا أكره على كلام كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فنطق بكلام الكفر؛ لأجل التخلص من الإكراه فقط، ولم يوافق عليه في قلبه، فقد أباح الله له ذلك، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [النحل:١٠٦-١٠٩]، فيباح للإنسان أن يتكلم بكلام الكفر إذا أكره عليه؛ ليتخلص به من الإكراه فقط، دون أن يعتقد ذلك بقلبه، فدل على أن المدار على القلب.

[٢] إذا استرق قلبه لغير الله، فصار يخشى ويخاف ويرجو الناس، ولا يخاف ويرجو الله، فهذا عبد ذليل للخلق، ولو كان ملكًا من الملوك، فهو عبد مستعبد للمخلوقين؛ لأنه يرضى لهم، ويغضب لهم، ويطيعهم، ولو في سخط الله عَزَّوَجَلَّ.

[٣] هذه هي القاعدة: أن الحرية حرية القلب، والأعضاء تبع له، والعبودية عبودية القلب، والأعضاء تبع له؛ فالمدار على القلوب.

كَمَا أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»(١)[١].

وَهَذَا لَعَمْرِي إِذَا كَانَ قَدْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُبَاحَةٌ، فَأَمَّا مَنْ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُحَرَّمَةٌ: امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ، فَهَذَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يُدَانُ فِيهِ[٢].

وَهَؤُلَاءِ -عُشَّاقُ الصُّورِ- مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَذَابًا وَأَقَلِّهِمْ ثَوَابًا[٣].

الشَّرْح

[١] فربما يكون كثير المال فقير النفس، وربما يكون قليل المال غني النفس؛ فكثير من الناس عنده الملايين والمليارات والأرصدة الضخمة، ولكنه فقير القلب، لا يجد لذة بأمواله، ويريد دائمًا الزيادة؛ لأن قلبه فقير، لا يقنع بشيء، أما من رزق القناعة وغنى القلب؛ فهو غني، وإن لم يكن عنده إلا القليل من المال.

[٢] إذا تعلق قلبه بامرأة، حتى وإن كانت زوجة له، فهذا في تعلقه بالمرأة ذليل لها، عبد لها.

[٣] أي: الذين يعشقون الصور، وهن النساء، يكونون في عذاب دائم، والسبب في ذلك: (إِنَّ الْعَاشِقَ لِصُورَةٍ إِذَا بَقِيَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِهَا، مُسْتَعْبَدًا لَهُ اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِهِ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ)، ولذلك أمر الله بغض البصر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ

---

(١) سبق تخريجه (ص٢١٠).

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]، فمن غض بصره، فإن الله يزكي قلبه، ويطهره من التعلق بهذه المعشوقات أو هذه المناظر الفاتنة، فغض البصر ينير القلب، ويزكيه، وأما إطلاق البصر إلى ما حرم الله؛ فإنه يؤثر في قلبه ويعميه، ويعلقه بما يعشق، ولا يحصل له ما عشق، فيبقى في عذاب.

وَالْمَـرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَـيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِي أَعْيُنِ الْعَيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ[1]

وقد استشرى التعلق بالصور في وقتنا من خلال الصور الفاتنة، التي تعرض في الجرائد والمجلات والشاشات، وأشد من ذلك في الفضائيات والإنترنت، وفي شاشات التلفزيونات وفي الندوات والحفلات، وفي الاختلاط بين الرجال والنساء متجملات متبرجات في هذه الأمكنة المختلطة، وكأنها أمنت الفتنة، وذهبت الشهوة من الرجال والنساء، مع أنها لم تذهب الشهوة، ولم تؤمن الفتنة، بل اشتدت، ولكنها فُقدت الغيرة، وسرت فينا أخلاق الغرب والكفرة، وهل إذا قربت البنزين من النار يؤمن الحريق؟!

(١) البيت لابن حيوس. انظر: التبصرة لابن الجوزي (١/ ١٦٣)، وذم الهوى (١/ ١٠١)، وصيد الخاطر (١/ ٣٣٣).

إِنَّ الْعَاشِقَ لِصُورَةٍ إِذَا بَقِيَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِهَا، مُسْتَعْبَدًا لَهُ اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ، وَلَوْ سَلِمَ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى[١] فَدَوَامُ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهَا بِلَا فِعْلِ الْفَاحِشَةِ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِ، مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ وَيَزُولُ أَثَرُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَهَؤُلَاءِ يُشَبَّهُونَ بِالسُّكَارَى وَالْمَجَانِينِ؛ كَمَا قِيلَ(١)[٢]:

سَكْرَانِ: سُكْرُ هَوًى، وَسُكْرُ مُدَامَةٍ وَمَتَى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سَكْرَانِ

وَقِيلَ(٢)[٣]:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ

الشَّرْح

[١] فالعاشق، إذا تعلق قلبه بامرأة لا تحل له أو بصبي، فإنه بين أمرين: إما أن يقع في الفاحشة الكبرى -والعياذ بالله-، وإما أن يبقى قلبه معلقًا بهذه الصورة دائمًا وأبدًا، فيظل في عذاب، وهذا أشد ممن وقع في الفاحشة؛ لأن من وقع في الفاحشة يمكن أن تنتهي رغبته، ويندم، ويتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن من تعلق قلبه بهذه الصور والمعشوقات؛ فإنه لا يستطيع أن يتوب، بل يزيد ذلك في قلبه، ويؤثر فيه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ**

(١) صدر البيت يُنسب لديك الجن، وعجزه: «أَنَّى يَفِيقُ فَتَى بِهِ سُكْرَانِ». يُنظر: ديوانه (ص١٩٤). وذكره ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب (١٠/ ٤٥١٢) ونسبه للخليع الشامي.

(٢) يُنسب البيتان لمجنون ليلى قيس بن الملوح، يُنظر: ديوانه (ص٢١٨).

سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ»[1]؛ لأنه يقع السم في قلبه من هذا السهم، ولا يقع في جسمه.

[٢] السكر على قسمين:

سكر الهوى، وهذا لا يفيق صاحبه.

وسكر المدامة، وهي الخمر، وهذا يمكن أن يصحو منه.

ومن اجتمع فيه هذان السكران -سكر الهوى، وسكر الخمر-، فإنه يصعب أن يتخلص منهما.

[٣] العشق أشد من الجنون؛ لأن العاشق لا يفيق الدهر كله، بل قلبه متعلق بمعشوقه، أما المجنون، فإنه يصرع في بعض الأحيان، ويفيق، ولكن العاشق لا يستفيق أبدًا، فسكره مستمر -نسأل الله العافية-، فهل يتنبه لهذا الخطر من يدعون إلى السفور والاختلاط والخلوة بين الرجل والمرأة؛ بحجة أنها زميلة، أو سكرتيرة له، أو غير ذلك.

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٤٩) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطبراني في الكبير (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذَا الْبَلَاءِ إِعْرَاضُ الْقَلْبِ عَنْ اللهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَطْيَبَ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا بِمَحْبُوبٍ آخَرَ يَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ، أَوْ خَوْفًا مِنْ مَكْرُوهٍ، فَالْحُبُّ الْفَاسِدُ إِنَّمَا يَنْصَرِفُ الْقَلْبُ عَنْهُ بِالْحُبِّ الصَّالِحِ؛ أَوْ بِالْخَوْفِ مِنَ الضَّرَرِ[١].

الشرح

[١] لا علاج لهذا العشق والغرام واتباع الهوى، إلا بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وتعليق القلب بالله عَزَّوَجَلَّ، وحينئذ يشفيه الله جَلَّوَعَلَا، ويزيل عنه هذا البلاء، إذا رجع وتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فالذي يريد أن يعالج ما أصابه من العشق والهوى -اللذين هما أخطر شيء عليه في حياته وأخلاقه-؛ لا يعالج هذا إلا بالتوبة والرجوع إلى الله وغض البصر، والابتعاد عن مواطن الشر والفتنة، وعدم النظر في الشاشات الهابطة، والامتناع عن الذهاب إلى معارض وأسواق النساء ومتابعتهن، فالإنسان يبتعد عن مواطن الفتنة، وبذلك ينجو بإذن الله؛ فلاتسلم من الشر إلا إذا تجنبت أسبابه.

ومن أعظم أسباب الفتنة اليوم: اختلاط النساء بالرجال في المكاتب، والمستشفيات، والمدارس، ومواطن الأعمال، والبيع والشراء، والحفلات، والندوات، واللقاءات، وهذا من أعظم أسباب الفتنة.

فمن أعظم أسباب الفتنة: اختلاط الرجال والنساء المتبرجات والمتزينات بأنواع الزينة! فالفتنة شديدة؛ ولذلك تشتد غربة الدين في آخر الزمان، ويكون القابض على دينه كالقابض على الجمر، فهذه فتن عظيمة -نسأل الله العافية منها-، وقد تلاحق الإنسان وهو في بيته وعلى فراشه بواسطة الفضائيات والشاشات والجوالات، التي تعرض الجرائم والشرور على الناس، وتدخل عليهم في بيوتهم.

فالفتنة شديدة، وغربة الدين شديدة -ولا حول ولا قوة إلا بالله-؛ ولذلك ضاع كثير من شباب الأمة، بل ورجال الأمة ونساؤها، فأين ذهبت الغيرة يا مسلمون؟ كيف ترضون لمحارمكم الدخول في هذه الأخطار الأخلاقية لأجل الدراسة أو الوظيفة، لا بارك الله بعد العرض بالمال، يقول أبو تمام[1]:

فَلَا وَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ ... وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

(١) انظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري (١/ ٩٧)، والآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٢٢٧).

قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤][١]، فَاللهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ مِنْ الْمَيْلِ إِلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ بِإِخْلَاصِهِ للهِ، وَلِهَذَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَذُوقَ حَلَاوَةَ الْعُبُودِيَّةِ للهِ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى اتِّبَاعِ هَوَاهَا[٣]؛

الشَّرْح

[١] فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما راودته امرأة العزيز عن نفسه، قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]، وقد هرب منها يريد الخروج من المكان، فلحقته، وجذبته من ثوبه، حتى شقت قميصه من شدة الجذب منها وشدة الهرب منه، ووقع الشق في دبر الثوب؛ لأنه معرض عنها، ولما وجد زوجها عند الباب، قلبت الدعوى عليه، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥]، فانظر إلى كيد النساء، ولكن الله خلص نبيه منها ومن شرها بسبب إخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وفي النهاية قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١]، ثم اعترفت، فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣]، وفي الأول كانت قد قالت للنساء لما رأين يوسف ومظهره الكريم العفيف: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف:٣٢]، فقد اعترفت ببراءته وسوء تصرفها معه مرتين.

ففتنة النساء فتنة عظيمة وأليمة، واختلاط الرجال مع النساء تحصل بسببه فتن عظيمة، لاسيما في هذا الزمان، الذي تمردت فيه النساء على الآداب الشرعية، لما ترك لهن الحبل على الغارب؛ بل شجعن على التمرد ونزع الحجاب وعلى الاختلاط بالرجال، وكسرت الحواجز بينهن وبين الرجال، وشجعهن العلمانيون والمستغربون.

[٢] كما خلص الله نبيه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من كيد المرأة ومن كيد النساء بسبب إخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ، وإيمانه بالله، فقد رغبته في أول الأمر، استعملت المرغبات، وتزينت له، ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف:٢٣]، ولم تؤثر فيه هذه الأشياء لورعه وتقواه، ولما امتنع، استخدمت الترهيب، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف:٣٢]، فقال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣]، فصبر على السجن عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ ابتعادًا عن المرأة وفتنتها.

فإذا كان يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم الصلاة والسلام- جرى عليه من الابتلاء والامتحان ما قصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة كاملة، فابتلي بأخذه من أبيه، وفراقه لأبيه وهو طفل صغير، وبإلقائه في الجب -وهو البئر-، يريدون التخلص منه، ثم بعد إخراجه من الجب بيع وصار رقيقًا خادمًا عند ملك مصر، فلما بلغ أشده واستوى، وكان جميلًا بهيًّا؛

لما ألقى الله عليه الجمال الذي خصه به، فامرأة العزيز -والنساء عادة تبتلى بالعشق والتعلق بالرجال- بحكم أن يوسف عندها في بيتها، أرادت منه الفاحشة، فانتقل من ابتلاء الجسم إلى الابتلاء بالنعمة، وهو أشد، فامرأة العزيز حاولت معه، وهي امرأة ملك، وعندها من الرفاهية والجمال ما ليس عند غيرها، فتصنعت، وغلقت الأبواب، وطلبت منه مواقعتها، ولكنه أبى، واستعاذ بالله، وألحت عليه تطلب منه ما تريد، ولكنه أبى وصمم، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]، فلما رأى منها الإلحاح، وخاف منها، هرب يريد الخروج من الباب، فلحقت به، وجرت قميصه، تريد إمساكه عن الخروج، فصادف عند الباب قدوم زوجها، فلما رأت زوجها، قلبت الدعوى عليه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكذبت عليه، وادعت أنه هو الذي يراودها عن نفسها، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف:٢٥]، فقد ألقت التهمة والدعوى عليه، وهذا من مكر وكيد النساء، ولكن الله بيَّن الحق، وبيَّن كذبها بعلامة في قميصه، وهو أنه لما هرب، أمسكت قميصه، فانشق بيدها من خلفه، ثم ألقت التهمة عليه: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ [يوسف:٢٥-٢٦]، يريد أن يكذبها، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ﴾؛ أي: أمر بالنظر في القرينة؛ إن كان الشق من الأمام، فهي صادقة؛ لأنه أقبل يريدها، فدفعته حتى انشق ثوبه.

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:٢٧]؛ أي: إن كان الشق من خلف، فهي كذابة وهو الصادق؛ لأنها جذبته، وهو مدبر عنها وهارب منها، ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٨].

فأكذبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبين صدق يوسف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسبب في ذلك إخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي فرج عنه عند الشدة وخلصه من هذه التهمة، وعند ذلك قالوا له: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾، وقالوا لها: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٢٩]، والشاهد: أن الله قال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

فالله جَلَّ وَعَلَا خلصه، ونجاه، وصرف عنه السوء والفحشاء، فصرف عنه الأمرين، ثم علل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

وكلمة ﴿ عِبَادِنَا ﴾ هنا تعني: العبودية الخاصة؛ ثناء عليه، وإلا فإن كل الناس من عباد الله العبودية العامة، ولكن هذه كلمة ثناء عليه؛ ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، فبسبب عبوديته الخاصة وإخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ نجاه الله من هذه المحنة.

فدل على أن من أخلص لله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله ينجيه، فهذا تعليل عام، فكل من أخلص لله عَزَّوَجَلَّ، وعبد الله حق عبادته، فإن الله يخلصه من الشدائد؛

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»(١).

كما أن في هذه القصة العظيمة التحذير من الاختلاط بين الرجال والنساء، والتحذير من الخلوة بالمرأة؛ لأن ذلك سبب للفتنة، وهذا ما نعاني منه اليوم مع دعاة الاختلاط.

كما أنه في هذه القصة التحذير من تبرج النساء أمام الرجال.

[٣] أي: يحصل عنده قبل ذلك ميل إلى الفتن، ولكنه إذا ذاق حلاوة الإيمان والإخلاص لله؛ فإنه يستقر قلبه مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلايلتفت إلى فتنة أو إلى مناظر سوء، أو إلى لذة عاجلة وشهوة حاضرة، وإنما ينظر إلى المستقبل والعواقب.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٢٥١٦)، والحاكم (٣/ ٦٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٧٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فَإِذَا ذَاقَ طَعْمَ الْإِخْلَاصِ، وَقَوِيَ فِي قَلْبِهِ انْقَهَرَ لَهُ هَوَاهُ بِلَا عِلَاجٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنبكوت:٤٥][١]،

الشَّرْح

[١] قال الله لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهذا أمر لجميع الأمة-: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنبكوت:٤٥].

ثم بيَّن فائدة الصلاة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنبكوت:٤٥]؛ لأن المقصود من تلاوة الكتاب ليس الترنم باللفظ والتغني بالقرآن وتحسين الصوت والترتيل، فهذه وسيلة، وأما الغاية، فهي العبادة، ولهذا قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والصلاة أعظم أنواع العبادة؛ لأنها تمتاز عن غيرها من العبادات بهاتين الميزتين:

الأولى: كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فالصلاة تنهى عن الفحشاء؛ لأن الذي يلازم الصلاة وطاعة الله ومناجاة الله جَلَّ وَعَلَا، فإن صلاته تبعده عن الوقوع في الفحشاء، وهي المعصية القبيحة والمنكر عمومًا، فتجد المصلين يمتازون على غيرهم بالاستقامة والمحافظة على الدين؛ لأن الصلاة تورث في قلوبهم خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومحبته، وأما من أضاع الصلاة، فإنه يضيع، وتضيع نفسه، ويكون مع هواه، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذه فائدة عظيمة، ولهذا أوجبها الله خمس مرات في اليوم والليلة.

والفائدة الثانية في الصلاة: ذكر الله؛ لأنها تشتمل على الذكر بالقول وبالفعل؛ فالصلاة كلها ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، والذكر يحيي القلب وينيره؛ فالعبد الذي يحافظ على هذه الصلوات الخمس مع الجماعة يجد هذه الفوائد العظيمة، أما من يضيع الصلاة، فإنه يفقد هذه المزايا؛ ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ [مريم:٥٩].

فالذي يضيع الصلاة، يتبع شهوات نفسه، ويتبع هواه، أما الذي يحافظ على الصلاة، فإنها تحجبه عن الشهوات المحرمة، وعن الهوى، ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾؛ أي: أكبر من النهي عن الفحشاء، فذكر الله أكبر من أي شيء؛ فالصلاة فيها الذكر لله عَزَّوَجَلَّ، والذكر يحيي القلب وينيره، ويحببه إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فدل على أن الصلاة تكون مربية للعبد على الخير، ومانعة له من الشر، ومانعة له من الفحشاء والمنكر، ومربية له على ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرغبة إليه والإقبال على الله جَلَّوَعَلَا.

كما أن الصلاة -أيضًا- فيها إعانة على المشاق والمكاره في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

فهذه الصلاة عبادة عظيمة، ومن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه شرعها لعباده المؤمنين، أوجبها عليهم لمصلحتهم وفائدتهم، أما من لايجد للصلاة لذة، ولا يجد فيها راحة، فهذا دليل على أنه لم يصلِّ الصلاة المطلوبة، فلم يذق طعمها، ولم يتلذذ بفائدتها، وإنما يعتبرها من العادات والتقاليد؛ كما يقولون؛ لأنهم لم يذوقوا طعمها وفائدتها.

ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا دَفْعٌ لِلْمَكْرُوهِ، وَهُوَ الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ، وَفِيهَا تَحْصِيلُ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ ذِكْرُ اللهِ[١]، وَحُصُولُ هَذَا الْمَحْبُوبِ أَكْبَرُ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ[٢]؛ فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ عِبَادَةٌ للهِ، وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ للهِ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَأَمَّا انْدِفَاعُ الشَّرِّ عَنْهُ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ[٣]، وَالْقَلْبُ خُلِقَ يُحِبُّ الْحَقَّ وَيُرِيدُهُ وَيَطْلُبُهُ[٤].

الشرح

[١] أي: ذكر الله بالقول والعمل واللسان والقلب.

[٢] ذكر الله الذي في الصلاة أكبر من النهي عن الفحشاء والمنكر، وأعلى درجة، وكلاهما عظيم، لكن الأعمال تتفاوت.

[٣] فترك المحرمات والمعاصي والمنكرات هذه وسيلة للغاية، والغاية هي عبادة الله وحده لا شريك له.

[٤] الأصل أن القلب مفطور على محبة الله وعبادته، هذا هو الأصل، وإنما يكون الانحراف لسبب عارض: إما التربية السيئة؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١)، فالتربية السيئة تفسد الفطرة.

وإما أن يتبع الشهوات والرغبات النفسية، فذلك بسبب التربية السيئة، فتنحرف به عن الفطرة التي فطر عليها، فلذلك يجب عليه تجنب

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفتن الشهوانية والفتن الشبهاتية، وتجنيب الأطفال منها؛ لأنها تفسد الفطرة عندهم، وتفسد القلب.

فالموفق من يدفع هذه العوارض التي قد تعرض؛ امتحانًا وابتلاءً، ولكن الموفق يدفعها بالعبادة وطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَلَمَّا عَرَضَتْ لَهُ إِرَادَةُ الشَّرِّ طَلَبَ دَفْعَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَفْسُدُ الْقَلْبُ كَمَا يَفْسُدُ الزَّرْعُ بِمَا يَنْبُتُ فِيهِ مِنْ الدَّغَلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

الشَّرْح

[١] قال تعالى في سورة «الشمس»: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١-٧]، فأقسم بالنفس من جملة ما أقسم به من مخلوقاته؛ لأن النفس فيها عجائب من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨]، فألهمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك؛ إما أن تكون فاجرة متبعة للمعاصي والشهوات -وهذا هو الغالب على نفوس البشر-، أو تكون تقية زكية، تبتعد عن هذه العوارض، وتتعلق بربها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ أي: من زكى نفسه؛ يعني: طهرها وكملها، ورفعها بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي: دساها بالمعاصي والذنوب، ودنسها ودسها في التراب، بدل أن يرفعها بالعبادة، فالإنسان هو الذي يضع نفسه:

إما في موضع الردى، وإما في موضع الهدى، والإنسان حيث وضع نفسه، قال الشاعر[١]:

ومَا المرْءُ إلا حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فَفِي صَالحِ الأعْمالِ نَفْسَكَ فاجْعَلِ

والله أسند إليه توجيهها، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، فهو الذي يزكيها.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، هو الذي يدسيها بأفعاله وتصرفاته.

وتزكية النفس على قسمين:

تزكية مأمور بها مطلوبة، وهي تزكيتها بالطاعة والعبادة، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩].

وتزكية مذمومة، وهي مدح النفس والإعجاب بها، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩].

---

(١) البيت لمنقر بن فروة المنقري. انظر: البيان والتبيين (٣/ ١٥٥)، والأمثال والحكم للماوردي (١/ ٢٠٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠][١].

الشَّرْح

[١] وقوله تعالى: ﴿قُل﴾ أيها الرسول ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يبلغهم عن الله جَلَّوَعَلَا أن ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾؛ أي: يغضوا أبصارهم عن المحرمات، فلا يتبع الإنسان نظره المحرمات؛ لأن ذلك يجر عليه الوبال.

وقال تعالى: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ولم يقل: (يغضوا أبصارهم)؛ لأنه ليس مطلوبًا من المؤمن أن يغمض عينيه، بل المطلوب أن ينظر ببصره إلى ما يحتاج النظر إليه؛ إلى طريقه، وإلى الحوائج التي يريدها من المباحات، وإنما يغض بصره عن المحرمات فقط.

ثم قال: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾؛ لأن غض البصر وسيلة لحفظ الفرج، وعدم غض البصر وسيلة للوقوع في الفواحش، فالنظر المحرم بريد إلى المعصية، وسهم مسموم؛ كما وصفه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ»[١]. ولابد للسهم الذي يطلق من الرمية من إصابة وسهم النظر يصيب القلب، ويجلب له الشهوة، فعلى المسلم أن يغض بصره عما حرم الله من المناظر المحرمة؛ من النساء، والمردان، والصور الفاتنة، وفي وقتنا يكف النظر إلى الفضائيات وما فيها من الفتن؛ من عرض النساء متبرجات سافرات، وأصحابها لا يختارون إلا أجمل النساء؛ لأجل فتنة من ينظر إليهن،

(١) سبق تخريجه (ص٢٤٣).

فالمسلم يغض بصره، ولا ينظر إلى هذه المناظر، وإلا فإنه سيقع -إما على المدى القريب أو البعيد- فيما حرم الله.

﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ﴾؛ أي: أطهر لهم.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]، فهو ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وليس هذا خاصًّا بالرجال، بل والنساء أيضًا، ولهذا قال: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١]، وسبب حفظ الفرج: غض البصر، والحجاب للمرأة، ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، إلى آخر الآية. فالمرأة تغض بصرها عن الرجال ومتابعتهم، وتحتجب عنهم، وتستر نفسها عن الرجال الذين ليسوا من محارمها، فهذه كلها وسائل لحفظ الفروج.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١][١]. فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ غَضَّ الْبَصَرِ، وَحِفْظَ الْفَرْجِ هُوَ أَقْوَى تَزْكِيَةٍ لِلنَّفْسِ وَبَيَّنَ أَنَّ تَرْكَ الْفَوَاحِشِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ[٢].

الشَّرْح

[١] قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١].

لما تكلم من تكلم فيما أشاعه المنافقون حول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا من الإفك والكذب، يريدون أن يكيدوا للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويضيقوا صدره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتكلم معهم بعض المؤمنين الغافلين الذين استمعوا إلى المنافقين، وانطلى عليهم هذا الإفك -والعياذ بالله-، بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه المتفضل بحفظ المؤمنين من الوقوع في المواقف القذرة، التي يدعو إليها المنافقون وأصحاب الخلاعة والمجون، فالمؤمن كما يصون بصره عن الحرام يصون سمعه عن استماع الكلام المحرم، فالعبد يبتعد عن إطلاق البصر إلى ما حرم الله، وعن سماع الكلام المحرم، والله جَلَّ وَعَلَا يزكيه بذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٢١]، فالعبد يزكي نفسه بفعل الأسباب، والله يزكيه بمنعه وحفظه من الوقوع فيما لايجوز.

[٢] تركها من قبل العبد يزكي نفسه، ثم الله جَلَّ وَعَلَا يوفقه، ويزكيه، ويمنعه، ويطهره من هذه الأمور.

إنما تزكى النفوس بالطاعة وترك المعصية، فتزكية النفوس تكون بطاعة الله، وتوحيده، وعبادته، وفعل ما يرضاه، وترك ما نهى الله عنه من الشرك، وسائر المعاصي، والكبائر والصغائر.

وَزَكَاةُ النُّفُوسِ تَتَضَمَّنُ زَوَالَ جَمِيعِ الشُّرُورِ مِنْ الْفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ، وَالشِّرْكِ، وَالْكَذِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ[١] وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ قَلْبُهُ رَقِيقٌ لِمَنْ يُعِينُهُ عَلَيْهَا[٢]، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مُقَدَّمَهُمْ[٣] وَالْمُطَاعَ فِيهِمْ، فَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ يَرْجُوهُمْ وَيَخَافُهُمْ، فَيَبْذُلُ لَهُمْ الْأَمْوَالَ وَالْوِلَايَاتِ[٤].

الشَّرْح

[١] عاد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى سياق كلامه الأول؛ بأن الإنسان يكون رقيقًا لرغبته وهواه؛ ولذلك يخضع ويذل لمطامعه، وإن كانت تضره، ويخضع أيضًا لمن يعينه على مطامعه، ويكون رقيقًا له، حتى ولو كان ملكًا أو رئيسًا، فإنه يخضع لخدمه وأعوانه الذين يعينونه على ما يريد، فهو وإن كان في الظاهر سيدًا لهم، ولكنه رقيق لهم، يلتمس رضاهم، ولا يريد أن يبتعدوا عنه؛ لأنه يستخدمهم لأغراضه وأهوائه، وهم يتسلطون عليه، ويتهددونه بهجره وتركه والبعد عنه، إن لم يحقق لهم رغباتهم.

(وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ)؛ أي: وطالب رئاسة يريد أن يحصل على الرئاسة بأي ثمن.

[٢] أي: على الحصول على الرئاسة والعلو في الأرض، يريد ذلك بأي وسيلة، ولو أدى ذلك إلى أن يذل ويخضع للناس، وللخدم، ولرجاله.

[٣] فهو في الظاهر رئيسهم وملكهم، ولكنه في الباطن رقيق لهم مأسور لهم، يراعيهم ويرغبهم في خدمته.

[٤] يبذل لهم الأموال، ويعطيهم الرواتب الضخمة والأعطيات، ويوليهم الوظائف الكبيرة؛ من أجل أن يحققوا له رغباته ومطامعه؛ كمن يشترون الأصوات في الانتخابات.

وَيَعْفُو عَنْهُمْ لِيُطِيعُوهُ، وَيُعِينُوهُ[١]، فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ رَئِيسٌ مُطَاعٌ، وَفِي الحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ لَهُمْ[٢]، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ كِلَيْهِمَا فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِلْآخَرِ[٣] وَكِلَاهُمَا تَارِكٌ لِحَقِيقَةِ عِبَادَةِ اللهِ[٤].

الشَّرْح

[١] أي: قد يخطؤون، فيعفو عن ذلك؛ من أجل أن يتألفهم لخدمته، وتحقيق رغباته، فيصبر على ما يكره منهم؛ من أجل هذا، ولا يقيم الحق عليهم، إذا وجب عليهم حق لله أو لخلقه.

[٢] لأنه لو لم يطعهم فيما يريدون، لنفروا منه، وهو لا يستطيع أن يحقق مطامعه إلا بهم.

[٣] فالحاشية فيها عبودية لرئيسها؛ لأنه يحقق لهم مطامعهم ووظائفهم، ومعطياتهم، والرئيس رقيق للحاشية؛ لأنها تحقق له الرئاسة والعلو في الأرض، فكل طرف رقيق للآخر، ولهذا يقول الشاعر(١):

النَّاسُ لِلْناسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

[٤] فينقص من عبادته لله بقدر ما يذل لغيره، وقد يترك عبادة الله من أجلهم، أما المؤمن، فيعلق قلبه بالله، ومن علق قلبه بالله، كفاه الله كل شيء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

(١) البيت لأبي العلاء المعري. انظر: السحر الحلال في الحكم والأمثال (١/ ١٠٢)، وأساليب بلاغية للرفاعي (ص١٩٠).

فالمؤمن يعلق قلبه بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعصي الله من أجل أن يطيعه الناس؛ ولهذا ورد في الحديث: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[1]، فالمؤمن الحق يعلق قلبه بالله عَزَّوَجَلَّ ولا يذل لغير الله، ولا يطمع إلا فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله بيده الملك، وبيده كل شيء، فعلى المؤمن أن يعلق قلبه بالله جَلَّوَعَلَا، وسيذل له الناس والمخلوقات بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وليس معنى ذلك: أن الإنسان لا يذل للناس، ولا يخضع للناس، وأنه يستغني عن الناس نهائيًّا، بل هو محتاج إلى الناس، فيتعاون معهم، ولكن لا يذل لهم، ولا يخضع لهم، وإنما يذل ويخضع لله، ويستعين بالناس فيما يقدرون عليه، وفيما لا يغضب الله أو يكون فيه ظلم للآخرين.

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٥١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٨).

وَإِذَا كَانَ تَعَاوُنُهُمَا عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ كَانَا بِمَنْزِلَةِ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْفَاحِشَةِ[١]، أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الشَّخْصَيْنِ لِهَوَاهُ الَّذِي اسْتَعْبَدَهُ وَاسْتَرَقَّهُ يَسْتَعْبِدُهُ الْآخَرُ.

وَهَكَذَا أَيْضًا طَالِبُ المَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْبِدُهُ وَيَسْتَرِقُّهُ[٢].

الشَّرْح

[١] إذا كان التعاون بين الراعي والرعية لأجل العلو في الأرض، ولو يفعل فيه شيء من المحرمات، أو يترك فيه شيء من الواجبات، فهو تعاون على الإثم والعدوان.

[٢] إذا تعلق قلبه بالمال وحب المال، فإن همه في تحصيل المال بأي وسيلة -من حلال أو من حرام-؛ بالسرقة، أو بالقمار والميسر، وبالرشوة، وببيع المخدرات، وبأي وسيلة؛ لأنه يحب المال، فهو عبد للمال -والعياذ بالله-، ولذلك يطلب المال بما يسخط الله وبأي وسيلة، أما المؤمن، فهو وإن كان يحب المال؛ كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، ولكنه لا يقدم محبة المال على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا تعارضت محبة المال مع محبة الله، فإنه يقدم محبة الله؛ ولذلك يترك المحرمات، ويترك الربا، ويترك الخديعة والكذب، ويترك الميسر والقمار، ويترك المكاسب المحرمة، فلا يحمله حب المال على هذه الأمور، وإنما يقتنع بالمكاسب المباحة الطيبة، ولو كانت قليلة، فإن الله يبارك فيها، أما المكاسب المحرمة وإن كانت كثيرة؛ إلا أنها منزوعة البركة، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فقد

يجمع الإنسان الأموال الطائلة، ولا ينتفع منها؛ لا في دينه، ولا في دنياه، ولا في آخرته، وإنما يتعب في جمعها فقط، ويتركها لغيره، فليس المهم أن يجمع الإنسان الأموال، بل المهم كيفية جمع الأموال، ومن أي طريق، فالذي يقنع بما أحل الله، يبارك الله له، وينمي ماله، ويغني قلبه، ويسعد بماله، وينفق في سبيل الله، وأما العكس، فإنه إنما يكون مجرد آلة تجمع الأشياء، ولا تنتفع بها.

وَهَذِهِ الْأُمُورُ نَوْعَانِ[١]:

مِنْهَا: مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ[٢].

الشَّرْح

[١] أي: الأموال على قسمين:

القسم الأول: قسم يحتاجه العبد، فهذا لا لوم عليه إذا سعى في طلبه وتحصيله من الحلال، بل هو مأجور على هذا. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ**»(١).

القسم الثاني: فضول المال الزائدة عن الحاجة، لا ينبغي للعبد أن يتعلق بها؛ بحيث إذا حصلت له رضي، وإن لم يحصل له سخط.

[٢] وهو معنى قوله: (مِنْهَا مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ)، فليس معنى مذمة حب المال أن يترك المال، ويقتصر على العبادة، بل إن طلب الرزق الحلال من العبادة، يؤجر عليه، فهو يطلب ما يستعين به على حياته وعبادة الله، ولكن من الكسب الحلال الطيب، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَا بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(٢)، والجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس في كتاب الله، وفي سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الجهاد بالمال يتعدى نفعه.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧) (١٠٣٦) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**».

(٢) أخرجه أحمد (٢٩/ ٢٩٩)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩١)، والحاكم (٢/ ٣)، وابن حبان (٨/ ٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٤٦) من حديث عمرو بن العاص =

فالمال مطلوب، ولكن له طرق شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكسبه وإنفاقه، غير أن كثيرًا من الناس لا يقنع بهذه الطرق، ولا ترضيه، فهذا هو عبد المال، أما الذي يقنع بالطرق المباحة، ويأخذ المال للاستعانة به على عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا عبد الله، والفرق بين هذا وذاك بيِّنٌ.

= رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي**» فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ المَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً**». قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ المَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ زَعْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: «**يَا عَمْرُو، نِعِمَّا بِالمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**».

وَشَرَابِهِ، وَمَسْكَنِهِ، وَمُنْكَحِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. فَهَذَا يَطْلُبُهُ مِنْ اللهِ وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ[١]، فَيَكُونُ المَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ بِمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ[٢]، وَبِسَاطِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ بَلْ بِمَنْزِلَةِ الْكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ[٣] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ[٤]، فَيَكُونَ هَلُوعًا إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا؛ وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا.

الشَّرْح

[١] الإنسان بحاجة إلى طعام، وإلى شراب، وهذا لا يصل إليه إلا بالمال، وكذا بحاجة إلى الزواج، ولا يتزوج إلا بالمال؛ لذا يطلبه من الله، ويبذل السبب لطلب الرزق، مع الدعاء والتعلق بالله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] أي: يكون المال خادمًا لك، ووسيلة تستعملها؛ مثل: الركوب الذي تركبه، مثل: الفراش الذي يجلس وينام عليه، فهو بحاجة إلى هذه الأمور؛ لأن الإنسان بحاجة إلى ما يؤمن له حياته من المال الحلال، وقد جعل الله جَلَّوَعَلَا في الحلال غنية عن الحرام.

[٣] أي: لا يعلق قلبه بالمال، بل يعتبره لحاجته مثل الكنيف -وهو محل قضاء الحاجة-، فالإنسان بحاجة إلى هذه الأمور، بحاجة إلى أن يبني كنيفًا ودورة مياه؛ ليقضي فيها حاجته، بحاجة إلى أن يبني غرفة يجلس فيها، وينام فيها، كل هذا من حوائجه.

[٤] أي: من غير أن يستعبده المال؛ فيطلبه من أي وسيلة، وينسى رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيكون هلوعًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١]، ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:٢٢]. فالمصلون كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، فالصلاة تنهى عن الهلع، وطلب المال من غير حله، ومن غير وجهه، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾؛ أي: إذا حصل على الخير -وهو المال والغنى-، منع ما أوجب الله عليه من الزكاة ومن الحقوق.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾؛ أي: إذا مسه الشر -وهو الفقر والحاجة-، فإنه يجزع، ويسخط، ولا يقول: (هذا من عند الله، ومن قضاء الله وقدره)، ويرضى؛ لأنه يعبد المال.

وَمِنْهَا: مَا لَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ، فَهَذِهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِهَا[١] فَإِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا صَارَ مُسْتَعْبَدًا لَهَا؛ وَرُبَّمَا صَارَ مُعْتَمِدًا عَلَى غَيْرِ اللهِ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ للهِ، وَلَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ[٢]؛ بَلْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ.

الشَّرْح

[١] أمور الدنيا تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما يحتاجه العبد من هذه الدنيا؛ من المال، والزوجة، والأولاد، فهذا لا لوم عليه إذا طلبه من وجهه، ومن حله، بل هو مأمور بذلك.

القسم الثاني: ما يزيد عن حاجته، فهذا يطلبه من حله، ولكن لا يعلق قلبه به، فيكون عبدًا له؛ كمن قال فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ**»(١)؛ لأنه ليس بحاجة إليه، فلا يعلق قلبه به، بل إن جاء، فالحمد لله، وهو عون على الخير، وإن لم يأت، فلا يكن هذا أكبر همه وغاية قصده؛ له يحب، وله يبغض، ويوالي ويعادي من أجل الدنيا.

[٢] إذا تعلق قلبه بطمع الدنيا، فإن هذا يأخذ قسمًا من عبادته وقلبه، ويكون فيه شرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا؛ كما في الحديث: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**»، فقد سماه عبدًا للمال؛ حيث أشرك في العبودية.

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٣).

فحب الدنيا وطلبها والتعلق بها، والانشغال بها عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ هو ما أوقع كثيرًا من الناس في الخلل في دينهم، فالمسلم يعبد الله، ويطلب المال الحلال؛ قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]، وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:٩].

فلا يطغى طلب المال على الصلاة في المساجد في وقتها، بل ربما ينشغل عن عبادة الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]، وقال في مدح المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

فالعبادة لله والتوكل عليه أمر مطلوب، فمن أدخل مع عبادة الله حب الدنيا والتعلق بها، لم يخلص العبادة لله، وهذا نوع من الشرك في العبادة؛ لأنه لم يبقَ معه حقيقة التوكل على الله.

وَشُعْبَةٌ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِ اللهِ، وَهَذَا مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»(١)[١]، وَهَذَا هُوَ عَبْدُ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَلَوْ طَلَبَهَا مِنَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا رَضِيَ؛ وَإِذَا مَنَعَهُ إِيَّاهَا سَخِطَ[٢].

وَإِنَّمَا عَبْدُ اللهِ مَنْ يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللهَ، وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللهَ، وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيَبْغُضُ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللهِ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ[٣]؛ كَمَا فِي الحَدِيثِ: «مَنْ أَحَبَّ لِلهِ، وَأَبْغَضَ لِلهِ، وَأَعْطَى لِلهِ، وَمَنَعَ لِلهِ: فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»(٢)[٤]،

الشَّرْح

[١] في هذا الحديث سمى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يطلب هذه الأشياء ويتعلق بها -إذا كان يرضى عند حصولها، ويسخط عند عدم حصولها- عبدًا لها، قال: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ»، فهو في الحقيقة يعبد هذا المال، والدليل على ذلك: أنه إذا أعطي، رضي، وإن لم يعطَ، سخط.

وأما أنه لو أعطي، حمد الله وشكره، وإن لم يعطَ، رضي بذلك، وعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا لم يقدر له ذلك، فهو في هذه الحال ليس عبدًا للمال، وإنما هو عبد لله.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، والطبراني في الكبير (٧٦١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٣٢٧) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨)، والترمذي (٢٥٢١)، والحاكم (٢/ ١٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٠٥) من حديث معاذ ابن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٢] عبد المال: هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها، رضي، وإذا منعه إياها، سخط، هذه العلامة على عبوديته للدنيا؛ أنه يعلق رضاه وسخطه بحصولها، أو عدم حصولها.

(**عَبْدُ اللهِ مَنْ يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللهَ، وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللهَ، وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيَبْغُضُ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللهِ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللهِ تَعَالَى**)، هذا هو عبد الله الحقيقي، الذي يحب ويبغض لله عَزَّوَجَلَّ، يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله، لا يعادي من أجل هواه ورغبته، ولا يوالي من أجل ذلك، وإنما يكون ولاؤه وعداوته، أو يكون حبه وبغضه تابعًا لما يحب الله وما يبغض الله عَزَّوَجَلَّ، فيغضب لغضب الله، ويرضى لرضا الله، ويحب من يحبهم الله، ويبغض من يبغضهم الله، وتلك علامة العبودية الصحيحة، أما من خلا من هذه الأمور، فهذا دليل على نقص عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ، أو أنه ليس لديه عبودية لله عَزَّوَجَلَّ.

[٣] أي: هذا الذي يحب في الله، ويبغض في الله، ويوالي لله، ويعادي لله، ويحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله؛ هذا علامة على إخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ، وعلى كمال إيمانه لله عَزَّوَجَلَّ.

[٤] لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»، فمن فعل هذه الأشياء لأجل الله، ومنعها لأجل الله، فقد استكمل إيمانه بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن هواه ورغبته ومحبته وكراهيته كلها تابعة

لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يحب من أجل الدنيا، أو يبغض من أجل الدنيا، أو من أجل أمور شخصية، إنما هو تابع لربه عَزَّوَجَلَّ، هذا قد استكمل الإيمان.

فمن أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، ومن نقص من ذلك، فقد نقص إيمانه بحسبه، وقليل من يسلم من هذا.

وَقَالَ: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»(١)[١]، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»(٢)[٢].

الشَّرْح

[١] العُروة هي ما يتمسك به الإنسان عند المخاطر وعند الأضرار؛ لينجو من المكاره، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]؛ لأن العرى قد لا تكون وثقى، يتمسك بها الإنسان، فتنصرم به، وتنقطع، فيهلك، ولكن العروة الوثقى التي لا تنفصم هي الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، والطاغوت: هو كل ما عبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ورضي بذلك، أو دعا إليه(٣).

فالإيمان له عرى يتمسك بها المسلم، أوثقها: الحب في الله والبغض في الله؛ لا يحب إلا لله عَزَّوَجَلَّ، و لايبغض إلا لله، لا يحب، ولايبغض من أجل

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢)، والحاكم (٢/ ٥٢٢)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٧٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٦) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق بيان معنى الطاغوت.

الدنيا أو الهوى، وإنما حبه وبغضه لأجل الله عَزَّوَجَلَّ، وبذلك يكون قد تمسك بأوثق عرى الإيمان.

[٢] وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلّٰهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**».

الإيمان له حلاوة وله لذة، وليس كل مؤمن يجد هذه اللذة وهذه الحلاوة، إلا إذا استقر الإيمان وتوثق في قلبه، فإنه يجد هذه الحلاوة وهذه اللذة، وقد بين النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث الأشياء والعلامات التي يجد بها العبد حلاوة الإيمان:

الأولى: «**مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»؛ أي: أحب إليه من والديه ومن أولاده ومن الدنيا وما فيها، يكون الله ورسوله أحب إليه من كل شيء.

الثانية: «**وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلّٰهِ**»، وهذا هو الحب في الله ومن أجل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو تابع لمحبة الله، ودليل على صدقها.

الثالثة: «**وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ**»، فهو يكره كل ما خالف دين الإسلام من الأديان، ولا يحب إلا دين الإسلام، فلذلك يكره أن يعود في الكفر الذي هو ضد الإسلام، بعد إذ أنقذه الله منه.

«كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»، فلا أحد يحب أن يقذف في النار؛ فالمسلم الحق والمؤمن الحق يكره الكفر، ويكره أن يعود إليه، ويكره أهله؛ كما يكره أن يقذف في النار، فهذه الخصال من وجدها في نفسه، وجد حلاوة الإيمان، والطمأنينة، واللذة، ومن فقدها، أو فقد شيئًا منها، فإنه لايجد حلاوة الإيمان.

وهنا استقرار إيماني، لا يزحزحه شيء، ولا يلتفت إلى من يلومه من الناس، فلا تأخذه في الله لومة لائم، هذا هو الذي استقر الإيمان في قلبه، ووجد حلاوته، فتمسك به، واطمأن إليه.

فَهَذَا وَافَقَ رَبَّهُ فِيمَا يُحِبُّهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ[١]، فَكَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَحَبُّ الْمَخْلُوقِ للهِ لَا لِغَرَضٍ آخَرَ، فَكَانَ هَذَا مِنْ تَمَامِ حُبِّهِ للهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ مَحْبُوبِ الْمَحْبُوبِ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ الْمَحْبُوبِ؛ فَإِذَا أَحَبَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ وَأَوْلِيَاءَ اللهِ لِأَجْلِ قِيَامِهِمْ بِمَحْبُوبَاتِ الْحَقِّ لَا لِشَيْءٍ آخَرَ، فَقَدْ أَحَبَّهُمْ للهِ لَا لِغَيْرِهِ[٢]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤][٣].

الشَّرْح

[١] الموافقة لله: أن لا يحب إلا ما يحبه، ولا يكره إلا ما يكرهه.

[٢] فيحب المرء لا يحبه إلا لله، وأولى الخلق أن يحبهم هم أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، فيحب أنبياء الله محبة شديدة، ويتلذذ في ذكرهم، وذكر سيرهم، ويطمئن إليهم، وكذلك يحب أتباع أنبياء الله من المؤمنين، يحب المؤمنين في أي مكان كانوا، وفي أي زمان؛ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، فلايكون الحب مقتصرًا على مؤمني زمانه، أو على مؤمني بلده فقط، بل يكون حبه لكل مؤمن على وجه الأرض، وهذه علامة صدق الإيمان.

وأما إذا كان لا يحب إلا من في بلده أو في دولته، فهذه عنصرية، وهذا دليل على نقص إيمانه؛ فالمؤمن يحب المؤمنين في كل مكان أحياء وأمواتًا، ويبغض الكفار في أي مكان، حتى ولو كانوا أقرب الناس إليه نسبًا ومكانًا، يبغضهم

لله عَزَّوَجَلَّ، ولو كانوا من بلده، بل لو كانوا آباءه أو أبناءه أو إخوانه. فهو يحب أنبياء الله وأتباعهم (لِأَجْلِ قِيَامِهِمْ بِمَحْبُوبَاتِ الحَقِّ)، لا يحبهم من أجل الدنيا، أو من أجل القرابة والوطن، بل يحبهم لقيامهم بمحبوبات الله عَزَّوَجَلَّ.

[٣] قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، وعلاماتهم:

أولًا: أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤].

الشاهد في قوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾؛ يحبهم الله جَلَّوَعَلَا، وهم يحبون الله، فمن أعظم صفاتهم محبتهم لله ومحبة الله لهم.

ومن صفاتهم أيضًا:

ثانيًا: أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾؛ يعني: يلينون لإخوانهم المؤمنين، ولا يتكبرون عليهم، بل يتواضعون لهم.

ثالثًا: أنهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾؛ فيهم قوة على الكافرين، فيبغضونهم، ويعادونهم، ويقاتلونهم؛ لأنهم يبغضونهم في الله عَزَّوَجَلَّ.

رابعًا: أنهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: يبذلون أنفسهم وأموالهم لأجل إرضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولأجل إعلاء كلمته.

وكون المسلم يبذل نفسه في سبيل الله، ويُعرض حياته للموت والخطر، ويدخل المعركة بالسلاح؛ فإن هذا دليل على صدق محبته لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يحب الله أكثر مما يحب نفسه؛ ولذلك قدم نفسه لله.

خامسًا: أنهم لَا ﴿يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ لأنهم سيلقون من ينتقصهم ومن يلومهم، ومن يتكلم فيهم، ويستخف عقولهم، ولكن لا يلتفتون إليه، ولا تأخذهم في الله لومة لائم.

سادسًا: أن يقدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه.

هذه صفات أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلامات الذين يحبونه حقًّا.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١][١].

الشَّرْح

[١] ادعى قوم -كاليهود والنصارى- أنهم يحبون الله، وقالت اليهود والنصارى: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة:١٨]، فامتحنهم الله في هذه الآية، فقال: ﴿ قُلْ ﴾ -أي: أيها الرسول- لمن يدعون محبة الله: ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]، فهذه الآية تسمى آية الامتحان، فقد امتحنهم الله عَزَّوَجَلَّ، فهم يدعون أنهم يحبون الله، ولكنهم لايتبعون محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يؤمنون به، فكان قولهم باطلًا، وهذا ينطبق على كل من يدعي محبة الله، وهو يخالف الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كثير من أوامره ونواهيه، ويتقرب إلى الله بالبدع والمحدثات، فهذا دليل على أنه كاذب في دعوى محبته لله عَزَّوَجَلَّ، إذا كان لا يتبع رسوله.

علامات محبة الله تعالى:

العلامة الأولى: التوحيد وإخلاص العبادة له، فمن أحب الله عَزَّوَجَلَّ؛ أخلص له العبادة، ولم يشرك به شيئًا، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

العلامة الثانية: أن يتبع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه رسول الله إلى البشرية والناس عامة، فمن يدعي أنه يحب الله، ويكفر بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كذاب في دعوى محبته لله.

العلامة الثالثة: أن يقدم ما يحبه الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما تحبه نفسه، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ [التوبة:٢٤]؛ أي: انتظروا العقوبة. فهذه علامات محبة الله.

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١] ذكر علامة محبة الله، وذكر ثمرتها؛ أما علامتها، فهي اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما ثمرتها، فهي قوله تعالى: ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١].

فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّ اللهَ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا يُحِبهُ اللهُ[١] وَيُخْبِرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ بِهِ؛ فَمَنْ كَانَ مُحِبًّا للهِ، لَزِمَ أَنْ يَتْبَعَ الرَّسُولَ، فَيُصَدِّقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَيُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَيَتَأَسَّى بِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَمَنْ فَعَلَ هَذَا، فَقَدْ فَعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ؛ فَيُحِبُّهُ اللهُ[٢].

الشَّرْح

[١] فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم فيما يبلغ عن الله، لا يأتي بشيء من عنده، فهو معصوم في الرسالة والتبليغ؛ فلذلك كان اتباعه علامة على محبة الله؛ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، لا يفعل ذلك لهوى نفسه أو لأغراضه، وإنما هو كله لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم فيما يبلغه عن الله؛ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، أما غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيمكن أن يأمر بغير ما يأمر الله به، وينهى عن غير ما نهى الله عنه، ويكون هذا لغرض من أغراضه ولشهوة من شهواته، أما الرسول، فهو معصوم من ذلك، (وَيُخْبِرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ بِهِ).

[٢] علامات محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الأولى: (فَمَنْ كَانَ مُحِبًّا للهِ، لَزِمَ أَنْ يَتْبَعَ الرَّسُولَ، فَيُصَدِّقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ)، فقد أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمور غائبة في الماضي والمستقبل، فلابد أن يصدق

ذلك؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، فالذي يشكك في أخبار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابتة كافر بالله عَزَّوَجَلَّ.

الثانية: أن يطيعه فيما أمر، يطيع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمر به؛ لأنه لايأمر إلا بما أمر الله به.

الثالثة: أن تكون محبته للرسول مقدمة على محبته لكل شيء.

الرابعة: أن (يَتَأَسَّى بِهِ فِيمَا فَعَلَ)، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]؛ أي: قدوة، فهو القدوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الخامسة: أن لا يعبد الله إلا بما شرعه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيجتنب البدع والمحدثات في العبادة، فالذين يحدثون البدع والموالد، ويدعون أنهم يحبون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاذبون في دعواهم؛ لأنهم فعلوا ما نهى عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البدع.

فَجَعَلَ اللهُ لِأَهْلِ مَحَبَّتِهِ عَلَامَتَيْنِ: اتِّبَاعَ الرَّسُولِ؛ وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ[١].

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَادَ حَقِيقَتُهُ الِاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ[٢]، وَمِنْ دَفْعِ مَا يَبْغُضُهُ اللهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤][٣].

الشرح

[١] قوله: (فَجَعَلَ اللهُ لِأَهْلِ مَحَبَّتِهِ عَلَامَتَيْنِ):

الأولى: (اتِّبَاعَ الرَّسُولِ)؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١].

والثانية قال: (وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ)؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

[٢] الجهاد: بذل الوسع فيما يحبه الله، وهو أنواع:

الأول: جهاد النفس.

الثاني: جهاد الشيطان.

الثالث: جهاد العصاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الرابع: جهاد المنافقين؛ برد شبهاتهم وإبطال دعواهم.

الخامس: جهاد الكفار بالسلاح وخوض المعارك، فمن قام بما يستطيع من هذه الأنواع، فهو المؤمن الإيمان الصادق.

[٣] هذه من علامات محبة الله التي سبق بيانها: أن يقدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه.

ولما تأخر قوم عن الهجرة في سبيل الله -شحًا ببلادهم، وأولادهم، وأزواجهم، ومساكنهم، وتجارتهم-، عاتبهم الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤]، هذه الثمانية يحبها الإنسان بطبيعته، ولا يلام على ذلك، ولكن يلام إذا قدم محبتها على محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى ما يحبه الله، فإن كانت هذه الأمور أحب إليكم من الله ورسوله، فقصرت بكم عن الجهاد في سبيل الله وعن الهجرة، فهذا دليل على نقص محبة الله، أو على عدم تحققها، قال الله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾، وهذا تهديد لهم.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وعيد لهم بالعقوبة.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[(١)]، فبعد محبة الله تأتي محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتكون محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقدمة على محبة كل مخلوق؛ حتى أقرب الأقربين إلى الإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٧٠) (٤٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَتَوَعَّدَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ، بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

وَفِي الصَّحِيحِ: عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ قَالَ لَهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي: فَقَالَ: «لَا يَا عُمَرُ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ: فَوَاللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ: «الْآنَ يَا عُمَرُ»(٢) [١].

فَحَقِيقَةُ المَحَبَّةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِمُوَالَاةِ المَحْبُوبِ، وَهُوَ مُوَافَقَتُهُ فِي حُبِّ مَا يُحِبُّ، وَبُغْضِ مَا يَبْغُضُ، وَاللهُ يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، وَيَبْغُضُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ[٢].

الشَّرْح

[١] فلا يؤمن العبد حتى يكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من نفسه، ومن ولده، ومن والده والناس أجمعين، ولذلك تجد المؤمنين يبذلون أنفسهم في سبيل الله؛ يقاتلون ويقتلون؛ لأن محبة الله أغلى عليهم من محبتهم لأنفسهم، ونصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغلى عليهم من محبتهم لأنفسهم.

[٢] المؤمن يحب هذه الأعمال؛ يحب الإيمان، والبر، والتقوى؛ لأن الله يحب هذه الأعمال، والمؤمن يحب ما يحبه الله.

---

(١) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحُبَّ يُحَرِّكُ إِرَادَةَ الْقَلْبِ[١]، فَكُلَّمَا قَوِيَتْ الْمَحَبَّةُ فِي الْقَلْبِ طَلَبَ الْقَلْبُ فِعْلَ الْمَحْبُوبَاتِ، فَإِذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ تَامَّةً اسْتَلْزَمَتْ إِرَادَةً جَازِمَةً فِي حُصُولِ الْمَحْبُوبَاتِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ قَادِرًا عَلَيْهَا حَصَّلَهَا، وَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْهَا فَفَعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ الْفَاعِلِ[٢]؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١)[٣].

الشَّرْح

[١] محبة الله عَزَّوَجَلَّ هي أعظم أنواع العبادة، وهي أساس العبادات كلها؛ فإن المؤمن إذا أحب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تحرك في طاعته، وترك المحرمات.

والجوارح والجسم تبع للقلب، فإذا أحب القلب الله عَزَّوَجَلَّ، وأحب رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تحرك جسمه وجوارحه في طاعة الله ورسوله، وأقدم على ذلك، أما إذا لم يكن في القلب محبة لله ولرسوله، فإنه لا يتحرك في طاعة الله عن رغبة ونشاط.

[٢] قد يعجز الإنسان -الذي يحب الخير، ويحب ما يحبه الله ورسوله- عن فعل كل ما يحبه الله ورسوله، فإذا عجز، وهو ينوي لو امتلك القدرة، لفعل ذلك، كتب الله له أجر من فعله، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ،

(١) أخرجه مسلم (١٦) (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»(١)، قال هذا وهو في غزوة تبوك، وهم الذين أقعدهم المرض، وأقعدهم الفقر، ولم يخرجوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة، وقد ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٩١]، أخبر عنهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم يسيرون مع المجاهدين وهم في المدينة، ما قطعوا واديًا إلا وهم معهم بنياتهم وعزائمهم؛ فنالوا مثل أجر المجاهدين بالنية الطيبة.

[٣] وقد ينال مثل أجر العامل إذا كان قد دعا إلى هدى، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»، وهذا في الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واستجاب له من استجاب، فإنه يكتب له مثل أجور من تبعه إلى يوم القيامة، وفي مقدمتهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يكتب له مثل أجور أمته من أول الأمة إلى آخرها، وعلى العكس -والعياذ بالله- من دعا إلى ضلالة، فإنه يكون عليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة، فدعاة الضلال يحملون مثل أوزار من تبعهم، قال الله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل:٢٥]، فيكتب عليهم من الإثم مثل إثم من اقتدى بهم إلى يوم القيامة، فالإنسان يكون قدوة؛ إما في الخير، وإما في الشر.

---

(١) سيأتي تخريجه (ص٢٩١).

وَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(١).

وَ«الْجِهَادُ» هُوَ بَذْلُ الْوُسْعِ -وَهُوَ الْقُدْرَةُ- فِي حُصُولِ مَحْبُوبِ الْحَقِّ وَدَفْعِ مَا يَكْرَهُهُ الْحَقُّ، فَإِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ، كَانَ دَلِيلًا عَلَى ضَعْفِ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي قَلْبِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَحْبُوبَاتِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهَاتِ[١]، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحَبَّةً صَالِحَةً أَوْ فَاسِدَةً، فَالْمُحِبُّونَ لِلْمَالِ وَالرِّئَاسَةِ وَالصُّوَرِ لَا يَنَالُونَ مَطَالِبَهُمْ إِلَّا بِضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْمُحِبُّ للهِ وَرَسُولِهِ إِذَا لَمْ يَحْتَمِلْ مَا يَرَى ذُو الرَّأْيِ مِنَ الْمُحِبِّينَ لِغَيْرِ اللهِ مِمَّا يَحْتَمِلُونَ فِي حُصُولِ مَحْبُوبِهِمْ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى ضَعْفِ مَحَبَّتِهِمْ للهِ إِذَا كَانَ مَا يَسْلُكُهُ أُولَئِكَ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي يُشِيرُ بِهِ الْعَقْلُ[٢].

الشَّرْح

[١] فلا يحصل المحبوب عفوًا؛ بل لابد من تحمل المكروه في سبيله، فالجنة محبوبة، ولكن لا تحصل إلا بتحمل المشاق، والعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، والإنفاق، والأعمال الصالحة، فالمحبوب لا ينال إلا بتحمل المكاره؛ ولهذا جاء في الحديث: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٩١١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (١) (٢٨٢٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٢] فلا أحد يدعي أنه يحب الله، ويحب رسول الله؛ إلا بأن يتحمل في سبيل ذلك ما تكرهه نفسه وما يشق عليه؛ كما أن المحبين لغير الله يتحملون في سبيل محبوبهم ما يشق عليهم، فيبذلون أنفسهم وأموالهم دون معبوداتهم؛ لأنهم يحبونهم حبًّا شديدًا.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَشَدُّ حُبًّا للهِ[١]؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

نَعَمْ، قَدْ يَسْلُكُ الْمُحِبُّ لِضَعْفِ عَقْلِهِ وَفَسَادِ تَصَوُّرِهِ طَرِيقًا لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَطْلُوبُ، فَمِثْلُ هَذِهِ الطَّرِيقِ لَا تُحْمَدُ، إذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ صَالِحَةً مَحْمُودَةً، فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ فَاسِدَةً وَالطَّرِيقُ غَيْرَ مُوَصِّلٍ؟! كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَهَوِّرُونَ فِي طَلَبِ الْمَالِ، وَالرِّئَاسَةِ، وَالصُّوَرِ فِي حُبِّ أُمُورٍ تُوجِبُ لَهُمْ ضَرَرًا[٢]، وَلَا تُحَصِّلُ لَهُمْ مَطْلُوبًا، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ الطُّرُقُ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْعَقْلُ لِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْقَلْبُ حُبًّا للهِ، ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، وَكُلَّمَا ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، ازْدَادَ لَهُ حُبًّا، وَفَضَّلَهُ عَمَّا سِوَاهُ[٣].

الشَّرْح

[١] المؤمنون أشد حبًّا لله؛ لأنهم يحبونه محبة خالصة، ليس فيها شرك، أما المشركون، فهم يحبون الله، ولكن يشركون معه غيره في المحبة، فمحبتهم لله غير خالصة؛ ولذلك صار المؤمنون أشد حبًا لله من المشركين؛ لأن محبة المؤمنين لله خالصة، ومحبة المشركين له غير خالصة.

[٢] الذين يحبون المال والصور الجميلة من النساء يبذلون في سبيل محبوبهم كل ما يستطيعون.

فالمبتدعة يزعمون أنهم يحبون الله، ولكنهم يتقربون إليه بما يكره، وما لم يشرعه من البدع، فالله جَلَّوَعَلَا شرع شريعة، والذي يحب الله يتمسك بهذه

الشريعة، ويتقرب إليه بما شرعه، وأما إذا ادعى أنه يحب الله، ولكن لا يعمل بشرعه، وإنما يعمل بالبدع والمحدثات، فهذا لا ينفعه عمله، بل يبعده عن الله عَزَّوَجَلَّ، ويعذب بذلك، وهو تعب عليه بما يضره.

[٣] (**وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْقَلْبُ حُبًّا للهِ، ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، وَكُلَّمَا ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، ازْدَادَ لَهُ حُبًّا، وَفَضَّلَهُ عَمَّا سِوَاهُ**)، فالمحبة لله تحرك للعمل لله، وكذلك المحبة لغيره تحرك على العمل لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فالمحبة للشيء هي الباعث على تحمل المشقة في تحصيله.

وَالْقَلْبُ فَقِيرٌ بِالذَّاتِ إِلَى اللهِ مِنْ «وَجْهَيْنِ»: مِنْ جِهَةِ الْعِبَادَةِ وَهِيَ الْعِلَّةُ الْغَائِيَّةُ، وَمِنْ جِهَةِ الِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ، وَهِيَ الْعِلَّةُ الْفَاعِلِيَّةُ.

فَالْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يَفْلَحُ، وَلَا يَلْتَذُّ، وَلَا يُسَرُّ، وَلَا يَطِيبُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ، وَلَمْ يَسْكُنْ، إِذْ فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِيٌّ إِلَى رَبِّهِ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ، وَمَحْبُوبُهُ، وَمَطْلُوبُهُ وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْفَرَحُ، وَالسُّرُورُ، وَاللَّذَّةُ، وَالنِّعْمَةُ، وَالسُّكُونُ، وَالطُّمَأْنِينَةُ.

وَهَذَا لَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللهِ لَهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ لَهُ إِلَّا اللهُ، فَهُوَ دَائِمًا مُفْتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥][١].

الشَّرْح

[١] أي: قلب المؤمن فقير إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من وجهين:

الوجه الأول: أنه مفتقر إلى العبادة؛ لأن العبادة هي الغاية التي خلق من أجلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فلا يستغني عن عبادة الله بحال، ولذلك (فَالْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يَفْلَحُ، وَلَا يَلْتَذُّ، وَلَا يُسَرُّ، وَلَا يَطِيبُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ)، فقلب المؤمن لا يطمئن، ولا يسكن إلا بعبادة ربه؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، فلا يطمئن المؤمن إلى شيء، إلا إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما بقية الأمور -وإن مال إليها-، فإنه لا يطمئن إليها، ولهذا

قال: (**وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ المَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ، وَلَمْ يَسْكُنْ**)؛ أي: لو حصلت له كل الملذات الدنيوية -من الملك، والمال، والولد، والصحة، والعافية، وأنواع المأكولات والمشروبات-، فإنه لا يطمئن قلبه إليها؛ لأنها على سبيل الزوال، ولا يبقى إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما أريد به وجهه، والسبب في ذلك:

أنه (فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِيٌّ إِلَى رَبِّهِ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ، وَمَحْبُوبُهُ، وَمَطْلُوبُهُ)؛ ولذلك تجد المؤمن مطمئنًا منشرح الصدر على أية حال كان؛ لأنه متعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتجد غير المؤمن في قلق، وفي هم، وفي خوف، فتجد الكفار وإن كانوا أعطوا من الدنيا وزهرتها إلا أنهم في هم، وفي قلق، وفي خوف، ولا يرتاحون، ولا يتلذذون بما في أيديهم من متاع الدنيا؛ لأنهم حرموا من عبادة الله ومعرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الوجه الثاني: أنه (دَائِمًا مُفْتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥])، فالعبادة هي الغاية، والاستعانة هي الوسيلة والموصلة إلى العبادة، فلو لم يعنك الله، لم تستطع أن تعبده؛ ولهذا من أفضل الذكر: (لا حول ولا قوة إلا بالله).

فَإِنَّهُ لَوْ أُعِينَ عَلَى حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ وَيَطْلُبُهُ وَيَشْتَهِيهِ يُرِيدُهُ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ عِبَادَتُهُ للهِ بِحَيْثُ يَكُونُ هُوَ غَايَةَ مُرَادِهِ وَنِهَايَةَ مَقْصُودِهِ وَهُوَ المَحْبُوبُ لَهُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ [١].

الشَّرْح

[١] فمتى لم يحصل له هذا، لم يكن قد حقق حقيقة «لا إله إلا الله»، فالإعانة من الله إذا كانت على أمور الدنيا ومطامعها، فإنها لا تغني عن العبد شيئًا، أما إذا كانت الإعانة للعبد من الله جَلَّوَعَلَا على عبادته، فهذا هو السعيد في الدنيا والآخرة، المطمئن الواثق من ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فالعبد لا يحصل على الراحة والطمأنينة، إلا بعبادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأما إذا لم يوفق لعبادة الله وحده؛ فإنه لن يطمئن، ولن يرتاح أبدًا، وحينئذ يكون قد فقد أصل الطمأنينة وأصل الراحة، والدنيا لايطمئن إليها، ولايركن إليها المؤمن؛ لأنها تزول، والأصحاب والأعوان والجنود كذلك إلى زوال، ولا يبقى إلا ما بين العبد وبين ربه؛ لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الذي تألهه القلوب، وتحبه، وتلتذ بطاعته، وتأنس بقربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهذه كلها فوائد العبودية وثمراتها ونتائجها.

وَكُلُّ مَا سِوَاهُ إِنَّمَا يُحِبُّهُ لِأَجْلِهِ[١] لَا يُحِبُّ شَيْئًا لِذَاتِهِ إِلَّا اللهَ[٢]، فَمَتَى لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ حَقَّقَ حَقِيقَةَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَلَا حَقَّقَ التَّوْحِيدَ، وَالْعُبُودِيَّةَ، وَالْمَحَبَّةَ، وَكَانَ فِيهِ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ، بَلْ مِنَ الْأَلَمِ، وَالْحَسْرَةِ، وَالْعَذَابِ بِحَسَبِ ذَلِكَ[٣].

الشَّرْح

[١] أي: ما سوى الله فلا يحبه لذاته، وإنما يحبه لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا كان محبوبه من عباد الله المؤمنين، فإنه يحبه لأجل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٢] أي: لا يحب شيئًا من الأشياء لذاته، إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وأما غير الله، فإنه لا يحب لذاته، وإنما يحب لغرض من الأغراض، وحاجة من الحوائج.

[٣] إذا فقد العبد الطمأنينة والأنس بالله، فإنه لم يحقق «لا إله إلا الله»؛ لأن معنى «لا إله إلا الله»؛ أي: لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإله معناه: المحبوب، وعبادة الله هي التي تحصل بها الطمأنينة والراحة واللذة والسرور، والصبر والاحتساب والثبات، ومعنى «لا إله إلا الله»: لا معبود بحق إلا الله، وكل معبود سوى الله، فعبادته باطلة؛ لأن هناك معبودات غير الله، وآلهة غير الله، ولكن كلها باطلة، وكلها حسرة على أصحابها، وكلها يوم القيامة يكون بينها وبين عابديها بغض وبراءة وتحسر؛ كما ذكر الله ذلك، وأنه يلعن بعضهم بعضًا، فكل هذا يزول، ولا يبقى إلا الله وما أريد به وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالمسلم يعرف ذلك، ويعرف ثمرة العبادة؛ فالعبادة ليست عادة من العادات، أو تقليدًا من التقاليد -كما يقول الذين لا يجدون لذة العبادة ولا فائدتها-، بل العبادة نعمة عظيمة، يرتاح بها المؤمن في حياته، فإن أصابته سراء، شكر الله، وإن أصابته ضراء، صبر؛ احتسابًا لوجه الله، فهو لا تضيره الحوادث والنكسات التي تأتي على الناس؛ لأنه واثق بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لن يصيبه شيء إلا من صالحه؛ إما تمحيصًا لذنوبه، وإما زيادة في حسناته، وإما تنبيهًا له؛ ليتوب.

وَلَوْ سَعَى فِي هَذَا المَطْلُوبِ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعِينًا بِاللهِ، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ فِي حُصُولِهِ، لَمْ يَحْصُلْ لَهُ؛ فَإِنَّ مَا شَاءَ اللهُ، كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ، لَمْ يَكُنْ، فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ المَطْلُوبُ المَحْبُوبُ المُرَادُ المَعْبُودُ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ المَسْؤُولُ المُسْتَعَانُ بِهِ المُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِلَهُهُ لَا إِلَهَ لَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ رَبُّهُ لَا رَبَّ لَهُ سِوَاهُ[١].

وَلَا تَتِمُّ عُبُودِيَّتُهُ للهِ إِلَّا بِهَذَيْنِ، فَمَتَى كَانَ يُحِبُّ غَيْرَ اللهِ لِذَاتِهِ أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِ اللهِ أَنَّهُ يُعِينُهُ، كَانَ عَبْدًا لِمَا أَحَبَّهُ، وَعَبْدًا لِمَا رَجَاهُ؛ بِحَسَبِ حُبِّهِ لَهُ وَرَجَائِهِ إِيَّاهُ[٢].

الشَّرْح

[١] فلو أنه أراد أن يعبد الله، ولكنه لا يستعين بالله؛ فإنه لن يحصل على مطلوبه؛ لأنه لا يعينه على العبادة، ويمكنه منها، وييسرها له، ويقويه عليها، ويرغبه فيها إلا الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

[٢] من التفت إلى غير الله، وظن أنه ينفعه، وأنه يدفع عنه الضرر، فإن هذا الغير لن ينفعه، وإنما يكون حسرة عليه؛ ولذلك المسلم لا يحب إلا لله، ولايبغض إلا لله، ولا يوالي إلا في الله، ولا يعادي إلا في الله، ولايتوكل إلا على الله، فلا غنى بالعبد عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولايعينه على طاعته وعبادته إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وهناك أسباب جعلها الله تعين، ولكنها ليست الإعانة المطلقة، وإنما هي أسباب قد تفيد، وقد لاتفيد.

فمن أحب الله، وأحب في الله ولله، فهو الذي وفق لعبادة ربه، والاتصال بربه، أما إذا كان يحب لغير الله، ويرجو غير الله، ويتعلق بغير الله، فإن الله يكِله لغيره، وفي الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»[1]، فمن تعلق بالله، كفاه الله، والله حسبه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، ومن توكل على غير الله، واعتمد على غير الله؛ فإن الله يكله إلى غيره، وكل ما سوى الله، فهو عاجز وفقير.

فمعنى العبودية: أن يعلق الإنسان أموره بالله. فعلق أمورك وأطماعك ورجاءك وخوفك ومحبتك بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وخذ بالأسباب النافعة المفيدة التي تعينك على ذلك.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٠)، والترمذي (٢٠٧٢)، والحاكم (٤/ ٢١٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٥) من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا.

وَإِذَا لَمْ يُحِبَّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللهَ، وَكُلَّمَا أَحَبَّ سِوَاهُ، فَإِنَّمَا أَحَبَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَرْجُ قَطُّ شَيْئًا إِلَّا اللهَ، وَإِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنْ الْأَسْبَابِ، أَوْ حَصَّلَ مَا حَصَّلَ مِنْهَا، كَانَ مُشَاهِدًا أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَقَدَّرَهَا ، وَسَخَّرَهَا لَهُ[١]، وَأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللهُ رَبُّهُ، وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُهُ، وَمُسَخِّرُهُ[٢]، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَمَامِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ بِحَسَبِ مَا قُسِمَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ[٣].

الشَّرْح

[١] فالأسباب لابد أن يعتقد أن الله هو الذي خلقها؛ فهو مسبب الأسباب، هو الذي خلق هذه الأسباب، وأوجدها؛ لتستعين بها، وتستعملها في طاعته، فهي فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٢] أي: إذا اعتقد العبد أن كل ما في السماوات والأرض من عبيد الله ومخلوقات الله، وأنها بيد الله؛ يتصرف فيها، فهذا هو الذي عرف الحقيقة، وعرف ربه، وعرف حكمته فيما يجري في هذا الكون، أما من يعتقد أن هذه المخلوقات مستقلة بالتأثير، وأن الحوادث طبيعة -كما يقولون-، فهذا لم يعرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما يعرف هذه الأشياء، يظنها أنها هي الفاعلة، مع أنها أسباب فقط، وليست هي الفاعلة والموجدة، فكل ما في السماوات والأرض، ومن في السماوات والأرض إنما هم خلق الله وعبيده، يدبرهم، ويسخرهم لك؛ يخدمونك وينفعونك، وإذا عصيت الله، سلطهم عليك، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح:٤]، فيسلط عليك هذه المخلوقات، وكل شيء بيد الله، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ

﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، كل شيء بيد الله، فلماذا تلتفت عن الله، وتطلب من غير الله طلب اعتماد على غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! علق قلبك بالله عَزَّوَجَلَّ، واعلم أن كل شيء بيده، وكل شيء مطيع لله؛ إما طاعة اختيارية، وإما طاعة اضطرارية، حتى الكفار والشياطين كلهم يطيعون أقدار الله فيهم وفي غيرهم؛ لأنهم عبيده، فهم يطيعونهم طاعة اضطرارية، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:٨٣].

وأما المؤمن، فإنه يطيع الله طاعة اختيارية: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة:١١٦]، كل الكون بما فيه الجن والشياطين، وكل شيء كلهم بيد الله، مسخرون مطيعون لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة:١١٦].

[٣] أي: إذا عرف أن كل شيء في الكون هو بيد الله، وأنهم خلقه وعبيده، فإذا عرف أن الله هو الرب المدبر للكون وما فيه؛ فعبده وحقق العبودية لله، (بِحَسَبِ مَا قُسِمَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ)؛ أي: بحسب ما قسم له من معرفة ذلك، فقد يكون الإنسان عنده قصور في المعرفة، فالناس يتفاوتون في ذلك، فكل يحصل له من العبودية بقدر ما يدرك من هذه الأمور.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ لَا يُحْصِي طَرَفَيْهَا إِلَّا اللهُ[١].

فَأَكْمَلُ الخَلْقِ، وَأَفْضَلُهُمْ، وَأَعْلَاهُمْ، وَأَقْرَبُهُمْ إِلَى اللهِ، وَأَقْوَاهُمْ، وَأَهْدَاهُمْ: أَتَمُّهُمْ عُبُودِيَّةً للهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ للهِ لَا لِغَيْرِهِ[٢].

الشَّرْح

[١] ولهذا قال: (وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ)، فمنهم من يحصل له الشيء الكثير من المعرفة لهذه الحقائق، ومنهم من لا يحصل له شيء -وهو الملحد والكافر-، ومنهم من يحصل له بعض الشيء.

فأنت إذا نظرت في الناس، عرفت أنهم متفاوتون في الإدراك ومعرفة حقيقة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، وحقيقة الكون، ولهذا لما هددوا نبي الله هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بآلهتهم، قال متحديًا لهم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود:٥٤-٥٦]، فهو رجل واحد هدد دولة عاتية قوية، فكانت النتيجة أن الله نجاه، وأهلك هذه الأمة العاتية عن آخرها، وهم يقولون: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود:٥٣]، فهذه أعظم آية ومعجزة كبيرة؛ أنه تحداهم هذا التحدي، وعندهم

القوة، ولم يستطيعوا أن يصلوا إليه بقوتهم وجبروتهم، وهو يقول لهم: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٥-٥٦].

[٢] فالإسلام معناه: الاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله[١]، هذا معنى الإسلام الذي شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الإسلام الاختياري، أما الإسلام الاضطراري المذكور في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:٨٣]، فهو إسلام اضطراري؛ معناه: أنهم تنفذ فيهم أقداره الكونية، ولايستطيعون ردها والتخلص منها.

(١) هذا هو الأصل الثاني من هذه الرسالة -ثلاثة الأصول-، وانظر: الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٢٠٧، ٢٨٤)، ولوامع الأنوار البهية (١/ ٤٢٨- ٤٢٩).

فَالْمُسْتَسْلِمُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مُشْرِكٌ[١]، وَالْمُمْتَنِعُ عَنْ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ مُسْتَكْبِرٌ[٢]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ؛ كَمَا أَنَّ النَّارَ لَا يَخْلُدُ فِيهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»(١)، فَجَعَلَ الْكِبْرَ مُقَابِلاً لِلْإِيمَانِ[٣]، فَإِنَّ الْكِبْرَ يُنَافِي حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ[٤].

الشَّرْح

[١] (فَالْمُسْتَسْلِمُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مُشْرِكٌ)؛ أي: المستسلم لله ولغيره من الأصنام مشرك بالله.

[٢] (وَالْمُمْتَنِعُ عَنْ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ مُسْتَكْبِرٌ) عن عبادته.

فالناس منهم:

- من يستسلم لله وحده، وهذا هو المؤمن.
- من يستسلم لله ولغيره، وهذا مشرك.
- من لا يستسلم لله أصلًا، وهذا مستكبر على الله، وعاقبة المستكبر كما جاء في الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»؛ من كبر المشركين، والمراد: الكبر الذي يمنع من عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فالمستكبر عن عبادة الله حرم الله عليه الجنة، وأما الكبر الذي لا يمنع من عبادة الله، فقد يكون في المؤمن شيء من الكبر، وهو كبيرة، ولكن لا يحرم من دخول

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧) (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجنة؛ كما أن الكبر الذي في المؤمن قد يعرضه لعذاب الله ودخوله النار، لكنه لا يخلد فيها.

[٣] أي: لأهل الإيمان، وهو الكبر الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

[٤] فالكبر الذي منع دخول الجنة هو الكبر الذي يقابل الإيمان، والله جَلَّوَعَلَا أخبر أن النار مثوى المتكبرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢].

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُه»(١) [١]، فَالْعَظَمَةُ وَالْكِبْرِيَاءُ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْكِبْرِيَاءُ أَعْلَى مِنْ الْعَظَمَةِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ، كَمَا جَعَلَ الْعَظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ[٢].

الشَّرْح

[١] فله الكبرياء على حق، وكبرياء بحق، أما كبرياء العبد، فهي كبرياء بغير حق، انظر الفرق بينهما، فالله جَلَّ وَعَلَا له الكبرياء، وهو الكبير المتعال؛ وهذا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحق، وأما العبد، فليس له حق في الكبرياء، فلا ينازع الله عَزَّ وَجَلَّ فيها، وكذلك التعاظم؛ فالإنسان يتعاظم في نفسه، ويرى أنه فوق الناس، وهو ما يغضب الله عليه؛ لأن العظمة حق لله جَلَّ وَعَلَا، فالإنسان يحقر نفسه، وكلما قوي إيمانه وعلمه، زاد تواضعه، وعرف قدر نفسه، فلا يتعاظم، ولا يتكبر.

[٢] الرداء يكون أعلى البدن، والإزار يكون أسفل البدن، هذا عند الناس، أما في حق الله، فالله أعلم بكيفيتهما.

(١) أخرجه مسلم (١٣٦) (٢٦٢٠) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**».

وَلِهَذَا كَانَ شِعَارُ الصَّلَوَاتِ، وَالْأَذَانِ، وَالْأَعْيَادِ هُوَ: التَّكْبِيرُ[١]، وَكَانَ مُسْتَحَبًّا فِي الْأَمْكِنَةِ الْعَالِيَةِ كَالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ(١) [٢]، وَإِذَا عَلاَ الإِنْسَانُ شَرَفًا(٢)، أَوْ رَكِبَ دَابَّةً(٣)، وَنَحْوَ ذَلِكَ[٣].

---

(١) كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل في صفة الحج الذي أخرجه مسلم (١٤٧) (١٢١٨)، وفيه: «...ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ، فَبَدَأَ بِالصَّفَا، فَرَقِيَ عَلَيْهِ، حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَوَحَّدَ اللهَ وَكَبَّرَهُ، وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ، قَالَ: مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ، حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي سَعَى، حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى، حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ، فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٣٨٥)، ومسلم (٤٢٨) (١٣٤٤) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَفَلَ مِنَ الْجُيُوشِ، أَوِ السَّرَايَا، أَوِ الْحَجِّ، أَوِ الْعُمْرَةِ، إِذَا أَوْفَى عَلَى ثَنِيَّةٍ أَوْ فَدْفَدٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**».

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٤٢٥) (١٣٤٢) قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَلِيًّا الْأَزْدِيَّ، أَخْبَرَهُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ عَلَّمَهُمْ؛ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ**»، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**».

وَبِهِ يُطْفَأُ الحَرِيقُ وَإِنْ عَظُمَ(١) [٤]، وَعِنْدَ الأَذَانِ يَهْرُبُ الشَّيْطَانُ(٢)[٥].

الشرح

[١] فالله أكبر من كل شيء، و«الله أكبر» أفعل تفضيل، فإذا قلت: (الله أكبر)، هان في نظرك وفي نفسك كل شيء سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والصلاة لا تصح إلا بافتتاحها بتكبيرة الإحرام، وقد ورد في الحديث: «**تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ**»(٣)، فتكبيرة الإحرام ركن، وبقية تكبيرات الانتقال للقيام والركوع والسجود واجبة.

(**وَالْأَذَانِ**) على رؤوس المنائر: الله أكبر؛ أي: من كل شيء، فكل شيء

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الدولابي في الكنى والأسماء (٣/ ١٠٨٨)، وابن حجر في المطالب العالية (١٤/ ١٣٤)، من حديث جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ.
وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٠٠١) (١/ ٣٠٧)، والأوسط (٨٥٦٩) (٨/ ٢٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٠٠٢) (١/ ٣٠٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (١/ ٢٥٦)، من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الحَرِيقَ فَكَبِّرُوا، فَإِنَّ التَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٢٢٢)، ومسلم (١٦) (٣٨٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا أُذِّنَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا سَكَتَ المُؤَذِّنُ أَقْبَلَ، فَإِذَا ثُوِّبَ أَدْبَرَ، فَإِذَا سَكَتَ أَقْبَلَ، فَلَا يَزَالُ، بِالمَرْءِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى لَا يَدْرِيَ كَمْ صَلى**».

(٣) أخرجه ابو داود (٦١)، والترمذي (٣) وابن ماجه (٢٧٥)، وأحمد (١/ ١٢١٣) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ**».

حقير بالنسبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا أعلن هذا، فإنه لا يبقى في الدنيا كبير أبدًا فوق كبرياء الله، أو مماثلًا لها.

(وَالْأَعْيَادِ): فيشرع التكبير يوم العيد، وليلة العيد، وفي أيام التشريق.

[٢] لأنه كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سار في الطريق، وعلا شرفًا، أو علا جبلًا -كالصفا والمروة-، أو علا مرتفعًا، كبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا نزل، سبح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالتسبيح يكون في الانخفاض[1]، والتكبير يكون في الارتفاع؛ حيث إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرفع وأعظم وأعلى من كل الموجودات، ولو كنت على أعلى جبل في الدنيا، أو أطول عمارة في الدنيا، فالله أعلى من كل شيء، وكذا لو كنت على مركبة فضائية، تخترق الأجواء، وترتفع، فالله أعلى وأرفع من كل شيء.

وإذا انخفضت، فإنك تنزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الانخفاض، فتقول: (سبحان الله على ذلك)؛ لأنه في العلو؛ ولهذا تقول: (سبحان ربي العظيم) في الركوع؛ لأن العظمة حق لله، فتنحني لله عَزَّوَجَلَّ، وتذل له، وتعظمه؛ ولهذا لا يجوز الانحناء ولا الركوع للمخلوق؛ لا انحناء التحية ولا غيره، فالركوع والانحناء يكون لله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك في السجود إذا صار وجهك أسفل شيء منك، فإنك تنزه الله جَلَّ وَعَلَا، فتقول: (سبحان ربي الأعلى)، فتنزهه عما سوى العلو.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٩٩٣)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا».

[٣] وكذلك يكبر الله إذا ركب دابة ونحوها -كسيارة أو باخرة أو طائرة-؛ فإنه يكبر الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٣].

[٤] أي: بالتكبير يطفأ الحريق، فهو من أسباب إطفاء الحريق؛ لأن الله أعظم من كل شيء، وقادر على أن يطفئ هذه النار، ولو عظمت.

[٥] لأنه ذكر لله، فيهرب الشيطان إذا سمع الأذان وله ضراط؛ إذ لا يطيق أن يسمع الأذان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠][١]، **وَكُلُّ مَنْ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ لَا بُدَّ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَهُ**[٢].

الشَّرْح

[١] فالذي لا يعبد الله يكون مستكبرًا، وجزاؤه جهنم، يدخلها صاغرًا بدلًا من أن يكون متكبرًا.

[٢] لأن الإنسان أصله عبد، فلابد أن يعبد شيئًا يشبع غريزته، فإما أن يعبد الله، وإما أن يعبد غيره؛ ولذلك تجد المشركين يعبدون أشياء تافهة، لاتليق بالعقول؛ حيث يعبدون البقر، ويعبدون الفروج، ويعبدون أشياء منحطة، حتى إن بعضهم يعبد التمرة التي معه، وإذا جاع أكلها، فيجعل له ربًّا من التمر، فإذا جاع، أكل ربه!؛ لأنه يحن إلى العبادة، فلايترك العبادة، ولكن إن وفق لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وضع العبادة في موضعها، وسعد في الدنيا والآخرة، وأما إذا عبد غير الله، فهو مشرك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ ﴾ [الحج:٣١]، فالموحد لله مرتفع؛ فإذا أشرك بالله، انحط، ولا يدري أين يقع؛ ﴿تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]؛ أي: بعيد عن الحق والصواب.

ولذلك يعبد المشركون آلهة متعددة لا حصر لها؛ لأنهم عبيد، ولابد لهم من العبادة، فمن لم يعبد الله، عبد غيره، فإذا قرأت تاريخ المشركين وأصنامهم، تعجبت من كونهم يعبدون هذه الأشياء، وينسون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

(١) سبق عزوه (ص٩١).

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَسَّاسٌ يَتَحَرَّكُ بِالْإِرَادَةِ[١]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»(١) [٢]؛ فَالْحَارِثُ الْكَاسِبُ الْفَاعِلُ[٣]، وَالْهَمَّامُ فَعَّالٌ مِنْ الْهَمِّ، وَالْهَمُّ أَوَّلُ الْإِرَادَةِ[٤]، فَالْإِنْسَانُ لَهُ إرَادَةٌ دَائِمًا، وَكُلُّ إرَادَةٍ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ تَنْتَهِي إلَيْهِ[٥]، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ مُرَادٍ مَحْبُوبٍ هُوَ مُنْتَهَى حُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ اللهُ مَعْبُودَهُ وَمُنْتَهَى حُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ[٦]، بَلْ اسْتَكْبَرَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُرَادٌ مَحْبُوبٌ يَسْتَعْبِدُهُ غَيْرُ اللهِ.

الشَّرْح

[١] هو يريد أن يفعل، فهو ليس جامدًا، بل خلقه الله متحركًا حساسًا، لابد أن يتحرك بشيء: فإما أن يتحرك بالحق، وإما أن يتحرك بالباطل.

[٢] كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ».

وأحب الأسماء إلى الله: عبد الله، وعبد الرحمن، فالإنسان إما حارث يعمل بالفعل، وإما همام يهم بالعمل، ويفكر في العمل.

[٣] أي: الذي يعمل.

[٤] أي: النية، فينوي أن يشتغل ثم يشتغل.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأبو داود -واللفظ له- (٤٩٥٠)، عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْجُشَمِيِّ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ، وَهَمَّامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ».

[٥] فالإرادة في الإنسان لا تبقى بلا نهاية، بل لابد أن تنتهي إلى مراد، تنفذ فيه إرادتها.

[٦] وذلك إما بالخير وإما بالشر، فالإنسان بطبيعته عبد: إما أن يعبد الله، أو يعبد الأشجار والأحجار والأصنام أو آلهة متعددة.

قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لأصحاب السجن -لما دعاهم إلى الله وهم مشركون-: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

فَيَكُونُ عَبْدًا لِذَلِكَ الْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ[١]: إِمَّا الْمَالُ، وَإِمَّا الْجَاهُ، وَإِمَّا الصُّوَرُ[٢]، وَإِمَّا مَا يَتَّخِذُهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ: كَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ، وَالْكَوَاكِبِ، وَالْأَوْثَانِ، وَقُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصَّالِحِينَ، أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ يَتَّخِذُهُمْ أَرْبَابًا، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ[٣].

الشَّرْح

[١] فمن استكبر عن عبادة الله، ابتلي بعبادة غير الله؛ حيث إنه لا يمكن أن يبقى من دون عبادة، وهذا شيء مشاهد وواقع قديمًا وحديثًا، وكل يعبد ما تتجه إليه إرادته.

[٢] أي: صور النساء والعشق والغرام والشهوات، فيكون عبدًا لشهوته.

[٣] وهذا من الانحطاط؛ أن يلجأ الإنسان العاقل إلى ميت فانٍ -يستغيث به، ويدعوه، ويتضرع إليه، ويذبح له، وينذر له، وهو ميت لا يملك لنفسه شيئًا-، أو إلى حي غافل عنه.

والله لم يأذن أن يعبد غيره؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ لأن العبادة حق لله، وكل الأنبياء دعوا إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، كل رسول يبعث بهذا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، هذا أساس دعوة الرسل؛ الأمر بعبادة الله، وترك عبادة ما سواه.

وَإِذَا كَانَ عَبْدًا لِغَيْرِ اللهِ يَكُونُ مُشْرِكًا، وَكُلُّ مُسْتَكْبِرٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ[١]؛ وَلِهَذَا كَانَ فِرْعَوْنُ مِنْ أَعْظَمِ الخَلْقِ اسْتِكْبَارًا عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَكَانَ مُشْرِكًا[٢]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٣-٢٤]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥][٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩][٤].

الشَّرْح

[١] خلق الله الإنسان لعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فإذا عبد غير الله، صار مشركًا، حتى ولو عبد الله وعبد معه غيره، صار مشركًا، فالكافر مستكبر عن عبادة الله التي خلق من أجلها، والاستكبار والشرك متلازمان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. فالمستكبر إما أن يكون مستكبرًا لا يعبد شيئًا، وإما أن يكون مستكبرًا مشركًا، يعبد غير الله، فيكون مستكبرًا مشركًا.

فالملاحدة ينكرون الرب في ظاهرهم، ويعترفون به في باطنهم، فكل عاقل يعرف أن هذا الكون لم يوجد نفسه، ولم يخلق نفسه، وإنما له خالق،

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، فكل عاقل يدرك ذلك، سواء اعترف به ظاهرًا وباطنًا، أو اعترف به باطنًا، وأنكره ظاهرًا؛ كفرعون وغيره من المستكبرين.

والمشركون لم يدعوا أن آلهتهم تخلق شيئًا، فقد تحداهم الله، فقال: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر:٤٠]، فلم يجيبوا.

[٢] كان مشركًا؛ لأنه ادعى الربوبية، فجعل نفسه شريكًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، مع أنه يعلم في قرارة نفسه أن لا رب إلا الله جَلَّ وَعَلَا، ولكن حمله الاستكبار والطغيان على أن جعل نفسه شريكًا لله في الربوبية.

وقصة فرعون مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذكرها الله في مواضع من القرآن للعبرة والعظة، ومن المواضع التي ذكرها الله فيها سورة «غافر»: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [غافر:٢٣]، والآيات هي: المعجزات، وسلطان؛ أي: حجة ظاهرة، ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٤]؛ جحدوا رسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ووصفوه بأنه ساحر، وأنه كذاب؛ استكبارًا؛ ولهذا قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر:٢٧]، فما منعهم من اتباع موسى إلا الكبر الذي منع فرعون، وإلا فهو يعلم في قرارة نفسه أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صادق، وأن الله هو الرب وحده؛ ولهذا قال له موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما جاءه بتسع آيات، ولم يؤمن بها: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ

هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤]، فهو يعلم في قرارة نفسه أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صادق، وهم يعلمون ذلك، وأن الله هو الرب وحده؛ ولهذا قال الله: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤]. ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾: ظاهرًا.

﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾: باطنًا.

والجحود إنما يكون لشيء معلوم.

[٣] فالله يطبع على قلب المتكبر؛ عقوبة له؛ فلا يقبل الحق بعدما وضحت له الأدلة والبراهين، ولم يؤمن.

[٤] قارون من قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صاحب المال والثروة، الذي طغى وتكبر بسبب ذلك، وفرعون: ملك مصر، وهامان: وزير فرعون الذي قال له: ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧]، يقول هذا من باب الكبر، وإلا فإنه يعلم أنه كاذب، وأنه لن يرقى إلى السماء، وفي هذا دليل على أن موسى أخبره أن الله في السماء، فهذا من أدلة علو الله فوق مخلوقاته، والآيات الدالة على ذلك أمامه واضحة، لكنه يريد أن يعلو في عيون قومه بكبريائه -نسأل الله العافية!

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، البينات: هي الحجج الواضحة.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾، فمنعهم الكبر من الإيمان بهذه الآيات.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت:٣٩]؛ أي: لم ينجوا من عذاب الله، ولم يخرجوا عن قبضة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا أحد يسبق الله ويفوت عليه، مهما بلغ من الجبروت، ومن العتو، فإنه في قبضة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا خروج له عنها، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤]، فلاأحد يسبق الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يفوت عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال:٥٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤]، وَقَالَ: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤][١].

الشَّرْح

[١] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص:٤-٥]، ذكر الله في أول سورة «القصص» بعضًا من جبروت فرعون، وذكر نشأة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبعثة الله له رسولًا لفرعون، وذكر ما عليه فرعون من الظلم والتسلط على عباد الله، وفيهم بنو إسرائيل ذرية الأنبياء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً ﴾ [القصص:٤] وهم: بنو إسرائيل، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص:٥-٦]، وقد تحقق كل هذا على يد موسى رسول الله وكليمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأهلك الله فرعون وقومه، ومكن لبني إسرائيل في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٧].

وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ[١]. وَقَدْ وُصِفَ فِرْعَوْنُ بِالشِّرْكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧][٢]. بَلْ الِاسْتِقْرَاءُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَعْظَمَ اسْتِكْبَارًا عَنْ عِبَادَةِ اللهِ كَانَ أَعْظَمَ إشْرَاكًا بِاللهِ[٣]؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ ازْدَادَ فَقْرُهُ وَحَاجَتُهُ إلَى الْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ: مَقْصُودُ الْقَلْبِ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ مُشْرِكًا بِمَا اسْتَعْبَدَهُ مِنْ ذَلِكَ.

الشَّرْح

[١] أي: ما قصه الله عن الجبابرة والطغاة؛ كقصة النمرود مع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقصة الكفار مع محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن مآل الطغاة والبغاة والمستكبرين واحد، وهو الخسار والبوار، وأن العاقبة للمتقين في كل زمان، ولكن هذا يحتاج إلى جهاد وإلى صبر، وإلى انتظار النصر من الله عَزَّوَجَلَّ وعدم اليأس، وإلا فالعاقبة للمتقين.

[٢] وفي قراءة «إلاهتك»؛ يعني: وعبادتك(١)، والإله هو: المعبود، فهم عبدوا فرعون، وأحبوه حب عبادة، واتخذوه ربًّا، وذلك شرك بالله؛ فهو أشرك نفسه مع الله جَلَّوَعَلَا، وقومه جعلوه شريكًا لله، وخوفوا فرعون من أن يسلبه إلهيته، لما دعاه وقومه إلى عبادة الله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٥٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٨)، وسنن سعيد بن منصور (٥/ ١٥١)، وتفسير البغوي (٢/ ١٨٩)، قال البغوي: «وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك (وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ) بكسر الألف، أي: عبادتك، فلا يعبدك؛ لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعْبُد» اهـ.

[٣] فمن تتبع الآيات وقصص الأمم فإنه يدله الاستقراء على أنه كلما كان العبد أشد تكبرًا، كان أعظم شركًا بالله عَزَّوَجَلَّ، فالكبر يحمل على الشرك.

وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ[١] إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَلَا يَكْرَهُ إِلَّا مَا يَبْغُضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ، وَلَا يُوَالِي إِلَّا مَنْ وَالَاهُ اللهُ، وَلَا يُعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَاهُ اللهُ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا للهِ، وَلَا يَبْغُضُ شَيْئًا إِلَّا للهِ، وَلَا يُعْطِي إِلَّا للهِ، وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا للهِ[٢]، فَكُلَّمَا قَوِيَ إِخْلَاصُ دِينِهِ للهِ، كَمُلَتْ عُبُودِيَّتُهُ وَاسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ يُبْرِئُهُ مِنْ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ[٣].

الشَّرْح

[١] أي: لا يستغني القلب عن الخلق، إلا إذا كان الله جَلَّوَعَلَا هو معبوده وحده لا شريك له، حينئذ يستغني عن غير الله عَزَّوَجَلَّ، ثم إذا ترك عبادة الله، وكله الله للخلق؛ لأنه بنفسه لا يستطيع أن يحقق ما يصبو إليه من الكبر، فلابد من الأعوان والأتباع والقوة، فهو يحتاج إلى الناس، لكن لو استغنى بالله، لأغناه الله عن جميع الخلق، وتولاه ونصره، وأعزه ورفعه في الدنيا والآخرة، ولذلك قال: (إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ).

[٢] هذا كمال العبودية لله عَزَّوَجَلَّ؛ أن يحب الله ويعبده، ثم يحب من يحبه الله، ويحب ما يحبه الله من الأعمال، ومن يحبه الله من الصالحين.

[٣] فإذا تحرر بعبادة الله وحده من الشرك، فإنه يتحرر من الكبر، ويتحرر من الشرك، ويكون عبدًا مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ، حينئذ يتولاه الله، ويعينه،

ويمده بنصره، ويجعل العاقبة له في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨].

وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى، وَالْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ[١].

الشرح

[١] (وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى، وَالْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ)، هما متلازمان، لكن يغلب أحدهما عند الأمتين: اليهود والنصارى.

أولًا: (وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى)، قال تعالى في النصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، فالنصارى أشركوا بالله؛ حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، والأحبار هم: العلماء، والرهبان هم: العباد[(١)]، واتخذوا المسيح -أيضًا- ربًّا وإلهًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وقد بين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله؛ حيث إنهم كانوا يحرمون عليهم الحلال، ويحلون لهم الحرام، فيطيعونهم في تحريم الحلال، وتحليل الحرام[(٢)].

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٤١٦- ٤١٧)، والقرطبي (٨/ ١١٩- ١٢٠).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: **«يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ»**، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، قَالَ: **«أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»**.

والتشريع حق لله دون غيره؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يحرم ويحلل، والتزام ذلك عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، فلا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما أحل الله، فمن أطاع المخلوقين فيما يحلون ويحرمون، وهو يعلم أنهم أحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، فهذا شرك أكبر؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فالشرك بدعاء المخلوقين وتشريع المخلوقين غالب على النصارى، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، ومثلهم الصوفية الذين اتخذوا شيوخهم وشيوخ الطريقة التي يتبعونها مشرعين لهم، ومثلهم القبورية الذين اتخذوا الأولياء والصالحين أربابًا ووسائط وشفعاء عند الله، ومثلهم أصحاب الأهواء الذين اتخذوا من أقوال العلماء سلمًا لما يريدون، ولو كانت هذه الأقوال مخالفة للدليل من الكتاب والسنة.

والأنبياء يطاعون؛ لأنهم مبلغون عن الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]، ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، والعلماء يطاعون فيما وافق الأنبياء، ولا تجوز عبادتهم، وإنما العبادة حق لله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة:٣١]، فما أمروا أن يعبدوا المسيح، ولا أن يعبدوا الأحبار والرهبان، ولا أن يعبدوا الأولياء والصالحين.

ثانيًا: (الْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ)، قال تعالى عنهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]، فكلما جاء اليهود رسول يخالف أهواءهم، استكبروا عن طاعته، فهم: إما أن يكذبوه، وإما أن يقتلوه.

ومثلهم من ينتقد علماء الشريعة الآن، ويقول: (لا كهنوت في الإسلام، وليس هناك أحد فوق النقد)، فهذا استكبار على العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

قَالَ تَعَالَى فِي النَّصَارَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، وَقَالَ فِي الْيَهُودِ: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾ [البقرة:٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾ [الأعراف:١٤٦][١].

الشَّرْح

[١] قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: إذا رأوا الدليل والبرهان، لم يقبلوه، والسبب هو الكبر، فبسببه يصرفهم الله عن آياته، فنتج عن ذلك ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ ﴾ الذي جاءت به الرسل، ﴿ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ ﴾ الذي جاء به طواغيتهم، ﴿ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا ﴾، والسبب: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٤٦-١٤٧]، فالله أخبر أنه سيصرف عن آياته الذين يتكبرون، فالذي يستكبر عن قبول الدليل يصرفه الله عن الانتفاع بالآيات،

وهذا شأن الكفار والملاحدة والمنافقين في كل وقت، وفي وقتنا هذا ظاهر على الذين يأخذون الباطل، ويتركون الحق، فإذا قيل لهم: (هذا كتاب الله، وهذه سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، صدوا، وأعرضوا، وإذا قيل لهم: (هذا ما عليه الغرب والحضارة)، فرحوا، وأخذوه؛ كما قال الشاعر[1]:

أَخَذْتُمْ عُلُومَ الْكُفْرِ شَرْعًا كَأَنَّمَا ... فَلَاسِفَةُ الْيُونَانِ هُمْ أَنْبِيَاؤُكُمْ

---

(١) هذا البيت قاله بعض علماء الهند في ذمّ من يشتغل بعلم الكلام والمنطق، مُعْرِضًا عن علم الحديث. وأول هذه القصيدة:

أَيَا عُلَمَاءَ الهِنْدِ طَالَ بَقَاؤُكُمْ ... وَزَالَ بِفَضْلِ اللهِ عَنْكُمْ بَلَاؤُكُمْ
رَجَوْتُمْ بِعِلْمِ الْعَقْلِ فَوْزَ سَعَادَةٍ ... وَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ يَخِيبَ رَجَاؤُكُمْ
فَلَا فِي تَصَانِيفِ الأَثِيرِ هِدَايَةٌ ... وَلَا فِي إِشَارَاتِ ابْنِ سِينَا شِفَاؤُكُمْ
وَلَا طَلَعَتْ شَمْسُ الهُدَى مِنْ مَطَالِعِ ... فَأَوْرَاقُهَا دَيْجُورُكُمْ لَا ضِيَاؤُكُمْ
وَلَا كَانَ شَرْحُ الصَّدْرِ لِلصَّدْرِ شَارِحًا ... بَلِ ازْدَادَ مِنْهُ فِي الصُّدُورِ صَدَاؤُكُمْ
وَيَازِغَةٌ لَا ضَوْءَ فِيهَا إِذَا بَدَتْ ... وَأَظْلَمَ مِنْهَا كَاللَّيَالِي ذَكَاؤُكُمْ
وَسُلَّمُكُمْ مِمَّا يَزِيدُ تَسَفُّلًا ... وَلَيْسَ بِهِ نَحْوَ الْعِلِيِّ ارْتِقَاؤُكُمْ
فَمَا عِلْمُكُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ بِنَافِعٍ ... فَيَا وَيْلَتِي مَاذَا يَكُونُ جَزَاؤُكُمْ

انظر: مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه (٤/ ٥٥٦).

وَلَمَّا كَانَ الْكِبْرُ مُسْتَلْزِمًا لِلشِّرْكِ، وَالشِّرْكُ ضِدُّ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ - قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨]، وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١١٦]- كَانَ الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ مَبْعُوثِينَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ، لَا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنْ الْآخِرِينَ.

قَالَ نُوحٌ: ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢]، وَقَالَ فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمًا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١]، وَقَالَ مُوسَى: ﴿ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾ [يونس:٨٤-٨٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [المائدة:٤٤]. وَقَالَتْ بِلْقِيسُ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤]. وَقَالَ: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١]. وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]. وَقَالَ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ

مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران:٨٣].

فَذَكَرَ إِسْلَامَ الْكَائِنَاتِ طَوْعًا وَكَرْهًا، لِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعَهَا مُتَعَبِّدَةٌ لَهُ التَّعَبُّدَ الْعَامَّ، سَوَاءٌ أَقَرَّ الْمُقِرُّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ، وَهُمْ مَدِينُونَ مُدَبَّرُونَ، فَهُمْ مُسْلِمُونَ لَهُ طَوْعًا وَكَرْهًا، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ[١].

الشَّرْح

[١] الإسلام الذي هو الخضوع لأقدار الله الكونية، فهو عام لجميع الخلق، وهو إسلام اضطراري، ولهذا قال الشيخ: (**لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ**)، فكل الخلق عباد لله -مؤمنهم وكافرهم-، ولكن منهم من هو عبد لله باختياره وطوعه، ومنهم من هو عبد لله بغير اختياره وطوعه، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

فالعبودية قسمان: عبودية عامة، يدخل فيها كل المخلوقات، وعبودية خاصة، وتكون للمؤمنين خاصة.

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ[١] وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَمَلِيكُهُمْ يُصَرِّفُهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ[٢]، وَهُوَ خَالِقُهُمْ كُلِّهِمْ وَبَارِئُهُمْ وَمُصَوِّرُهُمْ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ مَرْبُوبٌ، مَصْنُوعٌ، مَفْطُورٌ، فَقِيرٌ، مُحْتَاجٌ، مُعَبَّدٌ، مَقْهُورٌ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ[٣].

الشرح

[١] أي: لا قدرة تحول من حال إلى حال إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٢] هو رب جميع العالمين ربوبية عامة، ومليكهم؛ فلا أحد يخرج عن ربوبيته وعن ملكه، وإن كفر، وإن أشرك، وإن ألحد، لا يخرج عن كونه عبدًا لله العبودية العامة الاضطرارية.

[٣] فلا أحد خلقهم إلا الله، ولم يخلقوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، يعترفون بهذا، وأن أحدًا لم يخلقهم غير الله، ولو ادُّعِيَ أن أحدًا يخلق غير الله، لقيل له: أين ما خلقته؟ بَيِّنْهُ! كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر:٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

لما كان دين الكفار الشرك، كان جميع الأنبياء مبعوثين بدين الإسلام، الذي هو ضد الشرك، وهو الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فلا يأتي الأمر بالتوحيد، إلا مقرونًا به النهي عن الشرك؛ لأنه لا يصح التوحيد إلا بترك الشرك، فلا يكون إنسان موحدًا خالصًا ومشركًا في آن واحد، فهما ضدان لا يجتمعان.

فالمشركون كان عندهم عبادات؛ فبعضهم يتصدقون، ويصلون الأرحام، ويتقربون إلى الله، ولكن عندهم شرك يحبط هذا الأعمال.

والرسل كلهم جاءوا بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك:

١- قال تعالى عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

[يونس:٧٢]

٢- قال تعالى في حق إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[البقرة:١٣٠-١٣٢].

٣- قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام، فقال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

٤- قال تعالى عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

٥- وقال تعالى عن أهل التوراة: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة:٤٤].

فوصف النبيين من بني إسرائيل ومن اتبعهم أنهم مسلمون.

٦- قال تعالى عن بلقيس أنها قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل:٤٤].

٧- وقال عن الحواريين أتباع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١].

٨- وأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الدين الذي شرعه ويقبله من عباده هو الإسلام، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩].

فكل من اتبع رسولًا من رسل الله قبل بعثة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو مسلم، ولما بُعِثَ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صار الإسلام هو ما جاء به؛ فلا يقبل الله إلا ممن اتبعه، قال تعالى آمرًا له أن يعلن ذلك: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»(١)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي في سننه (٤٣٦)، وأبو يعلى (٤/ ١٠٢)، وعبدالرزاق في مصنفه (٦/ ١١٣)، وابن أبي شيبة (٢٦٤٢١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٠٠) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالإسلام -الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله- هو دين الرسل كلهم، وإن كانت شرائعهم تختلف بحسب حاجتهم، ولكن دينهم -وهو التوحيد- دين واحد، فكل من عبد الله بشريعة نبي في وقتها قبل أن تنسخ، فهو مسلم، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، فقد حصر الدين في الإسلام، وهو التوحيد وترك الشرك، وعبادة الله بما شرع، وهو دين جميع الأنبياء، فلا سبيل للنجاة إلا بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما شرع في كل وقت بحسبه.

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران:٨٣]، فاليهود والنصارى يبغون غير دين الله الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس كافة.

وَهُوَ وَإِنْ كَانَ قَدْ خَلَقَ مَا خَلَقَ بِأَسْبَابٍ، فَهُوَ خَالِقُ السَّبَبِ وَالْمُقَدِّرُ لَهُ[١]، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ كَافْتِقَارِ هَذَا، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ[٢] بِفِعْلِ خَيرٍ وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ بَلْ كُلُّ مَا هُوَ سَبَبٌ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ يُعَاوِنُهُ وَإِلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُ الضِّدَّ الَّذِي يُعَارِضُهُ وَيُمَانِعُهُ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ يُعَاوِنُهُ وَلَا ضِدٌّ يُنَاوِئُهُ وَيُعَارِضُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر:٣٨].

الشَّرْح

[١] فهو الخالق لكل شيء، وإن كان بعض الأشياء يوجد بأسباب؛ مثل: الولد يوجد بسبب الزواج والاتصال الجنسي، ولكن من الذي خلق وقدر الزواج، وخلق الولد؟ هو الله، فكم من متزوج ولا يرزق الأولاد؛ لأن الله لم يرد له ذلك، فالسبب وحده لا يكفي حتى يُقدر الله تأثيره، فهو مسبب الأسباب، وهو الذي خلق الأسباب والمسببات.

والأسباب -أيضًا- تحتاج إلى أسباب، ولا تستقل بالتأثير.

[٢] ولهذا قال الشيخ: (وَلَيْسَ فِي المَخْلُوقَاتِ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ) لإيجاد النتيجة المترتبة عليه، إلا بانضمام أسباب أخرى إليه، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

أما الله تعالى، فإنه لا يحتاج إلى من يعينه، ولا أحد يمانعه ويضاده.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧]، وَقَالَ تَعَالَى عَن الخَلِيل: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:٧٨-٨٠]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢][١].

الشَّرْح

[١] ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قصة محاجة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه الذين يعبدون الكواكب، فبعثه الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الكواكب، وقد ناظرهم على ذلك؛ كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة «الأنعام» أنه ناظرهم في إبطال عبادة الكواكب، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]، وقد أعطاه الله من البراهين والعلم ما يخصم به المشركين، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾؛ يعني: غطاه بظلامه، ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾؛ أي: نجمًا، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾؛ يريد بذلك أن يبطل بالمناظرة عبادة الكواكب، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾؛ أي: بزعمكم؛ فهذا من باب التنزل معهم؛ حتى يخصمهم.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾؛ أي: غاب النجم، قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦]؛ لأن أفوله دَلَّ على أنه مخلوق يدبر، وأنه يطلع ويغيب بأمر الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو يجري بأمر الله، فدل على أنه مخلوق وأنه مسير، لا يصلح للعبادة.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾، والقمر أكبر من النجم، ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾؛ أي: بزعمكم. ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾؛ أي: غاب القمر، قال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام:٧٧]؛ فالقمر لا يصلح للعبادة؛ لأنه مسير، فأنا أطلب من ربي أن يهديني إلى الحق، وإلى المعبود الحق المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾، الشمس أكبر من النجم وأكبر من القمر.

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾؛ يعني: غابت، ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٧٨]؛ حيث أصبحت الكواكب لا تصلح للعبادة؛ لأنها مسيرة مدبرة، فتبرأ من عبادتها؛ لأن عبادة النجوم والكواكب وغيرها شرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا فيه وجوب البراءة من دين المشركين، ولا نقول: (أنتم على دينكم، ونحن على ديننا، وكل بحسب قناعته)، بل نقول: (دينكم باطل؛ لأنه لم يبنَ على حق، ولا على براهين)، وإذا كنا نصالحهم أحيانًا، ونأخذ منهم الجزية، فليس معنى ذلك أننا نسلم لهم دينهم، بل نعتقد بطلانه، ونتبرأ منه، وأما التعامل الدنيوي، فهذا شيء مباح، وإن تعاهدنا معهم وصالحناهم، وتعاملنا معهم، فإننا نبرأ من دينهم، ونبرأ منهم أيضًا، ولانحبهم.

ولما أبطل عبادة هذه الآلهة، قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩]؛ أي: أخلصت عملي وعبادتي للخالق الذي يدبر هذه الكائنات.

ولما خوفه قومه بآلهتهم، قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾؛ أي: كيف تهددوني بآلهتكم، وأنتم لا تخافون الله.

﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام:٨١]؛ أنا الذي أعبد الله، أم أنتم الذين تعبدون الأصنام؟! ففصل الله بينهم، فقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، فالأمن للموحدين، وأما المشركون، فليس لهم أمن؛ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا لَمْ يُلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»(١)[٢].

وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ الْمُخْلَصِينَ حَيْثُ بُعِثَ وَقَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ دِينُ الْمُشْرِكِينَ[٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]، فَبَيَّنَ أَنَّ عَهْدَهُ بِالْإِمَامَةِ لَا يَتَنَاوَلُ الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْمُرِ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ الظَّالِمُ إِمَامًا[٤].

الشَّرْح

[١] قوله: (شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لأن الله قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، فهم فهموا أن الظلم هو المعاصي، وقل من يسلم من المعاصي، فشق ذلك عليهم، فبين لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المراد بالظلم هنا الشرك.

[٢] فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»، العبد الصالح هو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢،٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤).

لقمان، لما حذر ابنه من الشرك، قال: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣].

[٣] فقد بعث في أمة وثنية، تعبد الكواكب، وملكهم النمرود، فأفحمهم إبراهيم بالحجة والبرهان على بطلان الشرك.

[٤] لما قال له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: قدوة في التوحيد والدعوة، طلب لذريته الإمامة من بعده، قال الله جَلَّوَعَلَا له: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فاستثنى الله منهم الظالم، فلا يكون إمامًا، وإنما الإمامة لغير الظالم منهم.

وَأَعْظَمُ الظُّلْمِ الشِّرْكُ[١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠][٢]، وَ«الْأُمَّةُ» هُوَ مُعَلِّمُ الخَيْرِ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، كَمَا أَنَّ «الْقُدْوَةَ» الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ، وَاللهُ تَعَالَى جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ[٣]،

الشَّرْح

[١] أما الظلم الذي دون الشرك، فقد يقع من بعض الولاة، ولايمنع من إمامتهم وطاعتهم، وإنما المقصود هنا الشرك، فالمشرك لايكون إمامًا، وإن كان من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

[٢] وهذه الآية في أوصاف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

الأولى: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: قدوة؛ لأن الأمة تطلق ويراد بها القدوة، وتطلق ويراد بها الجماعة من الناس، وتطلق الأمة ويراد بها الفترة من الزمن(١)، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، والمراد هنا القدوة.

الثانية: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾؛ أي: هو مداوم على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالقنوت هنا يراد به المداومة على الطاعة(٢).

---

(١) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ١٤٩- ١٥١)، وتهذيب اللغة (١٥/ ٤٥٤- ٤٥٦)، والصحاح (٥/ ١٨٤٦)، ومقاييس اللغة (١/ ٢٧- ٢٨)، ولسان العرب (١٢/ ٢٣- ٢٤).

(٢) انظر: تفسير السمعاني (٤/ ٢٧٨)، والفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٢٤٧).

الثالثة: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلًا على الله، معرضًا عما سواه[1].

الرابعة: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنه كان متبرئًا من المشركين ومن دينهم، فالبراءة من المشركين ومن دينهم من دين إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

[٣] ومن النعم التي أعطاها إياه -جزاء له- أنه جعل النبوة من بعده في ذريته، فكل الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هم من ذريته.

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ١٧٤). وانظر: العين (٣/ ٢٤٨)، وتهذيب اللغة (٥/ ٧١)، ومقاييس اللغة (٢/ ١١٠).

وَإِنَّمَا بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ بَعْدَهُ بِمِلَّتِهِ[١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣][٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨][٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

الشرح

[١] بملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي هي التوحيد، وإن اختلفت شرائعهم، فملتهم وعقيدتهم واحدة وهي التوحيد الخالص لله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] هذا خطاب لخاتم النبيين من ولد إبراهيم -وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ في التوحيد والعقيدة والإخلاص لله.

ولما ادعت اليهود والنصارى أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم، وأنهم على دينه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨].

[٣] فهذا رد على اليهود والنصارى، الذين ادعوا أنهم على ملة إبراهيم، وأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم، فاليهود يدعون أن إبراهيم منهم، والنصارى كذلك يدعون أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم، ورد عليهم الله بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧]، ثم بين من هو الذي على دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حقيقة، فقال:

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾، واليهود لم يتبعوا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والنصارى لم يتبعوا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ يعني: محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأولى الناس بإبراهيم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته؛ لأنهم اتبعوه، وأما اليهود والنصارى، فليس لهم علاقة بإبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو بريء منهم؛ لأن الله يقول: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [البقرة:١٣٥-١٣٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦][١].

الشَّرْح

[١] قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾.

[البقرة:١٣٥]

اليهود يقولون للمسلمين: (كونوا يهودًا، تهتدوا)، والنصارى يقولون للمسلمين: (كونوا نصارى، تهتدوا)، وهذا من ضلالهم وإعجابهم بأنفسهم، فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥]؛ أي: بل نكون على ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإذا أردتم الهداية -كما تزعمون-، فكونوا على ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

النهي عن التفرقة بين الأنبياء:

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]. فالمؤمن حقًّا لا يفرق بين الأنبياء؛ فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم؛ بل يؤمن بهم جميعًا، فهذه الأمة المحمدية -ولله الحمد- لاتفرق بين الأنبياء، بل تؤمن بالجميع،

وتقول: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، ونحن مسلمون لله تعالى، ونحن منقادون لأمر الله، ولا نفرق بين الأنبياء.

ثم قال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة:١٣٧]، هذا رد عليهم، ومعنى ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم﴾؛ أي: إن آمنوا بجميع الأنبياء وبجميع الكتب، فقد اهتدوا.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾، وإن آمنوا ببعضهم فقط، ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾؛ خلاف معكم وعداوة، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧]؛ أي: يرد عنكم كيدهم وعداوتهم.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»(١) [١]، فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا»(٢)، وَقَالَ: «لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ -يَعْنِي نَفْسَهُ-»(٣) [٢].

الشَّرْح

[١] أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو خير البرية، وذلك بشهادة القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١]. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٠) (٢٣٦٩) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

(٢) أخرجه مسلم (٢٣) (٥٣٢) من حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٦، ٣٦٥٤، ٣٩٠٤)، ومسلم (٦) (٢٣٨٢)، واللفظ لمسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ».

(فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

والخلة: هي أعلى درجات المحبة[1]، ولم ينلها إلا إبراهيم ومحمد -عليهما الصلاة والسلام-، فهما أفضل الأنبياء، ومحمد خليل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا**»، ثبت هذا في الصحيح.

[٢] لماذا لم يتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خليلًا مع أنه يحبه؟ لأنه خليل الله، وخليل الله لا يتخذ معه خليلًا آخر.

(١) انظر: مراتب المحبة في: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٣)، والجواب الكافي (١٣٤)، ومدارج السالكين (٣/ ٢٢، ٢٣)، وروضة المحبين (ص٤٧)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص١٦٤).

وَقَالَ: «لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»(١)[١].

وَقَالَ: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(٢)[٢]، وَكُلُّ هَذَا فِي الصَّحِيحِ. وَفِيهِ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَيَّامٍ[٣]،

الشَّرْح

[١] ومما يدل على شدة محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»، والخوخة: الباب(٣)، وهذا فيه أنه أحب الأمة إليه، وأنه أفضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بحيث لو اتخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل الأرض خليلًا، لاتخذ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم إنه لما قرب أجله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمر بسد الأبواب التي تنفذ من بيوت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى المسجد، إلا الباب الذي يدخل منه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا إشارة إلى أنه الإمام في الصلاة، والخليفة من بعده.

[٢] «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ أي: من اليهود والنصارى، «كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»؛ بمعنى: أنهم يصلون عندها؛ تقربًا إليها، أو توسلًا بها، ومع تحذير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك وقع في

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥١).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٥١).

(٣) الخَوْخَةُ: بابٌ صغِيرٌ كالنَّافِذَة الكَبِيرَة، وتكُون بَيْن بَيْتَيْن يُنْصَبُ عَلَيْهَا بابٌ. انظر: تهذيب اللغة (٧/ ٢٤٩)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٨٦)، ولسان العرب (٣/ ١٤).

هذه الأمة من اتخذ القبور مساجد، وبنى عليها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

[٣] أي: حذر من اتخاذ القبور مساجد قبل موته بمدة قليلة[(١)]؛ من باب النصح للأمة، ومن باب أنه يخشى أن يغلوا في قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تجوز الصلاة عند القبور -لا قبور الأنبياء، ولا قبور الصالحين- مطلقًا؛ سدًّا لوسيلة الشرك، فهذا فيه كمال إبلاغه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث إنه عند الموت حذر منه؛ خوفًا على الأمة من بعده أن تتخذ قبره مسجدًا مثلما فعلت الأمم السابقة، وأن تقع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وهذا من كمال شفقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكمال نصحه، وكمال البلاغة للأمة.

(١) سبق تخريجه (ص٣٥١).

وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ رِسَالَتِهِ[١]. فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَحْقِيقَ تَمَامِ مُخَالَتِهِ للهِ الَّتِي أَصْلُهَا مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَمَحَبَّةُ الْعَبْدِ للهِ خِلَافًا لِلْجَهْمِيَّةِ(١)[٢]. وَفِي ذَلِكَ تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ اللهِ[٣]، وَأَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَرَدٌّ عَلَى أَشْبَاهِ الْمُشْرِكِينَ[٤].

الشَّرْح

[١] لأن الله بعثه مبلغًا وناصحًا ومعلمًا، وقد أكمل ذلك كله، فما توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وقد أكمل الله به الدين؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، وقد نزلت هذه الآية قبل وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع، فمن كمال رسالته ومهمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه حذر في آخر حياته وعند موته من اتخاذ القبور مساجد.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَحْقِيقَ تَمَامِ مُخَالَتِهِ للهِ الَّتِي أَصْلُهَا مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَمَحَبَّةُ الْعَبْدِ للهِ خِلَافًا لِلْجَهْمِيَّةِ**)، هذا معنى الخلة.

[٢] فالجهمية ينفون عن الله المحبة، ويقولون: (الله لا يحب أحدًا من خلقه؛ لأن هذا من صفات البشر، والله منزه عن صفات البشر).

ولم يفرقوا بين صفات الله وصفات البشر، فلم يفرقوا بين المحبة في حق الله والمحبة في حق البشر؛ لذلك نفوا أن يكون الله يحب أحدًا من خلقه، وهذا

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًّا عظيمًا، وهو رأس في التعطيل، قُتل سنة ١٢٨هـ قتله سَلْم بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص١٠٨)، وفتح الباري (١٣/ ٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥٩٠).

مخالف لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فأثبت أنه يحبهم ويحبونه.

[٣] أي: في النهي عن اتخاذ القبور مساجد تحقيق التوحيد، وهو تصفيته من الشرك والبدع، وفي ذلك كمال التوحيد، فهناك توحيد وهناك تحقيق التوحيد، فالمؤمنون كلهم موحدون -ولله الحمد-، ولكن لم يحقق التوحيد منهم إلا القليل، الذين بلغوا مرتبة السابقين، المقربين، وهم الذين حققوا التوحيد، ومن حقق التوحيد، دخل الجنة بلا حساب ولاعذاب، أما بقية الموحدين، فهم يدخلون الجنة، ولكن هناك حساب، وهناك عذاب لبعضهم، ثم يدخلون الجنة بعده.

[٤] أشباه المشركين: هم الذين يسوغون الصلاة عند القبور، ويسوغون البدع والمحدثات.

وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الرَّافِضَةِ[١] الَّذِينَ يَبْخَسُونَ الصِّدِّيقَ حَقَّهُ، وَهُمْ أَعْظَمُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْقِبْلَةِ إِشْرَاكًا بِعِبَادَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيرِهِ مِنَ الْبَشَرِ[١].

«وَالْخُلَّةُ»[٢] هِيَ كَمَالُ الْمَحَبَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ مِنْ الْعَبْدِ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ للهِ، وَمِنْ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ كَمَالَ الرُّبُوبِيَّةِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وَلَفْظُ الْعُبُودِيَّةِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ، وَكَمَالَ الْحُبِّ[٣].

الشَّرْح

[١] الرافضة من فرق الشيعة، وهم الجعفرية، الذين يسبون أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويتنقصونه، مع أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حقه: «**لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا**»[٢]، وفي ذلك فضل الصديق، ومحبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، (**وَالرَّافِضَةُ هُمْ أَعْظَمُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْقِبْلَةِ إِشْرَاكًا بِعِبَادَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيرِهِ مِنَ الْبَشَرِ**) المنتسبون إلى القبلة هم الذين يصلون إلى الكعبة؛ فالرافضة يصلون إلى الكعبة، فهم من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، وهم أشد الناس إشراكًا بالبشر؛ لأنهم يعتقدون

---

(١) هي فرقة من فرق الشيعة الضالة، سموا (رافضة) لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويقال: سموا بالروافض لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خرج على هشام بن عبدالملك، فطعن عسكره على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمنعهم من ذلك فرفضوه، فقال لهم زيد بن علي: رفضتموني؟ قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم. وهم يدعون الإمامية لقولهم بالنص على إمامة ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٦ وما بعدها)، والفرق بين الفرق (ص١٥)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٥٢).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٥١).

في أئمتهم العصمة، ويدعونهم من دون الله، ويبنون على قبورهم الأضرحة، ويتقربون إليهم بأنواع العبادة، ومع هذا يتنقصون صديق الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينكرون فضله وخلافته بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أعظم الناس نقصًا وابتداعًا وإشراكًا.

[٢] الخلة: هي أعلى درجات المحبة، والله جَلَّ وَعَلَا يحب كل مؤمن، وكل متقٍ، وكل محسن، ولكن لم يبلغ أعلى درجات المحبة منهم -وهي الخلة-، إلا إبراهيم ومحمد -عليهما الصلاة والسلام.

[٣] العبودية هي كمال الحب مع كمال الذل لله عَزَّ وَجَلَّ؛ فالمحبة التي معها ذل وخضوع للمحبوب عبودية، وأما المحبة التي ليس معها ذل للمحبوب، فليست عبودية، فمحبة المال والزوجة والأولاد والصديق محبة طبيعية، ليس معها ذل، والذل الذي ليس معه محبة؛ كما يذل الرجل للظالم والجبار، لكنه لا يحبه ليس ذلك عبودية، أما المحبة التي معها ذل وخضوع للمحبوب، فهي عبودية، فإن كان ذلك لله، فهذه عبادة الله، وصاحبها هو المؤمن، وإن كان ذلك لغير الله، فصاحبها هو المشرك، فالمشرك يحب معبوداته حبًّا عظيمًا، فهو لم يعبدها إلا لأنه يحبها، ويذل لها، ويقاتل دونها، قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وَعِبَادَةُ الرِّحمنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطبَانِ

وَعَلَيهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ

ومَدَارُهُ بِالأمرِ أَمْرِ رسُولِهِ ... لَا بِالهَوَى والنَّفسِ وَالشَّيطَانِ

(١) سبق عزوه (ص٣٩).

والصوفية يقولون: (العبودية هي المحبة فقط)، ولا يدخلون الخوف والرجاء في العبودية؛ لأنهم يقولون: (هذه عبودية التجار، نحن نعبد الله لأننا نحبه، وليس لأننا نخافه أو نرجوه).

يقول أحدهم: (لا أعبده خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنته، وإنما أعبده لأنني أحبه فقط)[1]، وهذا ضلال مبين، فالرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخافون ربهم، ويرجونه، وهم أكمل الناس عبودية، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧]، فهم جمعوا بين المحبة والخوف والرجاء.

(١) هذا القول نُسب إلى أحمد بن الموفق أبو الحسن الصوفي، المتوفى سنة خمس وستين ومائتين، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٧٢)، انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (١٢/ ١١٠-١١٣)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٨٦)، وطبقات الحنابلة (١/ ٢٣٠، ٢٣١)، والمقصد الأرشد (٢/ ٢٦٨).

فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: قَلْبٌ مُتَيَّمٌ إِذَا كَانَ مُتَعَبِّدًا لِلْمَحْبُوبِ، وَالْمُتَيَّمُ الْمُتَعَبِّدُ، وَتَيَّمَ اللهُ عَبَدَهُ، وَهَذَا عَلَى الْكَمَالِ حَصَلَ لِإِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلٌ؛ إِذْ الْخُلَّةُ لَا تَحْتَمِلُ الشَّرِكَةَ، فَإِنَّهُ كَمَا قِيلَ فِي الْمَعْنَى:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلا[1]

بِخِلَافِ أَصْلِ الْحُبِّ، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الْحَسَنِ وَأُسَامَةَ: «اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا، فَأَحِبَّهُمَا، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا»[2] [3].

وَسَأَلَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ قَالَ: فَمِنْ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا»[3].

الشَّرْح

[١] التتيم درجة من درجات المحبة؛ كما يقولون: (تيم الله)؛ أي: حبيب الله.

[٢] أي: تمام المحبة هو الخلة، وقد حصلت لشخصين فقط، هما: إبراهيم ومحمد -عليهما الصلاة والسلام.

---

(١) البيت لبشار بن برد الشاعر العباسي المشهور. انظر: أدب الدنيا والدين (١/ ١٦١)، وتفسير القرطبي (٥/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٨) (٢٣٨٤) عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «أَبُوهَا»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ». فَعَدَّ رِجَالًا».

[٣] أي: لم يكن لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليل من البشر؛ لأنه خليل الله، والخلة التي بين الله وبين عبده لا تقبل الشركة، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ**»(١)، ومع هذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا من أهل الأَرْض خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»(٢).

[٣] فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم، وقد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا**».

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم، لكن منهم من يحبه أكثر من غيره؛ كالحسن بن علي وكأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبهما أشد من غيرهما، وكذلك محبته لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولبقية أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهو يحبهم، ولكن ليس منهم أحد اتخذه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلًا؛ لأن الخلة لاتقبل الاشتراك.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٥١).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٥١).

وَقَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»(١)[١]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[٢]، وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، وَقَالَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، فَقَدْ أَخْبَرَ بِمَحَبَّتِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ، حَتَّى قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وَأَمَّا الْخُلَّةُ فَخَاصَّةٌ.

وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ: إِنَّ مُحَمَّدًا حَبِيبُ اللهِ، وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ[٣]، وَظَنَّهُ أَنَّ الْمَحَبَّةَ فَوْقَ الْخُلَّةِ قَوْلٌ ضَعِيفٌ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا أَيْضًا خَلِيلُ اللهِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ.

وَمَا يُرْوَى «أَنَّ الْعَبَّاسَ يُحْشَرُ بَيْنَ حَبِيبٍ وَخَلِيلٍ» وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، فَأَحَادِيثُ مَوْضُوعَةٌ، لَا تَصْلُحُ أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهَا.

الشَّرْح

[١] فهذا فيه دليل على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أصحابه، ويخص بعضهم بزيادة محبة، لكنه لم يتخذ منهم خليلًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٢] أخبر الله تعالى في آيات كثيرة أنه يحب المؤمنين، والمتقين، والمحسنين، والتوابين، والمتطهرين؛ فالمحبة من الله مشتركة بين المؤمنين، كلهم يحبهم الله، ولكن الخلة بين الله وبين عبده لا تقبل الاشتراك.

[٣] هذا خطأ، مع أنهم يرددون أن محمدًا حبيب الله، وهذا نقص في حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليل الله، أما المحبة، فهي مشتركة بين المؤمنين كلهم، فحبيب الله ليس وصفًا للرسول خاصةً؛ بخلاف الخلة، فإنها وصف خاص.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى مَحَبَّةَ مَا أَحَبَّ[١]؛ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[(١)]. أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الحَلَاوَةِ بِالشَّيْءِ يَتْبَعُ المَحَبَّةَ لَهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَوْ اشْتَهَاهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ مُرَادُهُ، فَإِنَّهُ يَجِدُ الحَلَاوَةَ وَاللَّذَّةَ وَالسُّرُورَ بِذَلِكَ[٢].

الشَّرْح

[١] محبة الله أصل عبوديته، وهناك محبة تابعة لمحبة الله، وهي المحبة في الله، ولله؛ فمحبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابعة لمحبة الله، ومحبة المؤمنين من أجل الإيمان تابعة لمحبة الله، وهذا ما يسمى بالحب في الله.

والخلة أعلى درجات المحبة، وليست المحبة أعلى من الخلة.

[٢] والإيمان له حلاوة، وليس كل مؤمن يجدها، بل يجدها الخواص من المؤمنين، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ**»، فإذا أراد المرء أن يختبر نفسه هل يجد حلاوة الإيمان؛ فإنه ينظر هل فيه الثلاث التي وردت بالحديث، وهي: «**مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ**

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣٤).

أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»، فإذا كانت فيه هذه الثلاث، فقد وجد حلاوة الإيمان.

والحلاوة: التلذذ بالإيمان بالأعمال الصالحة، فقد يعمل الإنسان الأعمال الصالحة من باب الطاعة، لا يجد لها لذة في أول الأمر، بل قد يجد لها مشقة وتعبًا ومجاهدة مع النفس، وفي النهاية يتلذذ بها، فإذا تلذذ بها، فهذا دليل على أنه وجد حلاوة الإيمان.

وَاللَّذَّةُ أَمْرٌ يَحْصُلُ عَقِيبَ إِدْرَاكِ الْمُلَائِمِ الَّذِي هُوَ الْمَحْبُوبُ أَوْ الْمُشْتَهِي. وَمَنْ قَالَ إِنَّ اللَّذَّةَ إِدْرَاكُ الْمُلَائِمِ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ، فَقَدْ غَلِطَ فِي ذَلِكَ غَلَطًا مُبِينًا؛ فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَاللَّذَّةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَثَلًا يَشْتَهِي الطَّعَامَ فَإِذَا أَكَلَهُ حَصَلَ لَهُ عَقِيبَ ذَلِكَ اللَّذَّةُ، فَاللَّذَّةُ تَتْبَعُ النَّظَرَ إِلَى الشَّيْءِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الْتَذَّ، فَاللَّذَّةُ تَتْبَعُ النَّظَرَ لَيْسَ نَفْسَ النَّظَرِ، وَلَيْسَتْ هِيَ رُؤْيَةَ الشَّيْءِ؛ بَلْ تَحْصُلُ عَقِيبَ رُؤْيَتِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وَهَكَذَا جَمِيعُ مَا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ مِنْ اللَّذَّاتِ، وَالْآلَامِ مِنْ فَرَحٍ وَحُزْنٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِالشُّعُورِ بِالْمَحْبُوبِ، أَوْ الشُّعُورِ بِالْمَكْرُوهِ، وَلَيْسَ نَفْسُ الشُّعُورِ هُوَ الْفَرَحُ وَلَا الْحُزْنُ؛ فَحَلَاوَةُ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمَّنَةِ مِنْ اللَّذَّةِ بِهِ وَالْفَرَحِ مَا يَجِدُهُ الْمُؤْمِنُ الْوَاجِدُ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ تَتْبَعُ كَمَالَ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ للهِ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

تَكْمِيلُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَتَفْرِيعُهَا، وَدَفْعُ ضِدِّهَا.

«فَتَكْمِيلُهَا» أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ وَرَسُولِهِ لَا يُكْتَفَى فِيهَا بِأَصْلِ الْحُبِّ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا كَمَا تَقَدَّمَ.

«وَتَفْرِيعُهَا» أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ.

«وَدَفْعُ ضِدِّهَا» أَنْ يَكْرَهَ ضِدَّ الْإِيمَانِ أَعْظَمَ مِنْ كَرَاهَتِهِ الْإِلْقَاءَ فِي النَّارِ.

فَإِذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللهُ؛ لِأَنَّهُ أَكْمَلُ النَّاسِ مَحَبَّةً للهِ،

وَأَحَقُّهُمْ بِأَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيَبْغُضَ مَا يَبْغُضُهُ اللهُ، وَ«الْخُلَّةُ» لَيْسَ لِغَيْرِ اللهِ فِيهَا نَصِيبٌ، بَلْ قَالَ: «لَوْ كُنْت مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا»(١)، عُلِمَ مَزِيدُ مَرْتَبَةِ الْخُلَّةِ عَلَى مُطْلَقِ الْمَحَبَّةِ[١].

وَالْمَقْصُودُ هُوَ أَنَّ «الْخُلَّةَ» «وَالْمَحَبَّةَ للهِ» تَحْقِيقُ عُبُودِيَّتِهِ؛ وَإِنَّمَا يَغْلَطُ مَنْ يَغْلَطُ فِي هَذِهِ مِنْ حَيْثُ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مُجَرَّدُ ذُلٍّ وَخُضُوعٍ فَقَطْ، لَا مَحَبَّةَ مَعَهُ، أَوْ أَنَّ الْمَحَبَّةَ فِيهَا انْبِسَاطٌ فِي الْأَهْوَاءِ، أَوْ إدْلَالٌ لَا تَحْتَمِلُهُ الرُّبُوبِيَّةُ.

الشَّرْح

[١] هذا فيه بيان الفرق بين الخلة ومطلق المحبة؛ فالخلة أخص من مطلق المحبة؛ فالمحبة تقبل الاشتراك، فيكون عدة محبوبين، وأما الخلة، فلا تقبل الاشتراك، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لكنه لم يتخذ منهم خليلًا؛ لأن الله اتخذه خليلًا، والخلة التي لا تقبل الاشتراك هي الخلة بين الله وبين عبده.

أما الخلة بين سائر الناس، فلا مانع أن يكون للإنسان عدة أخلاء.

ثم إن المحبة لله إذا لم يكن معها خوف ورجاء، فليست عبادة، وإن كان معها ذل وخضوع.

(١) سبق تخريجه (ص٣٥١).

وَلِهَذَا يُذْكَرُ عَنْ «ذِي النُّونِ» أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا عِنْدَهُ فِي مَسْأَلَةِ الْمَحَبَّةِ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا تَسْمَعُهَا النُّفُوسُ فَتَدَّعِيهَا.

وَكَرِهَ مَنْ كَرِهَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ مُجَالَسَةَ أَقْوَامٍ يُكْثِرُونَ الْكَلَامَ فِي الْمَحَبَّةِ بِلَا خَشْيَةٍ.

وَقَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ[١]، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ[٢]، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ[٣]، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ(١)[٤].

وَلِهَذَا وُجِدَ فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ مَنْ انْبَسَطَ فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الرُّعُونَةِ، وَالدَّعْوَى الَّتِي تُنَافِي الْعُبُودِيَّةَ وَتُدْخِلُ الْعَبْدَ فِي نَوْعٍ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ إِلَّا للهِ؛ وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ دَعَاوَى تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَوْ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَصْلُحُ -بِكُلِّ وَجْهٍ- إِلَّا للهِ لَا يَصْلُحُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ. وَهَذَا بَابٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ[٥].

الشَّرْح

[١] كما تدعيه الصوفية، ويقولون: (العبادة هي المحبة فقط، وليس معها خوف ولا رجاء)، وهذه زندقة وضلال.

(١) هذا القول لم أجده فيما بين يدي من كتب قبل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو موجود في كتب كثيرة لشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: أمراض القلوب وشفاؤها (١/ ٧٥)، والتفسير القيم (١/ ٢٦٠).

[٢] فالمرجئ يعبد الله بالرجاء فقط، ولا يخاف، ويقول: (لا يضر مع الإيمان معصية).

[٣] يعني خارجي؛ أي: هذه عبادة الحرورية، وهم الخوارج[(١)]، سمي الخوارج بالحرورية؛ لأنهم اجتمعوا في مكان في العراق يسمى حروراء، تشددوا في الخوف، وتركوا الرجاء.

[٤] فالعبادة هي مجموع المحبة والخوف والرجاء، فمن جمع هذه الأمور الثلاثة، فهو المؤمن حقًّا.

[٥] هذا فيه بيان سلبيات عبادة الله بالمحبة فقط؛ كما عليه الصوفية.

فقوله: (وَهَذَا بَابٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ الشُّيُوخِ)؛ يعني: الصوفية الذين انحرفت بهم دعوى المحبة لله، حتى تركوا أمره ونهيه، وزعموا سقوط التكاليف عنهم؛ أنهم وصلوا إلى الله تعالى؛ لأنهم يحبونه.

---

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ، كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًّا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

وَسَبَبُهُ ضَعْفُ تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي بَيَّنَتْهَا الرُّسُلُ وَحَرَّرَهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، بَلْ ضَعْفُ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُ الْعَبْدُ حَقِيقَتَهُ؛ وَإِذَا ضَعُفَ الْعَقْلُ وَقَلَّ الْعِلْمُ بِالدِّينِ وَفِي النَّفْسِ مَحَبَّةٌ انْبَسَطَتْ النَّفْسُ بِحُمْقِهَا فِي ذَلِكَ، كَمَا يَنْبَسِطُ الْإِنْسَانُ فِي مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ مَعَ حُمْقِهِ وَجَهْلِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا مُحِبٌّ فَلَا أُؤَاخَذُ بِمَا أَفْعَلُهُ مِنْ أَنْوَاعٍ يَكُونُ فِيهَا عُذْرٌ أَوْ جَهْلٌ، فَهَذَا عَيْنُ الضَّلَالِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِقَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨][١].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

الشرح

[١] اليهود والنصارى غلوا في دعوى المحبة، حتى زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؟! فإن المحب لا يعذب أحبابه، فدل على أنهم ليسوا أحباب الله؛ لأن الله يعذبهم بذنوبهم، ثم بين حقيقتهم، فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:١٨]. فدعوى الصوفية من جنس دعوى اليهود؛ حيث يقولون: (نحن لا تضرنا الذنوب؛ لأننا نحب الله، ولسنا مكلفين، فالتكاليف والأوامر والنواهي للعوام الذين لم يصلوا إلى محبة الله).

فَإِنَّ تَعْذِيبَهُ لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ غَيْرُ مَحْبُوبِينَ وَلَا مَنْسُوبِينَ إِلَيْهِ بِنِسْبَةِ الْبُنُوَّةِ، بَلْ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ مَرْبُوبُونَ مَخْلُوقُونَ[١].

فَمَنْ كَانَ اللهُ يُحِبُّهُ اسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ، لَا يَفْعَلُ مَا يَبْغُضُهُ الحَقُّ، وَيَسْخَطُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَمَنْ فَعَلَ الْكَبَائِرَ، وَأَصَرَّ عَلَيْهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، فَإِنَّ اللهَ يَبْغُضُ مِنْهُ ذَلِكَ؛ كَمَا يُحِبُّ مِنْهُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الخَيْرِ؛ إِذْ حُبُّهُ لِلْعَبْدِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لَا تَضُرُّهُ لِكَوْنِ اللهِ يُحِبُّهُ مَعَ إِصْرَارِهِ عَلَيْهَا كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ تَنَاوُلَ السُّمِّ لَا يَضُرُّهُ مَعَ مُدَاوَمَتِهِ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ تَدَاوِيهِ مِنْهُ بِصِحَّةِ مِزَاجِهِ.

وَلَوْ تَدَبَّرَ الْأَحْمَقُ مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ قَصَصِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَمَا جَرَى لَهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ وَمَا أُصِيبُوا بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ الَّذِي فِيهِ تَمْحِيصٌ لَهُمْ وَتَطْهِيرٌ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ؛ عَلِمَ بَعْضَ ضَرَرِ الذُّنُوبِ بِأَصْحَابِهَا وَلَوْ كَانَ أَرْفَعَ النَّاسِ مَقَامًا، فَإِنَّ الْمُحِبَّ لِلْمَخْلُوقِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِمَصْلَحَتِهِ وَلَا مُرِيدًا لَهَا؛ بَلْ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَى الحُبِّ - وَإِنْ كَانَ جَهْلًا وَظُلْمًا - أَنَّ ذَلِكَ سَبَبًا لِبُغْضِ الْمَحْبُوبِ لَهُ وَنُفُورِهِ عَنْهُ؛ بَلْ لِعُقُوبَتِهِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ السَّالِكِينَ سَلَكُوا فِي دَعْوَى حُبِّ اللهِ أَنْوَاعًا مِنْ أُمُورِ الجَهْلِ بِالدِّينِ؛ إِمَّا مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللهِ؛ وَإِمَّا مِنْ تَضْيِيعِ حُقُوقِ اللهِ، وَإِمَّا مِنَ ادِّعَاءِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا.

الشَّرْح

[١] لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة:١٨]، فهم خلق من خلق الله، تجري عليهم أحكامه وأوامره ونواهيه؛ فيعذب العاصي منهم، ويثيب المطيع.

كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ فِي النَّارِ أَحَدًا فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ؛ فَقَالَ الْآخَرُ: أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ أَحَدًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُ النَّارَ فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ[١].

فَالْأَوَّلُ جَعَلَ مُرِيدَهُ يُخْرِجُ كُلَّ مَنْ فِي النَّارِ؛ وَالثَّانِي جَعَلَ مُرِيدَهُ يَمْنَعُ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مِنْ دُخُولِ النَّارِ[٢].

وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: إذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَصَبْت خَيْمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ[٣].

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ الْأَقْوَالِ الَّتِي تُؤْثَرُ عَنْ بَعْضِ الْمَشَايِخِ الْمَشْهُورِينَ؛ وَهِيَ إمَّا كَذِبٌ عَلَيْهِمْ[٤]، وَإِمَّا غَلَطٌ مِنْهُمْ[٥].

الشَّرْح

[١] هذا بيان ما وقع فيه الصوفية من الضلال بسبب ادعائهم محبة الله، واقتصارهم على ذلك، من غير خوف من الله، ولا رجاء؛ حتى ظنوا أنهم يمنعون مريديهم من دخول النار، ويخرجون من النار من دخلها منهم، وذلك: (**كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ أَحَدًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُ النَّارَ فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ**)، هكذا بلغ بهم الحال من الجرأة على الله تعالى.

[٢] كأنه يغالب الله عَزَّوَجَلَّ، ويقول للمريدين: (لا تجعلوا أحدًا من أصحاب الكبائر يدخل النار)، والله يعذب بالنار من يشاء من أهل الكبائر، فهم يتصرفون في الكون بزعمهم، والله جَلَّوَعَلَا هو الذي يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء، لا منازع له في ذلك، بل بلغت بهم الجرأة والغرور حتى يقول بعضهم:

[٣] (إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَصَبْت خَيْمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ)، وهل يستطيع أن يقرب من جهنم؟ حتى ينزل على بابها؛ ليمنع من أراد الله إدخاله فيها!! إنه الغَرور والجهل والضلال -ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[٤] وهذه الكلمة: إما كذب عليهم: إن كانوا لم يقولوها.

[٥] إذا كانوا قالوها، فإنه لن يصل أحد من الخلق إلى هذه الدرجة.

وَمِثْلُ هَذَا قَدْ يَصْدُرُ فِي حَالِ سُكْرٍ وَغَلَبَةٍ وَفَنَاءٍ يَسْقُطُ فِيهَا تَمْيِيزُ الْإِنْسَانِ؛ أَوْ يَضْعُفُ حَتَّى لَا يَدْرِي مَا قَالَ[١].

وَ«السُّكْرُ» هُوَ لَذَّةٌ مَعَ عَدَمِ تَمْيِيزٍ[٢].

وَلِهَذَا كَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ مَنْ إِذَا صَحَا اسْتَغْفَرَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ.

وَالَّذِينَ تَوَسَّعُوا مِنَ الشُّيُوخِ فِي سَمَاعِ الْقَصَائِدِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْحُبِّ، وَالشَّوْقِ، وَاللَّوْمِ، وَالْعَذْلِ، وَالْغَرَامِ، كَانَ هَذَا أَصْلَ مَقْصِدِهِمْ؛ وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ لِلْمَحَبَّةِ مِحْنَةً يَمْتَحِنُ بِهَا الْمُحِبَّ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١][٣].

الشَّرْح

[١] أي: لا يقول مقالة الصوفية هذه إنسان عنده عقل، بل يقولها إما إنسان مجنون، وإما إنسان سكران يهذي بما لا يدري، أما العاقل، فلايقول هذه المقالة، فضلًا عن المؤمن، ولكن الضلال يتمادى بالإنسان إلى ما هو أغرب من ذلك، فالفناء عند الصوفية حالة يبلغ فيها الصوفي درجة لا يدري فيها ما يقول، ولا يتصور ماذا ينطق به.

[٢] ومنه سكر الصوفية، فهو يشبه سكر الخمر، بل سكر الصوفية أشد؛ حيث يصلون إلى حالة لا يميزون فيها بين الطيب والخبيث، والخير والشر؛ لأن الشيطان يحملهم إلى مثل هذه الأمور، حتى إن بعضهم يستغفر إذا صحا مما صدر منه، وكل هذا بسبب دعوى المحبة.

[٣] (وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ لِلْمَحَبَّةِ مِحْنَةً يَمْتَحِنُ بِهَا الْمُحِبَّ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١])، هذا أمر من الله جَلَّوَعَلَا لرسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقول لليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم يحبون الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢]، فعلامة محبة الله ودليلها اتباع رسوله، فمن زعم أنه يحب الله، ولكنه لايتبع رسوله، فهو كاذب؛ كاليهود والنصارى والصوفية وأمثالهم.

وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، وهذه ثمرة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، فمحبة الله علامتها: اتباع الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وثمرتها: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، ففي هذه الآية علامة محبة الله وثمرتها.

وليس هذا الخطاب خاصًّا باليهود والنصارى؛ فقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ليس خاصًّا باليهود والنصارى، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا عام؛ فمن يدعي محبة الله من الصوفية وغيرهم، ولا يتبع الرسول، فهو كاذب في دعوى محبة الله، بل منهم من يرى سقوط الأمر والنهي عن المحب، فيقول: (لا يحرم عليّ شيء، ولا يجب عليّ شيء؛ لأنني وصلت إلى الله، وهذه الأوامر والنواهي إنما هي للعوام، أما الخواص والعارفون بالله، فليسوا بحاجة إلى اتباع الرسل، ولا إلى الأمر، ولا إلى النهي؛ لأنهم وصلوا إلى الله، فالرسل إنما هم للعوام؛ يدلونهم على الله).

يَكُونُ مُحِبًّا للهِ إِلَّا مَنْ يَتَّبِعُ رَسُولَهُ، وَطَاعَةُ الرَّسُولِ وَمُتَابَعَتُهُ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ.

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَدَّعِي المَحَبَّةَ يَخْرُجُ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَيَدَّعِي مِنَ الخَيَالَاتِ مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا المَوْضِعُ لِذِكْرِهِ، حَتَّى قَدْ يَظُنُّ أَحَدُهُمْ سُقُوطَ الْأَمْرِ وَتَحْلِيلَ الحَرَامِ لَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ مُخَالَفَةُ شَرِيعَةِ الرَّسُولِ وَسُنَّتِهِ، وَطَاعَتِهِ، بَلْ قَدْ جَعَلَ مَحَبَّةَ اللهِ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ[١].

الشَّرْح

[١] أي: ومن علامة المحبة لله: الجهاد في سبيله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [الصف:٤]، فالقتال في سبيل الله علامة على محبة الله، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤]؛ يرفقون بالمؤمنين، ويرحمونهم، ويحبونهم، ﴿أَعِزَّةٍ﴾ أقوياء ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يخافون فيهم لومة لائم.

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٥٤]، وهذه علامة محبتهم لله عَزَّوَجَلَّ.

وَ«الْجِهَادُ» يَتَضَمَّنُ كَمَالَ مَحَبَّةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَكَمَالَ بُغْضِ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ فِي صِفَةِ مَنْ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَلِهَذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ للهِ أَكْمَلَ مِنْ مَحَبَّةِ مَنْ قَبْلَهَا، وَعُبُودِيَّتُهُمْ للهِ أَكْمَلَ مِنْ عُبُودِيَّةِ مَنْ قَبْلَهُمْ.

وَأَكْمَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١].

الشَّرْح

[١] تقدم أن العبودية مبنية على المحبة، فالذي يعبد شيئًا، فلابد أنه يحبه، فالذين يعبدون الله يحبون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو لم يحبوه، لم يعبدوه، والذين يعبدون الأصنام يحبون الأصنام، ولو لم يحبوها، لم يعبدوها، ولكن المحبة تختلف باختلاف العباد؛ فالمؤمنون يحبون الله محبة تامة، لا يشارك الله فيها غيره، فلا يحبون غير الله محبة العبودية؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فهم أشد من غيرهم من جميع الخلق.

والمشركون يحبون الله، ولكن يحبون معه غيره، فلما أشركوا في المحبة، أشركوا في العبادة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فمعناه: أنهم يحبون الله، ولكنهم يحبون معه الأصنام، فهم يساوون بين الله وبين الأصنام في المحبة، وبين الله وبين

الأصنام في العبادة، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أشد حبًّا لله من المشركين؛ لأن محبة المشركين لله مشتركة، ومحبة المؤمن لله خالصة.

وهناك من لا يحب الله أصلًا، وهم الملاحدة والدهرية والذين لا يؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، فهؤلاء لا يحبون الله بتاتًا، وإنما يحبون أهواءهم وأطماعهم، وما تشتهيه أنفسهم، ولا يعرفون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لا بمحبة، ولا بغيرها.

فالمؤمنون محبتهم خالصة لله، ليس فيها شرك، ولكن المؤمنين يتفاوتون في محبة الله، فبعضهم أعظم محبة لله من بعض، وأكمل الأمة حبًّا لله هم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بدليل صدقهم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومناصرته، والصبر معه على ما أصابه، فهم الذين أيدوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته وفي حروبه، وفي مقاومته للكفار والمشركين، فقام الإسلام على جهادهم، وعلى صدقهم، وعلى بذلهم، وعطائهم في سبيل الله؛ فقد جادوا بأنفسهم في سبيل الله، فصاروا يلاقون الموت، ويلاقون السلاح في نحورهم، يدافعون عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن دين الله عَزَّوَجَلَّ.

فمحبة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لله عَزَّوَجَلَّ هي أبلغ وأشد من محبة بقية الأمة لله، فلذلك نالوا هذا الفضل العظيم، وهذا الشرف الكبير، وأثنى الله عليهم، ورضي عنهم وأرضاهم، ومدحهم، ووعدهم بجزيل الثواب.

فيا ويل من ينتقصهم، ويسبهم، ويكفرهم، وهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يحصلوا على هذا إلا بثمن بذلوه لله عَزَّوَجَلَّ؛ فالمهاجرون تركوا أوطانهم وأموالهم وأولادهم، وخرجوا مهاجرين مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأنصار استقبلوا

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بالفرح والسرور والاغتباط، وواسوهم بأموالهم وممتلكاتهم، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الفيء الذي يحصل عليه المسلمون من أموال الكفار في الجهاد: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨]، ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، ثم قال لمن يأتي بعد المهاجرين والأنصار: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، ثم ذكر أن المنافقين على العكس؛ يوالون الكفار، ويبغضون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر:١١] الآيات.

فالكفار والمنافقون يبغضون الله ورسوله، ويبغضون المؤمنين عن بكرة أبيهم، وهو أمر باقٍ فيهم إلى أن تقوم الساعة، أما المؤمنون الصادقون، فإنهم يتحابون في الله، ويحبون إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويثنون عليهم، ويدعون لهم بالمغفرة، ولايجدون لهم أي حقد أو غل في صدورهم، أو حسد أو بغض، فهم يدعون الله أن يطهر قلوبهم من

الغل على إخوانهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «العقيدة الواسطية»: (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾)[1].

فسلامة قلوبهم أنهم يقولون: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠]، وسلامة ألسنتهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر:١٠].

وهذا هو قدر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في صدور المؤمنين، بخلاف المنافقين والرافضة الذين يبغضون صحابة رسول الله، ويسبونهم.

(١) انظر: العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٢).

وَمَنْ كَانَ بِهِمْ أَشْبَهَ كَانَ ذَلِكَ فِيهِ أَكْمَلَ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَدَّعُونَ الْمَحَبَّةَ[١]؟!

وَفِي كَلَامِ بَعْضِ الشُّيُوخِ[٢]: الْمَحَبَّةُ نَارٌ تُحَرِّقُ فِي الْقَلْبِ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ.

وَأَرَادُوا أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ قَدْ أَرَادَ اللهُ وُجُودَهُ[٣]، فَظَنُّوا أَنَّ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ أَنْ يُحِبَّ الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ[٤]، وَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحِبَّ كُلَّ مَوْجُودٍ[٥]، بَلْ يُحِبُّ مَا يُلَائِمُهُ وَيَنْفَعُهُ وَيَبْغُضُ مَا يُنَافِيهِ وَيَضُرُّهُ[٦]، وَلَكِنْ اسْتَفَادُوا بِهَذَا الضَّلَالِ اتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمْ[٧]،

الشَّرْح

[١] أي: من كان بالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أشبه، كانت محبة الله ورسوله وعباده الصالحين في قلبه أكمل.

[٢] يعني كلام بعض شيوخ الصوفية؛ أنهم يقولون: (**الْمَحَبَّةُ نَارٌ تُحَرِّقُ فِي الْقَلْبِ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ**)، حتى الكفر يقولون: (يحبه الله، ولو لم يحبه، لم يرده، ولم يقدره)، فلم يفرقوا بين القضاء والقدر وبين المحبة، ولم يعلموا أن الله يقدر ويخلق ما لا يحب؛ ابتلاء وامتحانًا، فقد قدر الكفر والشرك، وهو لا يحب ذلك، وقدر وجود المشركين والكفار، وهو لايحبهم، فلا علاقة بين المحبة وبين القضاء والقدر، إنما المحبة من لازم الشرع، فما شرعه الله، فإنه يحبه، وما قدره، فلا يلزم أنه يحبه.

[٣] ليس هناك شك أن الله أراد وجود الكون، لكن لا يحبه كله.

[٤] لأن الله خلقه، وأوجده، ولو لم يحبه، لم يخلقه، ولم يوجده؛ لأنهم لم يفهموا حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يفرقوا بين القدر والشرع.

[٥] كلامهم كما أنه يخالف الشرع، فإنه يخالف العقل -أيضًا-؛ إذ لايمكن لأحد أن يحب كل ما في الكون من الأشياء، بل يحب أصدقاءه وأقاربه، ويبغض أعداءه، ولا يحب العقارب والحيات والسباع والوحوش، ولا يحب السم، ولا يحب النار والأشياء المؤذية.

[٦] يحب ما يلائم نفسه وطبائعه، وأما ما يخالف طبيعته وذوقه أو يضره، فإنه يبغضه، هذا من حيث العقل، فكيف الشرع؟!

[٧] أي: هم يعلمون أن هذا لا يوافق العقول، ولكن يروجون هذا على الناس من أجل أن يحصلوا على ما يريدون من أطماعهم.

فَهُمْ يُحِبُّونَ مَا يَهْوَوْنَهُ كَالصُّوَرِ وَالرِّئَاسَةِ وَفُضُولِ المَالِ، وَالْبِدَعِ المُضِلَّةِ[١]، زَاعِمِينَ أَنَّ هَذَا مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ[٢].

وَمِنْ مَحَبَّةِ اللهِ بُغْضُ مَا يَبْغُضُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ[٣]، وَجِهَادُ أَهْلِهِ بِالنَّفْسِ وَالمَالِ.

الشَّرْح

[١] يقولون: نحن نحب كل ما في الكون، وهم إنما يحبون ما يوافق شهواتهم وأهواءهم، ويستغلون هذه الدعوى في تضليل الناس وخضوعهم لهم.

[٢] لأنه يحب هذه الأشياء -بزعمهم-، فنحن نحبها. وقد كذبوا في ذلك على الله؛ فإن الله لا يحب الكفر، ولا يحب الكفار، ولا يحب البدع والمحدثات.

[٣] فمحبة الله لها فروع، فتحب ما يحبه الله، ومن يحبه الله من الأعمال الصالحة والطاعات والقربات والعبادات وأهل الطاعات، وتكره ما يكرهه الله من الكفر والفسوق والعصيان والكفار والعصاة.

لكن الخلق أصناف:

منهم: من يبغض بغضًا خالصًا؛ كإبليس وفرعون وقادة الكفر، هؤلاء يبغضون بغضًا خالصًا لا محبة معه.

ومنهم: من يحب حبًّا خالصًا، لا بغض معه؛ كالملائكة والرسل والأولياء والصالحين؛ تحبهم محبة خالصة ليس معها بغض.

ومنهم: من يحب من جهة، ويبغض من جهة، وهو المسلم العاصي، والفاسق من المؤمنين، تحبه لما فيه من الإيمان، وتبغضه لما عنده من المعاصي والسيئات.

أما من يقول: (أنا أحب الله)، ومع هذا يحب ما يبغض الله، ومن يبغضهم الله، فهو كذاب.

وَأَصْلُ ضَلَالِهِمْ أَنَّ هَذَا الْقَائِلَ الَّذِي قَالَ: (إِنَّ الْمَحَبَّةَ نَارٌ تُحَرِّقُ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ) قَصَدَ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَى الْإِرَادَةَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: تُحَرِّقُ مِنْ الْقَلْبِ مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ للهِ، وَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ.

فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ الْحُبِّ أَنْ لَا يُحِبَّ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ اللهُ، فَإِذَا أَحْبَبْت مَا لَا يُحِبُّ كَانَتْ الْمَحَبَّةُ نَاقِصَةً، وَأَمَّا قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ فَهُوَ يَبْغُضُهُ، وَيَكْرَهُهُ، وَيَسْخَطُهُ، وَيَنْهَى عَنْهُ، فَإِنْ لَمْ أُوَافِقْهُ فِي بُغْضِهِ وَكَرَاهَتِهِ وَسُخْطِهِ لَمْ أَكُنْ مُحِبًّا لَهُ، بَلْ مُحِبًّا لِمَا يَبْغُضُهُ[١].

فَاتِّبَاعُ الشَّرِيعَةِ، وَالْقِيَامُ بِالْجِهَادِ مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ بَيْنَ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللهِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وَبَيْنَ مَنْ يَدَّعِي مَحَبَّةَ اللهِ[٢]، نَاظِرًا إِلَى عُمُومِ رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ مُتَّبِعًا لِبَعْضِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ دَعْوَى هَذِهِ الْمَحَبَّةِ للهِ مِنْ جِنْسِ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمَحَبَّةَ للهِ[٣]، بَلْ قَدْ تَكُونُ دَعْوَى هَؤُلَاءِ شَرًّا مِنْ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى[٤]؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ النِّفَاقِ الَّذِينَ هُمْ بِهِ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ[٥].

الشَّرْح

[١] إن كان القصد أن المحبة تحرق ما سوى ما يحبه الله شرعًا، فلا محذور في هذا القول. وأما إن قصد المحبة الكونية، فهذه ليس من لازمها المحبة والرضا.

[٢] قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤]، فلكونهم يحبون الله جاهدوا في سبيله؛ لإزالة ما يكرهه الله ويبغضه، وقدموا أنفسهم وأموالهم في سبيل ذلك، وهذا دليل صدق محبتهم لله، فهم يحبون الله حقًّا، بخلاف من يدعي محبته، ولم يقدم دليلًا على ذلك.

[٣] فاليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، مع أنهم يكفرون بالله، ويكفرون برسله، ويقتلون الأنبياء، فأين محبتهم لله عَزَّوَجَلَّ؟! فرد الله على اليهود والنصارى بما عندهم من الكفر والشرك ومعاداة أولياء الله، وقتلهم لبعض الأنبياء، فأين محبتهم لله؟! فالذي يحب الله يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويجاهد في سبيل الله، واليهود والنصارى يقولون: (نحن نحب الله)، ثم تقول النصارى: (الله ثالث ثلاثة)، تعالى الله عما يقولون!

وتقول اليهود: (يد الله مغلولة، الله فقير ونحن أغنياء)!

[٤] الصوفية يزعمون أنهم يحبون الله، ويقولون: (كل ما أراده الله، فهو يحبه)، فيقترفون المعاصي والذنوب، ويحبون الكفار، ويقولون: (لأن الله أوجدهم وخلقهم، فهذا دليل على محبة الله لهم، فنحن نحبهم لذلك)، ويغالطون في هذا، فهم أشد ضلالًا من اليهود والنصارى؛ لأن اليهود والنصارى لم يدعوا الإيمان بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، بل كفروا به، وهؤلاء

يدعون أنهم من أتباع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم مسلمون، وهم أشد ضلالًا من اليهود والنصارى.

[٥] أي: لما في الصوفية من النفاق، وهو النفاق الأكبر الاعتقادي، وهو: إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ولذلك صاروا في الدرك الأسفل من النار؛ فهم شر من اليهود والنصارى، وشر من المشركين وعبدة الأوثان؛ لأن الكفار صرحوا بكفرهم وعداوتهم لله ولرسوله، أما هؤلاء، فيدعي أحدهم أنه يؤمن بالله ورسوله، وهو كذاب، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩]، فالكفار والمشركون لم يخادعوا، ولم يدعوا الإيمان، بل صرحوا بالكفر، وأعلنوه، وهؤلاء ادعوا الإيمان، وأخفوا الكفر في قلوبهم، فهم شر من اليهود والنصارى ومن المشركين؛ ولذلك صاروا في الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيرًا، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤٦].

كَمَا قَدْ تَكُونُ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى شَرٌّ مِنْ دَعْوَاهُمْ إِذَا لَمْ يَصِلُوا إِلَى مِثْلِ كُفْرِهِمْ[١]. وَفِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ مَا هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهِ[٢]، حَتَّى إِنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ وَصَايَا النَّامُوسِ[٣].

فَفِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ الْمَسِيحَ قَالَ: (أَعْظَمُ وَصَايَا الْمَسِيحِ أَنْ تُحِبَّ اللهَ بِكُلِّ قَلْبِك وَعَقْلِك وَنَفْسِك)، وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ قِيَامَهُمْ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ[٤]، وَأَنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ هُوَ مِنْ ذَلِكَ، وَهُمْ بَرَاءٌ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ إِذْ لَمْ يَتَّبِعُوا مَا أَحَبَّهُ، بَلْ ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٢٨].

الشَّرْح

[١] اليهود والنصارى قد يكونون شرًا من المنافقين؛ للأعمال التي يمارسونها؛ من قتل الأنبياء، ومعاداتهم، فهم شر من المنافقين من هذا الوجه؛ لأن المنافقين يظهرون المسالمة، والإيمان بالأنبياء، فهم من هذا الوجه أخف من اليهود والنصارى.

[٢] في التوراة غير المحرفة والإنجيل غير المحرف من وجوب محبة الله والأمر بها الشيء الكثير.

[٣] الناموس: هو الوحي أو الملك.

[٤] النصارى يظهرون الزهد والتنسك والعبادة، حتى إنهم ابتدعوا الرهبانية في تعبدهم.

وهؤلاء الصوفية تركوا الأوامر، وفعلوا النواهي؛ لأنهم بزعمهم بلغوا مرتبة تسقط عنهم ذلك؛ فهم شر من النصارى.

وَاللهُ يَبْغُضُ الْكَافِرِينَ وَيَمْقُتُهُمْ، وَيَلْعَنُهُمْ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُحِبًّا للهِ وَاللهُ تَعَالَى غَيْرُ مُحِبٍّ لَهُ[١]؛ بَلْ بِقَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَكُونُ حُبُّ اللهِ لَهُ[٢]؛ وَإِنْ كَانَ جَزَاءُ اللهِ لِعَبْدِهِ أَعْظَمَ؛ كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ عَنْ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(١).

وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَالْمُحْسِنِينَ وَالصَّابِرِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، بَلْ هُوَ يُحِبُّ مَنْ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ.

الشَّرْح

[١] إن الصوفية غير صادقين في محبتهم لله؛ لأنهم لا يحبون ما يحب الله، ولا يبغضون ما يبغضه الله، فإن كانوا صادقين في محبتهم لله، فليبغضوا الكافرين، وليعادوهم؛ لأن الله عدو للكافرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]، فلو كانوا صادقين في محبتهم لله، ما أحبوا الكفار وهم أعداء الله، والله يبغضهم، ولو كانوا صادقين في محبة الله، لاتبعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢) (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم (٢٢) (٢٦٨٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢].

[٢] فإن كانت محبته لله خالصة، كانت محبة الله له خالصة، وإن كانت محبة العبد لربه ناقصة، كانت محبة الله للعبد ناقصة؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

كَمَا فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»(١) الحَدِيثَ[١].

وَكَثِيرٌ مِنْ المُخْطِئِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَشْيَاخًا فِي «الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ» وَقَعُوا فِي بَعْضِ مَا وَقَعَ فِيهِ النَّصَارَى: مِنْ دَعْوَى المَحَبَّةِ للهِ، مَعَ مُخَالَفَةِ شَرِيعَتِهِ، وَتَرْكِ المُجَاهَدَةِ فِي سَبِيلِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ[٢].

الشَّرْح

[١] الجزاء من الله للعبد أعظم مما يستحقه العباد؛ لأن الله يضاعف الأعمال؛ الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله، فالجزاء أكثر من العمل؛ تفضلًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما العذاب، فإنما يكون على قدر العمل، فإن الله لا يظلم أحدًا، فيعذبه بما لا يستحق، فجزاء السيئة سيئة واحدة؛ عدلًا من الله، وأما الحسنة، فجزاؤها عشر أو أكثر؛ فضلًا من الله.

كما في الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(٢)؛ بمعنى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجزي عبده أكثر من عمله؛ فضلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٩٠).

ثم قال الله: «**لَا يَـزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَـيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**»؛ بمعنى: أن الله يسدده في سمعه، وفي بصره، ويسدده في يده ورجله؛ فلا يستعمل هذه الحواس والجوارح، إلا فيما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيما ينفع العبد عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٢] أي: كثير من الصوفية الذين يدعون العبادة اتبعوا شيوخهم في ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، مع أنهم يدعون محبة الله، فهم مثل النصارى يدعون محبة الله، ويخالفون شرعه.

وَيَتَمَسَّكُونَ فِي الدِّينِ الَّذِي يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللهِ بِنَحْوِ مَا تَمَسَّكَ بِهِ النَّصَارَى مِنْ الْكَلَامِ الْمُتَشَابِهِ، وَالْحِكَايَاتِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ صِدْقُ قَائِلِهَا[١]،

الشَّرْح

[١] الصوفية أقرب الناس إلى النصارى؛ ولذلك قال أهل العلم: (إن الصوفية دبت إلى المسلمين من رهبانية النصارى)، وبعضهم يقول: (إنها دبت من براهمة الهند؛ حيث إن الهنود عندهم تقشف وزهد)، وعلى كل حال فإن الصوفية أصلها ضلال؛ لأنها مخالفة لما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيًا كان مصدرها، سواء من براهمة الهند، أو من رهبانية النصارى، فهي ضلال وبعد عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنها ليست متلقاة من دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا من شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما يعتمدون على المتشابه من الأدلة، والمتشابه لا يجوز العمل به حتى يرد إلى ما يوضحه ويفسره من المحكم؛ بخلاف طريقة أهل الزيغ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧].

قيل: إن الوقوف يكون على لفظ الجلالة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إذا أريد بتأويله كيفيته وما يؤول إليه في المستقبل، فهذا لا يعلمه إلا الله.

وقيل: إن الوقوف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ إذا أريد بالتأويل التفسير، فإن المتشابه يفسر بالمحكم، وهذه طريقة الراسخين في العلم؛ أنهم

يردون المتشابه إلى المحكم، ويفسرونه به؛ ولهذا سمى الله المحكم أم الكتاب، وأم الشيء ما يرجع إليه؛ أي: هو: الأصل الذي يرجع إليه الشيء[١]، فيرد المتشابه إلى المحكم، ويفسره ويوضحه؛ لأن كلام الله يفسر بعضه بعضًا، وكلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفسر بعضه بعضًا ويفسر القرآن، وهذه طريقة الراسخين في العلم؛ أنهم: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه كله كلام الله، فيفسر بعضه بعضًا[٢].

فالصوفية يعتمدون على المتشابه، ولا يردونه إلى المحكم، أو يعتمدون على حكايات مكذوبة، يتناقلونها عن فلان وفلان، أو على أحاديث مكذوبة على الرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يروونها وينشرونها، هذه طريقتهم، أو على رؤى وأحلام ومنامات، وهي طريقة أهل الزيغ وأهل الضلال دائمًا وأبدًا، لا يعتمدون على دليل صحيح، وإنما يعتمدون على هذه الشبهات.

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ١٧٠)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر في معنى المحكم والمتشابه: تفسير الطبري (٥/ ١٩٢- ٢٠١)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/ ٣٧٦- ٣٧٧)، وزاد المسير (١/ ٢٥٨- ٢٦٠)، والقرطبي (٤/ ٩- ١١)، وابن كثير (٢/ ٦- ٧).

وَلَوْ صَدَقَ لَمْ يَكُنْ قَائِلُهَا مَعْصُومًا[١]، فَيَجْعَلُونَ مَتْبُوعِيهِمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِينًا، كَمَا جَعَلَ النَّصَارَى قِسِّيسِيهِمْ وَرُهْبَانهمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِينًا[٢]، ثُمَّ إنَّهُمْ يَنْتَقِصُونَ الْعُبُودِيَّةَ وَيَدَّعُونَ أَنَّ الخَاصَّةَ يَتَعَدَّوْنَهَا[٣]؛ كَمَا يَدَّعِي النَّصَارَى فِي المَسِيحِ، وَيُثْبِتُونَ لِلْخَاصَّةِ مِنْ الْمُشَارَكَةِ فِي اللهِ مِنْ جِنْسِ مَا تُثْبِتُهُ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ وَأُمِّهِ، إلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ يَطُولُ شَرْحُهَا فِي هَذَا المَوْضِعِ[٤].

وَإِنَّمَا دِينُ الحَقِّ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ للهِ بِكُلِّ وَجْهٍ[٥]،

الشَّرْح

[١] أي: لو صدقت الحكاية ونحوها، فليست تشريعًا، ولا يجوز العمل بها؛ لأن صاحبها ليس معصومًا.

[٢] الصوفية (يَجْعَلُونَ مَتْبُوعِيهِمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِينًا، كَمَا جَعَلَ النَّصَارَى قِسِّيسِيهِمْ وَرُهْبَانهمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِينًا)؛ فالصوفية يتخذون مشايخهم أربابًا من دون الله، يشرعون لهم، ولا يرجعون إلى دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا إلى الكتاب والسنة، وإنما يرجعون إلى مشايخهم؛ فهم مثل النصارى يرجعون إلى أحبارهم ورهبانهم، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، هذا دين النصارى، ومثله دين الصوفية، ودين القبورية.

[٣] (ثُمَّ إِنَّهُمْ يَنْتَقِصُونَ الْعُبُودِيَّةَ وَيَدَّعُونَ أَنَّ الخَاصَّةَ يَتَعَدَّوْنَهَا)، يزعمون أنهم ترقوا، واستغنوا عن العبودية، ووصلوا إلى الله، وليسوا بحاجة إلى حرام وحلال، ولا إلى نبي؛ لأنهم وصلوا إلى الله، ويسمون أنفسهم خاصة الخاصة، أو العارفين بالله، أو ما أشبه ذلك من ألقابهم.

فهم لما اعتمدوا على طرق غير صحيحة، آلت بهم في النهاية إلى أن يتركوا العبادة، ويقولوا: (نحن وصلنا إلى الله وإلى الحقيقة، ولسنا بحاجة لا إلى نبي، ولا إلى شريعة، وإنما الشريعة للعوام الذين لم يصلوا إلى الله)!

[٤] (كَمَا يَدَّعِي النَّصَارَى فِي المَسِيحِ، وَيُثْبِتُونَ لِلْخَاصَّةِ مِنْ الْمُشَارَكَةِ فِي اللهِ مِنْ جِنْسِ مَا تُثْبِتُهُ النَّصَارَى فِي المَسِيحِ وَأُمِّهِ، إِلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ يَطُولُ شَرْحُهَا فِي هَذَا المَوْضِعِ)، والنصارى لا يعرفون إلا المسيح، فلا يعرفون الله، ولا يذكرون الله بشيء، وإنما يذكرون المسيح، ويعتقدون أنه المخلِّص، وأنه الرب، ويرددون في إذاعاتهم «كلمة الرب يسوع» أو «الابن»، فهم يزعمون أن المسيح هو «الرب»، أو «الابن»، وأنه هو الذي جاء خلص بني آدم من خطيئاتهم، وصبر على القتل والصلب، ودفن، ثم قام بعد ثلاثة أيام، وصعد إلى أبيه في السماء، وتلك خرافاتهم وحكاياتهم -والعياذ بالله!

ومثلهم الصوفية اتخذوا مشائخهم مشرعين لهم وأربابًا لهم.

[٥] فالدين الحق هو دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو عبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢].

الدين الحق هو دين الله الذي أنزله على رسله، وأمر به عباده من أول الرسل إلى آخرهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]، هذا هو الدين الحق، الذي لايقبل الله من أحد سواه، وهو دين الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

الإسلام هو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وهو بهذا التفسير دين جميع الرسل، كلهم جاءوا بأن يستسلم العبد لربه، ويعمل بأوامره، ويجتنب نواهيه، مستسلمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، منقادًا له.

هذا هو دين الله، وهو دين الإسلام، وما عداه من الأديان والمذاهب، فهي أديان باطلة، أو منسوخة بالإسلام، ومن لم يستسلم لله، فهو مستكبر، ومن استسلم له ولغيره، فهو مشرك، ومن استسلم لله وحده، فهو المسلم، وهذا هو الدين الحق، الذي أمر الله جَلَّ وَعَلَا به عباده، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، وقال: ﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف:٢٩]، وقال: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر:١٤]، وقال: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢].

وأساس هذا الدين الحق هو التوحيد، وأوامره ونواهيه هي الشريعة والمنهج الذي يسير عليه المسلمون.

ولهذا قال الشيخ: (**وَإِنَّمَا دِينُ الحَقِّ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ للهِ بِكُلِّ وَجْهٍ**)، فمن يعبد مع الله غيره، فإنه لا يحقق العبودية لله، بل هو مشرك، فليس هناك عبادة لله وعبادة لغيره، كل أنواع العبادات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لاشريك له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٤].

والآيات في هذا كثيرة لمن تأملها، وأراد أن يتتبعها، ويصغي إليها، ويتدبرها، لكن كثيرًا من الناس يقرؤون القرآن، وتمر عليهم الآيات، ولا يتدبرونها، ولا ينظرون ماذا تشتمل عليه، وإنما يقرؤون للبركة، ويعتمدون على ما شرعته لهم شياطين الإنس والجن.

وَهُوَ تَحْقِيقُ مَحَبَّةِ اللهِ بِكُلِّ دَرَجَةٍ[١]، وَبِقَدْرِ تَكْمِيلِ الْعُبُودِيَّةِ تَكْمُلُ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَتَكْمُلُ مَحَبَّةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ[٢]، وَبِقَدْرِ نَقْصِ هَذَا يَكُونُ نَقْصُ هَذَا[٣]؛ وَكُلَّمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللهِ كَانَتْ فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ،

الشرح

[١] وأساس العبادة محبة الله جَلَّوَعَلَا المحبة الخالصة بكل أنواع المحبة، لا يحبه، ويحب معه غيره، وإنما يحب الله وحده، ويحب من يحبه الله، ويحب ما يحبه الله؛ تبعًا لمحبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالعبادة أساسها على المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالمحبة هي أعظم أنواع العبادة، وهي أساسها، فليس هناك عبادة دون محبة للمعبود، لابد أن تكون العبادة مبنية على محبة المعبود، سواء كان المعبود حقًّا أو باطلًا، فما من أحد يعبد شيئًا، إلا وهو يحبه، ولو لم يحبه، لما عبده.

[٢] أي: كلما كملت المحبة لله، كملت العبودية له، وكلما نقصت المحبة لله في قلب العبد، نقصت عبوديته لله؛ فالمحبة هي الأساس، ولكن ليست هي العبادة وحدها -كما تقوله الصوفية-، وإنما معها الخوف والرجاء، ومعها أنواع العبادة كلها، وهي أساسها؛ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النونية»[(١)]:

(١) سبق عزوه (ص٣٩).

وَعِبَادَةُ الرِّحمنِ غَايَةُ حُبِّهِ مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطبَانِ
وَعَلَيهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
ومَدَارُهُ بالأمرِ أَمْرِ رسُولِهِ لَا بِالهَوَى والنَّفسِ وَالشَّيطَانِ

فالعبادة تدور على كمال الحب، مع كمال الذل للمحبوب.

[٣] أي: بقدر ما تنقص المحبة لله، تنقص العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَكُلَّمَا كَانَ فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ كَانَ فِيهِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ[١]، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لَا تَكُونُ للهِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ[٢].

الشَّرْح

[١] أي: كلما كان في القلب محبة لغير الله، كانت فيه عبودية لغير الله.

فالمشركون يحبون الله، ويعملون بعض أعمال العبادة: فهم يحجون، ويعتمرون، ويتصدقون، ولكنهم يحبون مع الله غيره من الأصنام والأحجار والأشجار، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فساووهم بالله في المحبة، فعبدوهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٢] كل عبادة لا تكون لله فهي باطلة، ولا تنفع صاحبها؛ لأنها مؤسسة على المحبة لغير الله، ويتبرأ المحبوب من المحب، والشريك من المشرك، والخليل من خليله يوم القيامة، إذا كانت الخلة والمحبة والعبادة على الباطل، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]، هذا كله سببه محبة غير الله عَزَّوَجَلَّ؛ فقد جرتهم إلى الشرك، وعبادة غير الله، ثم إن هؤلاء المحبوبين تبرؤوا منهم في أشد المواقف حرجًا، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، لا تبقى مودتهم بينهم، أما المحبوب لله وحده، فتبقى مودتهم

بينهم في الجنة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]، فالمحبة إذا كانت في الله، تبقى في الجنة، وإذا كانت في غير الله، تكون حسرة على صاحبها يوم القيامة.

قال بعض العلماء: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]؛ أي: المحبة.

وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ[١]. فَـ «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا»(١)[٢]، إِلاَّ مَا كَانَ للهِ[٣]، وَلاَ يَكُونُ للهِ إِلاَّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ المَشْرُوعُ[٤]؛ فَكُلُّ عَمَلٍ أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ اللهِ لَمْ يَكُنْ للهِ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللهِ لَمْ يَكُنْ للهِ[٥]،

الشرح

[١] كل عمل من أعمال العبادة والتقربات لا يراد به وجه الله -أي: لايكون خالصًا لله-، فهو باطل؛ لذلك فأعمال المشركين يوم القيامة ووقت الحاجة إليها:

- تكون هباءً منثورًا، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

- تكون كسراب بقيعة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور:٣٩].

- تكون كرماد اشتدت به الريح، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، والدارمي (٣٣١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٠)، من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَقُولُ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا».

دل هذا على أن المشركين لهم أعمال، ولكنها لما كانت لا يراد بها وجه الله، صارت هباءً منثورًا، لا تنفعهم بشيء يوم القيامة -نسأل الله العافية!

[٢] ومعنى: «ملعونة»؛ أي: مذمومة، فهي مذمومة إذا كانت لاتستعمل في طاعة الله، إما إذا كان يستعان بها على طاعة الله، فهي محمودة، والدنيا مزرعة للآخرة، فمن اتخذها وسيلة لعبادة الله، واستعان بها على طاعة الله، فإنه تكون الدنيا بالنسبة له محمودة، ومن عكس الأمر، واتخذ الدنيا لذاتها، ولم يستعن بها على عباد الله، ولم ينتفع بها في طاعة الله، فإنها تكون حسرة عليه يوم القيامة، ويخرج منها، وليس معه منها شيء، وقد جاء إلى الدنيا عاريًا، وخرج منها عاريًا، ليس معه منها شيء، ولو كان ترك أرصدة وعمارات وممتلكات الدنيا، فإنه يخرج منها ليس معه إلا الكفن الذي لايساوي خمسة دراهم، لكن لو أنه لما أغناه الله قدم لنفسه من هذه الدنيا صدقات، وقدمها في الخيرات في طاعة الله، وتقرب بها إلى الله، لوجدها أمامه، فليس له منها إلا ما قدم، وأما ما أخَّر، فهو للورثة، وفي الحديث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟**»[(١)]، وما عدا ذلك فهو تاركه.

[٣] وهذا معنى قوله: (إِلَّا مَا كَانَ للهِ)؛ أي: إلا ما استغل من الدنيا في طاعة الله، فإنه هو الذي يبقى له.

[٤] أي: فلا يصل إلى الله، ولا يقبل الله إلا ما كان خالصًا لوجهه، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا**

(١) أخرجه مسلم (٣) (٢٩٥٨) من حديث مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَىٰ اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦]، فالله لايقبل إلا ما كان خالصًا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان على وفق ما شرعه الله، أما أن تجعل شيئًا لله، والله لم يشرعه، ولم يأمرك به؛ فإنه لا يصل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٥] والذي لا يكون لله (**كُلُّ عَمَلٍ لَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللهِ لَمْ يَكُنْ للهِ**)؛ فالله لا يقبل إلا ما وافق شرعه، وما لم يشرعه، فهو مردود؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)]؛ أي: مردود عليه، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»[(٢)].

فلابد أن يكون العمل -من صدقات، وصلوات، وعبادات- موافقًا لما شرعه الله تعالى، لا حسب ما يهواه المرء.

فالإنسان قبل الشروع في العمل ينظر: هل هذا العمل موافق لشرع الله، أو مخالف؟ وهل هو مخلص لله فيه، أو غير مخلص؟ ثم يبني أعماله على هذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) واللفظ له، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بَلْ لَا يَكُونُ للهِ إِلَّا مَا جَمَعَ الْوَصْفَيْنِ[١]: **أَنْ يَكُونَ للهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِمَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ**[٢]، **وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ**[٣]؛ **كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠][٤].

الشَّرْح

[١] (**بَلْ لَا يَكُونُ للهِ إِلَّا مَا جَمَعَ الْوَصْفَيْنِ**)، والوصفان هما: الإخلاص؛ فلا يكون فيه شرك، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا يكون فيه بدعة، بهذين الشرطين يقبل الله العمل: ما كان خالصًا لوجه الله، صوابًا على سنة رسول الله؛ ولهذا فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، لم يقل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أيكم أكثر عملًا؛ لأن العبرة ليست بالكثرة، ولكن العبرة بالأحسن، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، قيل للفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: ما معنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ قال: «أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا، ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صوابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»(١).

[٢] أي: موافقًا لشرع الله؛ لأن الله لا يشرع شيئًا، إلا وهو يحبه، فمن لازم الشرع المحبة، وليس من لازم القدر المحبة -كما هو معلوم-؛ لأن الله قد يقدر الأشياء التي لا يحبها؛ ابتلاء وامتحانًا.

(١) سبق تخريجه (ص١٥٨).

[٣] والذي شرعه الله (**هُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ**) الموافق لشرع الله؛ إما أن يكون واجبًا، والواجب هو: ما يثاب فاعله، ويعاقب تاركه[(١)]، أو مستحبًّا، وهو: ما يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه؛ مثل السنن والمستحبات والنوافل[(٢)].

[٤] قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

هذان هما الشرطان:

الشرط الأول: أن يكون العمل صالحًا، ولا يكون صالحًا، إلا إذا كان وفق السنة، أما إن كان على خلاف السنة، فهو فاسد.

الشرط الثاني: أن يكون خالصًا لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]؛ لأن الإنسان قد يعمل أعمالًا صالحة موافقة للسنة، ولكن يدخلها الشرك في القصد والنية -كالرياء والسمعة، وطلب الدنيا، وغير ذلك-، فلا تنفع صاحبها، وقد يعمل أعمالًا مخالفة للسنة، فلا تقبل.

---

(١) انظر في تعريف الواجب: العدة في أصول الفقه (١/ ١٥٩)، والفقيه والمتفقه (١/ ١٩١)، والبرهان في أصول الفقه (١/ ١٠٦)، والمستصفي (ص٥٣)، وروضة الناظر وجنة المناظر (١/ ١٠٢)، وشرح مختصر الروضة (١/ ٢٦٥)، والبحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٢٣٣)، وشرح الكوكب المنير (١/ ٣٤٥).

(٢) انظر في تعريف المستحب: العدة في أصول الفقه (١/ ١٦٣)، والبرهان في أصول الفقه (١/ ١٠٧)، والمستصفي (ص٦٠)، وروضة الناظر وجنة المناظر (١/ ١٢٤)، وشرح مختصر الروضة (١/ ٣٥٣)، والبحر المحيط في أصول الفقه (١/ ٣٧٧)، وشرح الكوكب المنير (١/ ٤٠٣).

فَلَا بُدَّ مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ[١]، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢] [البقرة:١١٢]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(١)[٣].

الشَّرْح

[١] العمل الصالح هو الواجب والمستحب، يخرج بذلك العمل المحرم والمكروه، وأما المباح، فلا يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه، إلا إذا قصد به الاستعانة على طاعة الله.

[٢] دليل الشرطين قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة:١١٢]، هذان شرطا قبول العمل؛ ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ هذا الإخلاص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾؛ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما ما فقد الشرطين أو أحدهما، فلن يدخل به الجنة أبدًا، فدلت الآية على أنه لا يدخل الجنة إلا من اجتمع فيه الشرطان: الإخلاص، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣] والدليل من السنة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وفي لفظ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ

(١) سبق تخريجه (ص١٥٣).
(٢) سبق تخريجه (ص١٥٣).

فَهُوَ رَدٌّ»[1]؛ أي: من أحدث في الشرع عملاً لم يفعله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتقرب به إلى الله، فهو مردود عليه، لا يقبل منه، وفي الرواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**».

وهذه أعم، فمن عمل بدعة، ولو لم يكن هو الذي أحدثها، فهي مردودة عليه؛ فالبدعة إذًا مردودة، سواء أحدثها هو، أو أحدثت له، وعمل بها.

ومن الأدلة على اشتراط الإخلاص قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[2]، وهذا هو الشرط الأول.

ودليل الشرط الثاني قوله: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا**»، وهو المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا جمعنا الحديثين، نحصل على الشرطين.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١)[١].

الشرح

[١] ليس للمؤمن من عمله إلا ما نوى، لو تصدق بجبال من ذهب، فما له إلا ما نوى أنه لله، ولو كان فلسًا أو درهمًا، وما لم ينوِه، فليس له منه شيء؛ أي: إنَّ ما نواه المؤمن لله، فهو الذي يبقى له، ولو كان قليلًا، ولو كان شق تمرة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»(٢)، أما ما لم ينوِه لله، فهو مردود، ولو كان أمثال الجبال.

«**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، هذا مثال يشرح قوله: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»، فالهجرة مثال للعمل، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، وليست هجرته إلى الله ورسوله، وليس له بها أجر.

(١) سبق تخريجه الصفحة السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٦) (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ أَصْلُ الدِّينِ[١]، وَبِحَسَبِ تَحْقِيقِهِ يَكُونُ تَحْقِيقُ الدِّينِ[٢]، وَبِهِ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ[٣]، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَإِلَيْهِ دَعَا الرَّسُولُ[٤]، وَعَلَيْهِ جَاهَدَ[٥]، وَبِهِ أَمَرَ[٦]، وَفِيهِ رَغَّبَ[٧]؛

الشَّرْح

[١] أي: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ واتباع الرسول (هُوَ أَصْلُ الدِّينِ) الذي أرسل به الله الأنبياء والمرسلين، وأنزل به الشرع.

[٢] بحسب تحقيق الإخلاص لله والمتابعة يكون تحقيق الدين لله عَزَّوَجَلَّ، وبعدم إخلاصه ينتقص الدين، أو يبطل.

[٣] قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

هذا هو الأصل الذي أرسل الله به الرسل، وأنزلت به الكتب، وهذا هو رأس الدعوة، وأول ما يدعى إليه في منهج الدعوة.

فالمناهج التي تهمش التوحيد، ولا تدعو إليه مناهج باطلة، ولاتجدي شيئًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

[٤] أي: إلى هذا الأصل، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

[٥] أي: قاتل من لم يقبل التوحيد، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ،**

وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»[1]؛ فهو الأصل، وهو الأساس الذي أول ما يؤمر به، ويجاهد في سبيله.

[٦] أي: به أمر الله الناس.

[٧] أي: رغب الناس في الدخول فيه، فلا ينهى الداعية عن الربا وغيره من المعاصي ابتداء، وإنما يأتي ذلك في الدرجة الثاني، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أرسله لليمن: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إليهِ: شهادةُ أَنْ لَا إله إلَّا الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عليهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عليهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»**[2]، تدرج في الدعوة ابتداء بالأصل، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، أما أن ترغبهم في الصدق في المعاملة، والأخلاق الطيبة، وتجنب الربا، وتجنب الفواحش، فإنما يأتي ذلك بعد تحقيق الأصل، وهو التوحيد.

(١) سبق تخريجه (ص١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧، ١٣٩٥، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧)، ومسلم (١٩).

وَهُوَ قُطْبُ الدِّينِ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ رَحَاهُ[١].

وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النُّفُوسِ[٢]، وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «وَهُوَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»(١).

الشَّرْح

[١] فالإخلاص لله هو قطب الدين، والقطب هو الشيء الذي تدور عليه الأفلاك؛ كالقطب الجنوبي، والقطب الشمالي في السماء.

[٢] أي: الشرك كثير في الناس، والإخلاص قليل، والشرك نوعان: الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، ومنه الرياء والسمعة، ويخاف منه على الموحدين؛ فالمؤمن يسلم من الشرك الأكبر، لكنه قد لا يسلم من الشرك الأصغر، وهنا تكمن الخطورة.

وهو خفي كالنملة السوداء على الصفا السوداء في ظلمة الليل.

والشرك الخفي ليس سهلًا؛ فهو يحبط العمل، فإذا خالط الرياء والسمعة عملنا الذي نعمله، فإنه يصبح هباءً منثورًا؛ ولهذا تخوف منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٠).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ. كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَلَا أُعَلِّمُك كَلِمَةً إذَا قُلْتَهَا نَجَوْتَ مِنْ دِقِّهِ وَجِلِّهِ؟ قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أُشْرِكَ بِك وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُك لِمَا لَا أَعْلَمُ»[1][1].

وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا»[2][2].

الشرح

[١] وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأفضل الأمة، ومع هذا خاف على نفسه من الشرك الخفي، لما سمع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذر منه، فقال «يَا رَسُولَ اللهِ. كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ، وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَلَا أُعَلِّمُك كَلِمَةً إذَا قُلْتَهَا نَجَوْتَ مِنْ دِقِّهِ وَجِلِّهِ؟ قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أُشْرِكَ بِك وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُك لِمَا لَا أَعْلَمُ**»، فتدعو الله أن يعافيك منه، والله قريب مجيب، فعندما تقول هذه الكلمة بصدق وإخلاص وحضور قلب، يعافيك الله منه.

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخاف على نفسه من هذا الشرك، ويقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا»؛ يعني: صوابًا على السنة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٢)، وأبو يعلى (١/ ٦٠)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٧٢٣)، ابن السني في عمل اليوم والليلة (ص٢٥٠).

(٢) سبق تخريجه (ص١٥٨).

«وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا»؛ أي: سالمًا من الشرك، «وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا».

[٢] يأتي الشيطان إلى بعض الشباب -وهذا شيء سئلنا عنه كثيرًا-، ويقول له: (لا تصل مع الجماعة حتى لا تصاب بالرياء، لا تقم وتصل بالليل؛ حتى لا تصاب بالرياء، لا تعمل كذا خوفًا من الرياء)، فلا يلتفت إليه؛ فالمسلم يعمل الأعمال الصالحة، ويسأل الله السلامة من الرياء، ولا يترك العمل خوفًا من الرياء؛ فهذا تخذيل من الشيطان.

وَكَثِيرًا مَا يُخَالِطُ النُّفُوسَ مِنَ الشَّهَوَاتِ الخَفِيَّةِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهَا تَحْقِيقَ مَحَبَّتِهَا للهِ وَعُبُودِيَّتَهَا لَهُ، وَإِخْلَاصَ دِينِهَا لَهُ[١]؛ كَمَا قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: «يَا نَعَايَا الْعَرَبِ يَا نَعَايَا الْعَرَبِ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ، وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ»(١)[١].

وَقِيلَ لِأَبِي دَاوُد السِّجِسْتَانِيِّ: «وَمَا الشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ؟ قَالَ: حُبُّ الرِّئَاسَةِ»(٢).

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»(٣)[٢]، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فَبَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْحِرْصَ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي فَسَادِ الدِّينِ لَا يَنْقُصُ عَنْ فَسَادِ الذِّئْبَيْنِ الجَائِعَيْنِ لِزَرِيبَةِ الْغَنَمِ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ[٣]؛

الشَّرْح

[١] كثيرًا ما يخالط حب الشهوات النفوس، فكل إنسان يحب الشهرة، والمدح، والظهور، وهذا خطير جدًّا؛ لأنه من الرياء، ولكن يدفع الرياء

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٥٠)، والزهد لابن المبارك (ص ٢٩٣).

(٢) انظر: الطيوريات (٢/ ٤٠٥)، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٢/ ٢٦٩)، ومختصر تاريخ دمشق (١٠/ ١١١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، والنسائي (١١٧٩٦)، وأحمد (٢٥/ ٦٢)، والدارمي (٢٧٧٢).

بالإخلاص، وبالدعاء الذي علمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ كما يدفع -أيضًا- بالخوف من الرياء، فإذا خاف منه، سلم، ولكن إذا أمن من الرياء، فإنه يقع فيه.

[٢] الإنسان مغرم بحب المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]، فمحبة المال طبيعة وغريزة في الإنسان؛ كما أنه يتطلع الإنسان إلى الرفعة والشرف، وكل يحب الرفعة والشرف لنفسه، ولا يلام على مثل ذلك، لكن إذا طغى هذا الحرص على المال والشرف على حب الدين، وصار ضررًا على الإنسان، فإن حب المال يفسد الدين، ويتزايد أخذه للمال وطلبه له، ولو كان غصبًا أو نهبًا؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[(١)]. ففي ذلك تحذير من الحرص الشديد على المال.

وكذلك قد يقدم ثمنًا لنيل الشرف والرئاسة.

ولا بأس أن الإنسان يفعل الأسباب المباحة لطلب الرزق وتحصيل المال، ولكن يحذر من الحرص الشديد الذي يحمله على ارتكاب الحرام لأخذ المال، لكن إذا زاد حب المال في نفسه، فقد ينسى دينه؛ كالذئب إذا تمكن من الغنم، وهي في الزريبة -أي: في الحظيرة التي تجمعها-، ولاتقدر على الفرار

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٦) (١١٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**».

بسبب إحاطة الزريبة بها، فإن الذئب يفتك بها، كذلك الحرص على المال يتلف الدين.

هذا إذا كان ذئبًا واحدًا، فكيف إذا اجتمع معه ذئب الحرص على الشرف والرئاسة، فإن الفتك بالدين يكون أشد. وهذا مثل ضربه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتقريب المعنى.

[٣] كل يعرفه؛ أي: كل يعرف إفساد الذئبين الجائعين للغنم المحصورة في الزريبة، لكن قد يغيب عنهم أضرار الحرص على المال والشرف بالدين.

فَإِنَّ الدِّينَ السَّلِيمَ لَا يَكُونُ فِيهِ هَذَا الْحِرْصُ[١]، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ حَلَاوَةَ عُبُودِيَّتِهِ للهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ[٢]، وَبِذَلِكَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ للهِ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ[٣]؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

الشَّرْح

[١] وإنما يكون فيه حرص معتدل، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ**»(١). فالحرص المعتدل مطلوب، وإنما الحرص الجائر هو المنهي عنه؛ كما قيل(٢):

لا تحرِصَنْ فالحِرصُ ليس بزائدٍ ... في الرزق بل يُشْقِي الحَريص ويُتعِبُ

والمؤمن يحرص على دينه أكثر من حرصه على ماله؛ فلا يقدم على دينه شيئًا من الطمع الدنيوي.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤) (٢٦٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

(٢) البيت من القصيدة الزينبية لصالح بن عبد القدوس، وقيل: لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: حياة الحيوان الكبرى (١/ ٥١)، ونوادر الخلفاء (١/ ٢٦٣)، ومجاني الأدب في حدائق العرب (٤/ ٩٠).

[٢] وذلك لأن الإيمان الثابت في القلب إذا وجد المسلم حلاوته؛ فإنه لايقدم عليه شيئًا -لا مالًا، ولا شرفًا-؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[(١)].

فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة، فقد وجد حلاوة الإيمان، وليس كل مؤمن يجد حلاوة الإيمان؛ فالإيمان يتفاضل، يزيد وينقص، ولكن من بلغ هذه المرتبة، وجد حلاوة الإيمان؛ ولهذا لما سأل هرقل عظيم روما أبا سفيان عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن صفاته، ومن جملة أسئلته قال: «هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا،..... وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ القُلُوبِ»[(٢)]، فإنه لايرتد عنه، ولو قتل أو حرق.

[٣] إذا بلغ الإنسان مرتبة المخلصين لله عَزَّوَجَلَّ، فإنه يصرف الله عنه السوء والفحشاء؛ كما صرفها عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) سبق تخريجه (ص٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (٧٤) (١٧٧٣).

فَإِنَّ الْمُخْلِصَ للهِ ذَاقَ مِنْ حَلَاوَةِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ لِغَيْرِهِ[١]، وَمِنْ حَلَاوَةِ مَحَبَّتِهِ للهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ، إِذْ لَيْسَ عِنْدَ الْقَلْبِ لَا أَحْلَى وَلَا أَلَذُّ وَلَا أَطْيَبُ وَلَا أَلْيَنُ وَلَا أَنْعَمُ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمِّنِ عُبُودِيَّتَهُ للهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ، وَإِخْلَاصَهُ الدِّينَ لَهُ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي انْجِذَابَ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ، فَيَصِيرُ الْقَلْبُ مُنِيبًا إِلَى اللهِ خَائِفًا مِنْهُ رَاغِبًا رَاهِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٣٣][٢].

إِذْ الْمُحِبُّ يَخَافُ مِنْ زَوَالِ مَطْلُوبِهِ وَحُصُولِ مَرْغُوبِهِ، فَلَا يَكُونُ عَبْدًا للهِ وَمُحِبَّهُ إِلَّا بَيْنَ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧][٣].

الشرح

[١] إذا لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة، فقد تدركه الشهوات والشبهات، أما إذا بلغ هذه المرتبة؛ فإنه لا يدركه شيء من الشهوات والشبهات، ويكون ثابتًا ثبات الجبال الرواسي.

[٢] هذا هو القلب المنيب، قال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٣٣]؛ أي: راجع عائد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، معرض عما سواه.

[٣] كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ

﴿مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧]، المراد بذلك عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه وعزير عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين اتخذهم اليهود والنصارى أربابًا من دون الله، فقال الله: (إن هؤلاء الذين اتخذتموهم أربابًا من دوني هم من عبادي، يعبدونني، ويخافونني، ويدعونني)، فهم فقراء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: القرب من الله جَلَّوَعَلَا، ويتنافسون في ذلك؛ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فهم يجمعون بين الخوف والرجاء، ولا يأخذون الخوف فقط؛ فيقنطون من رحمة الله، ولا يأخذون الرجاء فقط، فيأمنون من مكر الله، بل يكونون بين الخوف والرجاء، وتلك طريق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ومن تبعهم.

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مُخْلِصًا لَهُ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَيُحْيِي قَلْبَهُ[١]، وَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ مِنْ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَيَخَافُ مِنْ حُصُولِ ضِدِّ ذَلِكَ؛ بِخِلَافِ الْقَلْبِ الَّذِي لَمْ يُخْلِصْ للهِ، فَإِنَّهُ فِي طَلَبٍ وَإِرَادَةٍ وَحُبٍّ مُطْلَقٍ، فَيَهْوَى مَا يَسْنَحُ لَهُ وَيَتَشَبَّثُ بِمَا يَهْوَاهُ، كَالْغُصْنِ أَيُّ نَسِيمٍ مَرَّ بِعِطْفِهِ أَمَالَهُ[٢]، فَتَارَةً تَجْتَذِبُهُ الصُّوَرُ الْمُحَرَّمَةُ وَغَيْرُ الْمُحَرَّمَةِ؛ فَيَبْقَى أَسِيرًا عَبْدًا لِمَنْ لَوْ اتَّخَذَهُ هُوَ عَبْدًا لَهُ، لَكَانَ ذَلِكَ عَيْبًا وَنَقْصًا وَذَمًّا[٣].

الشَّرْح

[١] إذا رزق الله عَزَّوَجَلَّ العبد الإخلاص، لا يضره شيء، مهما عرض له من الشهوات والشبهات والشدائد، فإن الله يثبته، وأما إذا كان في القلب نقص في الإخلاص، فإنه قد يتأثر بالعوارض من الشبهات والشهوات والمخاوف وغير ذلك، بحسب ما فيه من النقص.

[٢] فهو مثل: غصن الشجرة، كلما جاء نسيم من الهواء، أماله شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، فهو ليس ثابتًا، وكذلك القلب الذي ليس فيه الإخلاص، فإنه تميله العوارض.

[٣] يعني: يجذبه العشق، إذا رأى النساء المتبرجات في الأسواق والمحافل المختلطة، أو في العمل الوظيفي، فإنه ينجذب إليهن.

وقوله: (فَيَبْقَى أَسِيرًا عَبْدًا لِمَنْ لَوْ اتَّخَذَهُ هُوَ عَبْدًا لَهُ، لَكَانَ ذَلِكَ عَيْبًا وَنَقْصًا وَذَمًّا)؛ أي: يكون عبدًا لمن يحب من المال وغيره؛ ولذلك قال

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ، سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ، فَلا انْتَقَشَ**»[1].

كذلك الرجل إذا أعجبته المرأة وعشقها، صار عبدًا لها، يخضع لقولها ويحقق طلبها، يصير عبدًا لما يهواه؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ**﴾ [الجاثية:٢٣]؛ ما أملاه عليه هواه، أخذه، ولو كان حرامًا، هذا الذي يعبد هواه.

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٣).

وَتَارَةً يَجْتَذِبُهُ الشَّرَفُ وَالرِّئَاسَةُ[١]، فَتُرْضِيهِ الْكَلِمَةُ وَتُغْضِبُهُ الْكَلِمَةُ وَيَسْتَعْبِدُهُ مَنْ يُثْنِي عَلَيْهِ وَلَوْ بِالْبَاطِلِ، وَيُعَادِي مَنْ يَذُمُّهُ وَلَوْ بِالْحَقِّ[٢]. وَتَارَةً يَسْتَعْبِدُهُمُ الدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ،

الشَّرْح

[١] يجتذبه حب الشرف والرئاسة، فيطلبهما بأي ثمن، ولو على حساب دينه.

[٢] ومن خطر الحرص على الشرف والرئاسة أن يعجب الإنسان بنفسه إذا مدحه أحد بالباطل، ويغضب على من يذمه ولو بالحق؛ لأنه يريد الرئاسة والشرف، ويعجبه المدح ولو بالباطل، ويغمه التنقص ولو بحق، فهذا دليل على أنه يريد الشرف والرئاسة بأي ثمن، أما الذي لايريد الشرف والرئاسة، فإنه يكره المدح؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ**»[(١)]، فلا يقبل المدح في وجهه؛ لأن المدح يجعله يطغى، ويغتر بنفسه.

والذي يريد الحق يفرح بالنصيحة، ويفرح بالتنبيه على الخطأ؛ ولهذا يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَحِمَ اللهُ امْرَءًا أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي»[(٢)]، فاعتبر من بين له الخطأ كمن قدم له هدية.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) عَنْ هَمَّامِ بْنِ الحَارِثِ: «أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ، فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الحَصْبَاءَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ**».

(٢) انظر: تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل (١/ ٤٧٦)، ونثر الدر في المحاضرات (٢/ ٢٤)، ومُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِينْ (١/ ١٥٧).

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَسْتَعْبِدُ الْقُلُوبَ، وَالْقُلُوبُ تَهْوَاهَا فَيَتَّخِذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَيَتَّبِعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ[١].

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ خَالِصًا للهِ عَبْدًا لَهُ، قَدْ صَارَ قَلْبُهُ مُعْبِدًا لِرَبِّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بِحَيْثُ يَكُونُ اللهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَيَكُونُ ذَلِيلًا لَهُ خَاضِعًا، وَإِلَّا اسْتَعْبَدَتْهُ الْكَائِنَاتُ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَى قَلْبِهِ الشَّيَاطِينُ[٢]، وَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَصَارَ فِيهِ مِنَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لَا حِيلَةَ فِيهِ.

الشَّرْح

[١] قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

[٢] أي: من لم يكن عبدًا لله، صار عبدًا لهواه، وصار عبدًا للشيطان وعبدًا لشهواته، فالإنسان إما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره، لايمكن أن يكون إلا عبدًا، فمن ترك عبودية الله، ابتلاه الله بعبودية غيره -والعياذ بالله-؛ ولهذا لما ترك المشركون عبودية الله، ابتلوا بعبادة الأصنام والأشجار والأحجار والجمادات، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ ... فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

---

(١) سبق عزوه (ص٩١).

والرق: هو العبودية، فأنت مخلوق لعبودية الله، فإذا تركتها، صرت عبدًا لغير الله، ولابد من أنك عبد، مهما قلت: (إنك حر)، فأنت عبد مستعبد لله أو لغيره.

وعبودية الله شرف للإنسان، وهي الحرية الحقيقية، وأما عبودية الإنسان لغير الله، فهي مذلة ومهانة، ورق لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فلايحرر العبد من الهوى ومن الشهوات، لا يحررها من ذلك -عبوديتها للمخلوق- إلا أن يكون عبدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَالْقَلْبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ حَنِيفًا مُقْبِلًا عَلَى اللهِ مُعْرِضًا عَمَّا سِوَاهُ وَإِلَّا كَانَ مُشْرِكًا[١]. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠]. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم:٣٢][٢].

الشَّرْح

[١] القلب الحنيف معناه: المقبل على الله، المعرض عما سواه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠]. فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مقبلًا على الله بجميع قلبه وعمله واتجاهه، معرضًا عما سواه، والحنيفية ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: هي الإقبال على الله، والإعراض عما سواه.

فإذا لم يكن مقبلًا على الله، معرضًا عما سواه، وقع في الشرك بلاشك؛ لأنه عبد ولابد، فإما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغير الله، فليس هناك أحد من البشر ليس عبدًا، بل كل من في السماوات والأرض عبيد.

[٢] قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ [الروم:٣٠]، يقوله الله لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أمر لجميع الأمة: (أقم وجهك)؛ أي: أخلص نيتك وقصدك لله، وتلك هي الحنيفية، فمعنى قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾؛ أي: أخلص عملك، واتجاهك ومقصودك.

﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلًا على الله معرضًا عما سواه.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، وهي دين الإسلام ودين الفطرة ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: خلقهم عليها؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١).

فالأصل أن الإنسان على الفطرة السليمة، هكذا خلقه الله، غير أنه ينحرف بالتربية السيئة ودعاة السوء، فتغير الفطرة بسبب سوء التربية، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾، لم يقل: لا تبديل لمخلوق الله، فالمخلوق يغير ويبدل، ولكن خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا أحد يغيره، فالأصل أنه على الفطرة السليمة، لا أحد يجعله على غيرها عند إيجاده، ولكن يحصل التغير إن طرأ تغيير فيما بعد، فذلك على يد أهل الضلال.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: الفطرة هي الدين القيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هذه الحقيقة.

ثم قال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: حين يحصل الخطأ من الإنسان، فإنه ينيب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن كانت فطرته سليمة، ينيب إلى الله ويرجع إليه، إذا أخطأ.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقد عطفها الله على التقوى وهي منها؛ للاهتمام بها، مما يدل على أهمية الصلاة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:٣١]؛ الذين انحرفت فطرتهم، وعبدوا غير الله؛ من الأصنام، والأشجار،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥٣).

والأحجار، والشهوات، والأطماع، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الروم:٣٢]، فمن الطبيعي أن الناس إذا تركوا الدين الصحيح، فإنهم يبتلون بالأديان الباطلة، ولا يستقرون، ولا يجتمعون على دين، ولذلك فإن المشركين متفرقون في معبوداتهم، بخلاف الموحدين المسلمين، فدينهم واحد، وكلمتهم واحدة؛ لأن معبودهم واحد؛ أما المشركون، فكل واحد يريد صنمًا يعبده وحده، ويرى أنه أحسن من صنم غيره، ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢]؛ فهم لا يدركون أنهم مخطئون، بل كل يدعي أنه مصيب، ويفرح بما عنده من الباطل؛ فلا يرجع عنه، أما لو أن الإنسان إذا أخطأ، شك في أمره، فإنه حري أن يتوب، وأما إذا كان مقتنعًا بما هو عليه من الباطل وفرحًا به، فهذا لا يمكن أن يتوب -والعياذ بالله!

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ إبْرَاهِيمَ وَآلَ إبْرَاهِيمَ أَئِمَّةً[١] لِهَؤُلَاءِ الْحُنَفَاءِ الْمُخْلِصِينَ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ؛ كَمَا جَعَلَ فِرْعَوْنَ وَآلَ فِرْعَوْنَ أَئِمَّةَ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ.

قَالَ تَعَالَى فِي إبْرَاهِيمَ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣][٢].

وَقَالَ فِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص:٤١-٤٢].

الشَّرْح

[١] أي: قدوة لمن جاء بعده من الموحدين والحنفاء؛ كما قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤]، فهو إمام الموحدين، إلى أن تقوم الساعة، وكذلك أتباعه من الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا من ذريته أيضًا هم أئمة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]؛ فإبراهيم وأتباعه وذريته أئمة للمسلمين.

وكما جعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قدوة للموحدين، (جَعَلَ فِرْعَوْنَ وَآلَ فِرْعَوْنَ أَئِمَّةَ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ)، قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤١-٤٢]، ففرعون وأتباعه صاروا -والعياذ بالله- أئمة لأهل الضلال والشرك، وقادة لهم، يقودونهم إلى النار، وإبراهيم وآله قدوة لأهل التوحيد، يقودونهم إلى الجنة.

[٢] وقال تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣]، فكما أن الله اتخذ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خليلًا، وجعله إمامًا للمسلمين، فكذلك جعل الله من ذريته أئمة للمسلمين: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣].

وَهَذَا يَصِيرُ أَتْبَاعُ فِرْعَوْنَ[١] أَوَّلًا إِلَى أَنْ لَا يُمَيِّزُوا بَيْنَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَبَيْنَ مَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَاهُ؛ بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَى المَشِيئَةِ المُطْلَقَةِ الشَّامِلَةِ[٢]، ثُمَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ ؛

الشَّرْح

[١] أي: من أهل الضلال، وكل ضال، وكل كافر، وكل مشرك فهو من أتباع فرعون.

[٢] فأهل الضلال لا يفرقون بين ما شرعه الله وما قدر الله.

فما شرعه الله، فهو يرضاه ويحبه، وأما ما قضاه وقدره، فقد يرضاه الله ويحبه، وقد لايرضاه ولا يحبه؛ لأنه يقدر الخير والشر، ويقدر الكفر والإيمان، يقدر الهدى والضلال؛ فالمقضي والمقدر منه ما هو محبوب ومرضي، ومنه ما هو مكروه ومبغض ومسخوط، والله خلقه ابتلاءً وامتحانًا للعباد، وما شرعه الله، فهو مرضي له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهناك فرق بين الشرع والقدر؛ فالمشروع يحبه الله ويرضاه، وأما المقضي والمقدر، فقد يحبه، وقد لا يحبه.

وأهل الضلال لا يفرقون بينهما، ويقولون: (كل ما قدره، فهو يحبه)، فلايفرقون بين ما يشرعه الله وما يقدره الله، وهذا هو الضلال -والعياذ بالله-؛ لأنهم (**يَنْظُرُونَ إِلَى المَشِيئَةِ المُطْلَقَةِ الشَّامِلَةِ**)، ويقولون: (كل ما شاءه الله، فهو

يحبه)، فهم إذا كفروا، وعصوا الشرع، أطاعوا القضاء والقدر -بزعمهم-، والله يحب منهم ذلك، تعالى الله عما يقولون!!

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف:٢٨-٢٩]، فالذي أمر الله به هو الذي يرضاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويحبه.

بَلْ يَجْعَلُونَ وُجُودَ هَذَا وُجُودَ هَذَا[١]، وَيَقُولُ مُحَقِّقُوهُمْ الشَّرِيعَةُ فِيهَا طَاعَةٌ وَمَعْصِيَةٌ، وَالحَقِيقَةُ فِيهَا مَعْصِيَةٌ بِلَا طَاعَةٍ؛ وَالتَّحْقِيقُ لَيْسَ فِيهِ طَاعَةٌ وَلَا مَعْصِيَةٌ[٢]، وَهَذَا تَحْقِيقُ مَذْهَبِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الخَالِقَ وَأَنْكَرُوا تَكْلِيمَهُ لِعَبْدِهِ مُوسَى وَمَا أَرْسَلَهُ بِهِ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

وَأَمَّا إبْرَاهِيمُ وَآلُ إبْرَاهِيمَ الحُنَفَاءُ وَالْأَنْبِيَاءُ فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ، وَلَا بُدَّ مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ الطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَةِ. وَأَنَّ الْعَبْدَ كُلَّمَا ازْدَادَ تَحْقِيقًا ازْدَادَتْ مَحَبَّتُهُ للهِ وَعُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَطَاعَتُهُ لَهُ وَإِعْرَاضُهُ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَمَحَبَّةِ غَيْرِهِ وَطَاعَةِ غَيْرِهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الضَّالُّونَ يُسَوُّونَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.

وَالخَلِيلُ يَقُولُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧]، وَيَتَمَسَّكُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ كَلَامِ المَشَايِخِ كَمَا فَعَلَتْ النَّصَارَى.

مِثَالُ ذَلِكَ اسْمُ «الْفَنَاءِ»[٣]، فَإِنَّ «الْفَنَاءَ» ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: نَوْعٌ لِلْكَامِلِينَ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَنَوْعٌ لِلْقَاصِدِينَ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَنَوْعٌ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُلْحِدِينَ الْمُشَبِّهِينَ.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَهُوَ «الْفَنَاءُ عَنْ إرَادَةِ مَا سِوَى اللهِ» بِحَيْثُ لَا يُحِبُّ إلَّا اللهَ، وَلَا يَعْبُدُ إلَّا إيَّاهُ وَلَا يَتَوَكَّلُ إلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَطْلُبُ غَيْرَهُ؛ وَهُوَ المَعْنَى الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُقْصَدَ بِقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي يَزِيدَ حَيْثُ قَالَ: (أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ إلَّا مَا يُرِيدُ)؛ أَيْ الْمُرَادُ المَحْبُوبُ المَرْضِيُّ؛ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ.

وَكَمَالُ الْعَبْدِ أَنْ لَا يُرِيدَ، وَلَا يُحِبَّ، وَلَا يَرْضَى إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللهُ وَرَضِيَهُ وَأَحَبَّهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ اسْتِحْبَابٍ؛ وَلَا يُحِبُّ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ اللهُ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

الشَّرْح

[١] أي: ينتهي بهم عدم التفريق بين القدر والشرع إلى القول بوحدة الوجود، فيقولون: (الكون ليس فيه انقسام، كله هو الله، فليس هناك مخلوق وخالق، ولا عبد ورب، الكل شيء واحد هو الله)، تعالى الله عما يقولون!!

[٢] هذا تقسيم الصوفية، فهم يقسمون الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العامة، وهم أهل الشريعة، ولديهم طاعات ومعاصٍ.

القسم الثاني: الخاصة، وهم أهل الحقيقة، وهؤلاء ليس عندهم معاص، بل كل ما يصدر عنهم طاعات، حتى ولو كان زنًا أو سرقة؛ لأنه مقدر عليهم.

القسم الثالث: خاصة الخاصة، وهم أهل التحقيق، ليس عندهم طاعات ولا معاص؛ لأنهم وصلوا إلى الله، وسقطت عنهم التكاليف.

[٣] الفناء من مصطلحات الصوفية، والفناء في اللغة معناه: الاضمحلال وذهاب الشيء، بحيث لا يبقى منه شيء، هذا هو الفناء في اللغة[١].

ويريدون به أحد ثلاثة أمور: الفناء الشرعي، وفناء السوى، وفناء الوجود.

---

(١) انظر مادة (فنى) في: العين (٨/ ٣٧٦)، وتهذيب اللغة (١٥/ ٣٤٣)، والصحاح (٦/ ٢٤٥٧)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٥٣)، ولسان العرب (١٥/ ١٦٤).

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٩]، قَالُوا: هُوَ السَّلِيمُ مِمَّا سِوَى اللهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى عِبَادَةِ اللهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى إِرَادَةِ اللهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى مَحَبَّةِ اللهِ، فَالمَعْنَى وَاحِدٌ، وَهَذَا المَعْنَى إِنْ سُمِّيَ فَنَاءً أَوْ لَمْ يُسَمَّ هُوَ أَوَّلُ الْإِسْلَامِ وَآخِرُهُ، وَبَاطِنُ الدِّينِ وَظَاهِرُهُ[١].

الشَّرْح

[١] **الأول**: الفناء الشرعي، وهذا محمود، ومعناه: أنك لا تأخذ إلا ما جاء به الشرع، ولا تنظر إلى ما سواه، بل تتركه، وتبتعد عنه، وتعتبره كأنه غير موجود.

الثاني: فناء السوى، وهو عند الصوفية: إذا بلغ الإنسان غاية القرب من الله، فإنه لا ينشغل بالعبادة؛ لأنه وصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيفنى بمعبوده عن عبادته، وبمشهوده عن شهادته... إلى آخره.

الثالث: فناء الوجود، وهو الفناء عما سوى الله، وهذا قول أهل وحدة الوجود كابن عربي وغيره، يقولون: (ليس في الوجود إلا الله، فالله هو الوجود كله، السماوات والأرض والجبال والكلاب والحمير والآدميون... كلها هي الله، والذي يثبت موجودًا غير الله مشرك، فلاموجود إلا الله، والكون كله هو الله، ولو اعتقدت أن هناك خالقًا ومخلوقًا، تكون مشركًا عندهم، فغاية التوحيد عندهم هي الفناء عن الموجودات كلها، وأن تعتبر الوجود كله هو الله، وهذا ما يسمى بوحدة الوجود)، وهو أكفر مذاهب أهل الأرض -والعياذ بالله!

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ «الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى»[١]، وَهَذَا يَحْصُلُ لِكَثِيرٍ مِنْ السَّالِكِينَ[٢]؛ فَإِنَّهُمْ لِفَرْطِ انْجِذَابِ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْ تَشْهَدَ غَيْرَ مَا تَعْبُدُ وَتَرَى غَيْرَ مَا تَقْصِدُ؛ لَا يَخْطِرُ بِقُلُوبِهِمْ غَيْرُ اللهِ؛ بَلْ وَلَا يَشْعُرُونَ[٣]؛ إِلَّا بِهِ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠] قَالُوا: فَارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى.

وَهَذَا كَثِيرٌ يَعْرِضُ لِمَنْ دَهَمَهُ أَمْرٌ مِنْ الْأُمُورِ: إِمَّا حُبٌّ، وَإِمَّا خَوْفٌ، وَإِمَّا رَجَاءٌ، يَبْقَى قَلْبُهُ مُنْصَرِفًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا عَمَّا قَدْ أَحَبَّهُ، أَوْ خَافَهُ، أَوْ طَلَبَهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَ اسْتِغْرَاقِهِ فِي ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ بِغَيْرِهِ[٤].

الشَّرْح

[١] هذا زيادة إيضاح، فقوله: (وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَهُوَ «الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى»)؛ يعني: لا يرى غير الله جَلَّوَعَلَا.

[٢] يعني: الصوفية.

[٣] هو بهذا المعنى لا بأس به، ولكنه لفظ مبتدع.

[٤] هذا ما يسمى فناء السوى، لا يهتم إلا بما يرجو أو يخاف.

إِذَا قَوِيَ عَلَى صَاحِبِ الْفَنَاءِ هَذَا، فَإِنَّهُ يَغِيبُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، حَتَّى يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمُعْبَدَةُ مِمَّنْ سِوَاهُ[١] وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزُلْ وَهُوَ الرَّبُّ تَعَالَى. وَالْمُرَادُ فَنَاؤُهَا فِي شُهُودِ الْعَبْدِ وَذِكْرِهِ[٢]، وَفَنَاؤُهُ عَنْ أَنْ يُدْرِكَهَا أَوْ يَشْهَدَهَا.

وَإِذَا قَوِيَ هَذَا ضَعُفَ الْمُحِبُّ حَتَّى اضْطَرَبَ فِي تَمْيِيزِهِ فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ مَحْبُوبُهُ، كَمَا يُذْكَرُ: أَنَّ رَجُلًا أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْيَمِّ فَأَلْقَى مُحِبُّهُ نَفْسَهُ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَنَا وَقَعْتُ فَمَا أَوْقَعَكَ خَلْفِي قَالَ: غِبْتُ بِكَ عَنِّي، فَظَنَنْتَ أَنَّكَ أَنِي[٣]. وَ«هَذَا الْمَوْضِعُ» زَلَّتْ فِيهِ أَقْوَامٌ[٤]،

الشَّرْح

[١] إذا غلب عليه الفناء، فغاب بموجوده عن وجوده، وقال: (أنا لست موجودًا، ولا أحد موجود إلا الله جَلَّ وَعَلَا)، فهذا ضلال، فهناك موجودات وأشياء، ولكن من فرط تعلقهم بالله -بزعمهم- أصبح كأن لا يوجد في الكون إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فيترك العبادة، ويتعلق بالله بزعمه، ويزعم أنه لا فائدة من العبادة؛ لأن المقصود منها حصل، وهو معرفة الله والوصول إليه، وإذا وصل إلى هذه الغاية، اكتفى بذلك.

وعلى كل حال البدع لا تأتي إلا بالشر مهما كان، ومآلها إلى الشر.

[٢] كأنه لا يراها، ولا يذكرها أبدًا.

[٣] لما سقط محبوبه في البحر، أسقط نفسه معه، ولما سأله الساقط: (أنا وقعت، فما أوقعك خلفي؟)، قال له: (ظننتك أنا).

[٤] أي: هلكت بسببه أقوام، وهو في بدايته قد يكون مقبولًا إلى حد ما، ولكن في نهايته يصير ضلالًا.

وَظَنُّوا أَنَّهُ اتِّحَادٌ، وَأَنَّ المُحِبَّ يَتَّحِدُ بِالمَحْبُوبِ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ فِي نَفْسٍ وُجُودِهِمَا، وَهَذَا غَلَطٌ؛ فَإِنَّ الخَالِقَ لَا يَتَّحِدُ بِهِ شَيْءٌ أَصْلًا، بَلْ لَا يَتَّحِدُ شَيْءٌ بِشَيْءٍ، إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَا وَفَسَدَا، وَحَصَلَ مِنَ اتِّحَادِهِمَا أَمْرٌ ثَالِثٌ، لَا هُوَ هَذَا وَلَا هَذَا[١]؛ كَمَا إِذَا اتَّحَدَ المَاءُ وَاللَّبَنُ، وَالمَاءُ وَالخَمْرُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ[٢].

وَلَكِنْ يَتَّحِدُ المُرَادُ وَالمَحْبُوبُ[٣] وَالمُرَادُ وَالمَكْرُوهُ، وَيَتَّفِقَانِ فِي نَوْعِ الْإِرَادَةِ وَالْكَرَاهَةِ، فَيُحِبُّ هَذَا مَا يُحِبُّ هَذَا، وَيَبْغُضُ هَذَا مَا يَبْغُضُ هَذَا، وَيَرْضَى مَا يَرْضَى، وَيَسْخَطُ مَا يَسْخَطُ، وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِي، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِي، وَهَذَا الْفَنَاءُ كُلُّهُ فِيهِ نَقْصٌ.

وَأَكَابِرُ الْأَوْلِيَاءِ -كَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ- لَمْ يَقَعُوا فِي هَذَا الْفَنَاءِ[٤]، فَضْلًا عَمَّنْ هُوَ فَوْقَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَعْدَ الصَّحَابَةِ.

الشَّرْح

[١] فالموجودان لا يمكن أن يتحدا وأن يكونا شيئًا واحدًا أبدًا ما داما قائمين بأنفسهما؛ فلا يمكن أن يندمجا ويصيرا شيئًا واحدًا؛ كما تقوله الصوفية: (فظننت أنك أنا).

[٢] يعني: إذا اختلطا، فلا يسمى الخليط ماءً ولا خمرًا.

[٣] يعني: أن اتحاد الذوات لا يمكن أبدًا، إلا إذا فنيت هذه الذات، وزال تركيبها، وخلطت مع مادة أخرى، وتكون منهما شيء ثالث، وأما اتحاد

الصفات في الذات -كالمحبة والكراهة-، فيمكن؛ حيث إنك لاتحب إلا ما يحب حبيبك، ولا تكره إلا ما يكره حبيبك، وقد يكون ذلك حقًّا، وقد يكون ذلك باطلًا.

[٤] لم يعرف هذا الفناء عند السلف، وإنما عرف عند من بعدهم من الصوفية، وهو من مصطلحاتهم، ومن أراد أن يطلع على شيء من هذا، فليطالع «مدارج السالكين شرح منازل السائرين» لابن القيم، و«المتن» لأبي إسماعيل الهروي، وقد أراد ابن القيم أن يخلص هذا الكتاب من الزلات والأخطاء التي وقعت في هذا الكتاب، ولكنه أحيانًا يعجز عن تخليصه.

وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ مِمَّا فِيهِ غَيْبَةُ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزُ لِمَا يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ أَحْوَالِ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا أَكْمَلَ وَأَقْوَى وَأَثْبَتَ فِي الْأَحْوَالِ الْإِيمَانِيَّةِ مِنْ أَنْ تَغِيبَ عُقُولُهُمْ، أَوْ يَحْصُلَ لَهُمْ غَشْيٌ أَوْ صَعْقٌ أَوْ سُكْرٌ أَوْ فَنَاءٌ أَوْ وَلَهٌ أَوْ جُنُونٌ[١]. وَإِنَّمَا كَانَ مَبَادِئُ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي التَّابِعِينَ مِنْ عُبَّادِ الْبَصْرَةِ[٢]، فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُغْشَى عَلَيْهِ إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ[٣].

الشَّرْح

[١] كما يحصل للصوفية من ذلك.

[٢] فأول ما حصل التصوف في عباد أهل البصرة، فهم الذين ابتدؤوا التصوف، وكان أوله عبادة وزهدًا، وكان عندهم اعتدال وخشوع وخوف من الله، وعندهم اتباع للكتاب والسنة، ولكن تطور التصوف فيمن بعدهم، حتى وصل إلى الضلال وإلى الكفر.

وكذلك البدع، وإن كانت في أولها صغيرة، فإنها تؤول إلى الشر.

فالذي يريد الخير، ويريد الحق والسلامة، يتمسك بالكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح.

[٣] أي: من عباد البصرة من يحصل له ذلك، والصحابة كانوا يسمعون القرآن، ولا يغشى عليهم، ولا يموت منهم أحد؛ لقوة إيمانهم، وقوة يقينهم، كانوا يبكون، وكانوا يخشعون، ويتأثرون، ولكن لم يكن يغشى عليهم أو يموتون.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ: كَأَبِي جَهِيرٍ الضَّرِيرِ وَزُرَارَةَ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَاضِي الْبَصْرَةِ.

وَكَذَلِكَ صَارَ فِي شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ مَنْ يَعْرِضُ لَهُ مِنْ الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ مَا يَضْعُفُ مَعَهُ تَمْيِيزُهُ، حَتَّى يَقُولَ فِي تِلْكَ الحَالِ مِنْ الْأَقْوَالِ مَا إذَا صَحَا عَرَفَ أَنَّهُ غَالِطٌ فِيهِ، كَمَا يُحْكَى نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ مِثْلِ أَبِي يَزِيدَ، وَأَبِي الحَسَنِ الثَّوْرِيِّ، وَأَبِي بَكْرٍ الشِّبْلِيِّ، وَأَمْثَالِهِمْ، بِخِلَافِ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيِّ، وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِيِّ، وَالْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ[١]؛ بَلْ وَبِخِلَافِ الْجُنَيْدِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ كَانَتْ عُقُولُهُمْ وَتَمْيِيزُهُمْ يَصْحَبُهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ، فَلَا يَقَعُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِهِ، بَلْ الْكُمَّلُ تَكُونُ قُلُوبُهُمْ لَيْسَ فِيهَا سِوَى مَحَبَّةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَعِنْدَهُمْ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ مَا يَشْهَدُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، بَلْ يَشْهَدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ مُدَبَّرَةً بِمَشِيئَتِهِ، بَلْ مُسْتَجِيبَةً لَهُ قَانِتَةً لَهُ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهَا تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى، وَيَكُونُ مَا يَشْهَدُونَهُ مِنْ ذَلِكَ مُؤَيِّدًا، وَمُمِدًّا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إخْلَاصِ الدِّينِ، وَتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لَهُ، وَالْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ[٢].

الشَّرْح

[١] أي: بخلاف قدماء الصوفية، فهؤلاء المذكورون معروفون بالعبادة والزهد والتقوى واتباع الكتاب والسنة، ولكن من جاء بعدهم هو الذي انزلق في التصوف.

والسلامة في اتباع الكتاب والسنة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، عَضوا عَلَيْهَا بِالنَوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُل مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُل بِدْعَةٍ ضَلالةٌ**»(١).

هذه وصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنتمسك بالكتاب والسنة وما عليه السلف، ولا ننزلق في هذه الأمور، فقد تكون في أول أمرها فيها شيء من الخير، ولكن تنمو وتزداد بعد ذلك، ويطرأ عليها ما يطرأ من الضلال؛ كما حصل للمتصوفة والعباد، فالصوفية فيهم ناس في الأصل طيبون، مثل إبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، والفضيل بن عياض، ولكن تطور الأمر فيمن بعدهم.

[٢] ولا يقولون: (إنها ليس لها وجود، ولا موجود إلا الله، كما تقوله الاتحادية من ضلال المتصوفة)، فالكائنات كلها آيات قائمة بذاتها: السماوات، والأرض، والبحار، والجبال، والرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، كلها من آيات الله الكونية، يتبصر بها الإنسان، ويعرف بها عظمة الله وقدرته ورحمته، فهي ليست كما يقول الصوفية، ليس لها وجود، ويعتبرون من العبادة أن لا ترى إلا الله.

(١) سبق تخريجه (ص١٤٩).

وَهَذِهِ «الحَقِيقَةُ» الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَقَامَ بِهَا أَهْلُ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، وَالْكُمَّلُ مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَامُ هَؤُلَاءِ وَأَكْمَلُهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَعَايَنَ مَا هُنَالِكَ مِنْ الْآيَاتِ وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى مِنْ أَنْوَاعِ الْمُنَاجَاةِ، أَصْبَحَ فِيهِمْ، وَهُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ، وَلَا ظَهَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ[١]، بِخِلَافِ مَا كَانَ يَظْهَرُ عَلَى مُوسَى مِنْ التَّغَشِّي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِم وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ-[٢].

الشَّرْح

[١] أي: لم يظهر على الرسول لما رأى من آيات ربه الكبرى لا سكر ولا تغش، وإنما زاده هذا إيمانًا بالله ويقينًا بالله وثباتًا على دينه، ولم يتغير حاله إلى سكر أو تغش أو غير ذلك، إنما هذا من الشيطان.

[٢] وذلك لما تجلى الله للجبل، فجعله دكًّا، خر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صعقًا؛ أي: مغشيًا عليه من المشهد الذي رآه، فلما أفاق، قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فهذا من شدة الهول الذي رآه؛ من تجلي الله للجبل، وانهيار الجبل من عظمة الله.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ: مِمَّا قَدْ يُسَمَّى فَنَاءً[١]: فَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنْ لَا مَوْجُودَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ وُجُودَ الخَالِقِ هُوَ وُجُودُ المَخْلُوقِ[٢]، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ فَهَذَا فَنَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ[٣] الْوَاقِعِينَ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ[٤].

الشَّرْح

[١] النوع الثالث من أنواع الفناء: «فناء الموجودات»، فهم يقولون: (لا موجود إلا الله، فالوجود كله هو الله، ليس هناك خالق ومخلوق، وإنما الوجود كله هو الله جَلَّ وَعَلَا)، وهذا مذهب أهل وحدة الوجود؛ كما سبق.

[٢] وهذا النوع الباطل، وهو مذهب أهل وحدة الوجود الذين يقولون: (إن «لا إله إلا الله»؛ أي: لا موجود إلا الله)، فالذي يرى أن هذا الكون فيه موجود آخر مشرك عندهم، وأما من يرى أن الكون كله هو الله؛ ليس هناك مخلوق وخالق، فهو الموحد عندهم -نسأل الله العافية-، وهذا كفر وضلال وإلحاد؛ إذ يرون أنه لا فارق بين الخالق والمخلوق، وأن أي شيء عبدته، فقد عبدت الله؛ لأنه هو الله؛ فلو تعبد الكلب، وتعبد القط، وتعبد البقر، وتعبد الشمس والقمر، كلها هي الله.

ومن ترك دين الأنبياء، وقع في مثل هذا، ومن ترك الحق، وقع في الباطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

وتوحيد الأنبياء والمرسلين، هو معنى «لا إله إلا الله»، قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل:٢]، فينبغي لطالب العلم أن يعرف هذه الأمور؛

لأنهم يروجونها على الناس؛ فالذي ليس عنده بصيرة ربما يعتقد صحتها، ولا سيما وأنها تصدر من أناس عباد، ويتمسحون بالعلم، فيغتر بهم الجاهل.

[٣] وهو أشد أنواع الضلال، ولم يقل بهذا أحد غيرهم.

[٤] الحلول: أن يعتقد أن الله حال في كل شيء؛ أي: حال في كل المخلوقات.

والاتحاد: هو أن يعتقد أن كل شيء هو الله.

فالاتحاد أشد ضلالًا وكفرًا من الحلول.

وَهَذَا يَبْرَأُ مِنْهُ المَشَايِخُ، إِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: مَا أَرَى غَيْرَ اللهِ، أَوْ لَا أَنْظُرُ إِلَى غَيْرِ اللهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ فَمُرَادُهُمْ بِذَلِكَ مَا أَرَى رَبًّا غَيْرَهُ، وَلَا خَالِقًا غَيْرَهُ وَلَا مُدَبِّرًا غَيْرَهُ، وَلَا إِلَهًا لِي غَيْرَهُ[١]، وَلَا أَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ مَحَبَّةً لَهُ أَوْ خَوْفًا مِنْهُ أَوْ رَجَاءً لَهُ، فَإِنَّ الْعَيْنَ تَنْظُرُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْقَلْبُ؛ فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ أَوْ خَافَهُ، الْتَفَتَ إِلَيْهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ مَحَبَّةٌ لَهُ، وَلَا رَجَاءٌ لَهُ، وَلَا خَوْفٌ مِنْهُ، وَلَا بُغْضٌ لَهُ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ لَهُ، لَمْ يَقْصِدْ الْقَلْبُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ، وَلَا أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَلَا أَنْ يَرَاهُ، وَإِنْ رَآهُ اتِّفَاقًا رُؤْيَةً مُجَرَّدَةً، كَانَ كَمَا لَوْ رَأَى حَائِطًا وَنَحْوَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ تَعَلُّقٌ بِهِ.

الشَّرْح

[١] فمقصود المصنف بالمشايخ: المشائخ المستقيمون من أهل التصوف، الذين عندهم استقامة وعبادة، ولم يصلوا إلى هذا الضلال.

فإذا قال أحد المشايخ المستقيمين: (لا أرى إلا الله)، ليس معناه أنه ليس في الكون إلا الله، ولا موجود إلا الله -كما تقوله الاتحادية-، وإنما معناه: أنه لا يعبد إلا الله، ويتبرأ مما سواه؛ فهو المستحق للألوهية، فيفسر كلامه بالتفسير الصحيح، ولا يفسر بقول أهل وحدة الوجود.

فمعنى «لا أرى غير الله»؛ أي: لا أرى مدبرًا غير الله، ولا إلها غير الله، ولا مالكًا غير الله...، وهذا المعنى الصحيح.

وَالمَشَايِخُ الصَّالِحُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَذْكُرُونَ شَيْئًا مِنْ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقِ إِخْلَاصِ الدِّينِ كُلِّهِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُلْتَفِتًا إِلَى غَيْرِ اللهِ وَلَا نَاظِرًا إِلَى مَا سِوَاهُ[١]: لَا حُبًّا لَهُ، وَلَا خَوْفًا مِنْهُ، وَلَا رَجَاءً لَهُ بَلْ يَكُونُ الْقَلْبُ فَارِغًا مِنْ المَخْلُوقَاتِ خَالِيًا مِنْهَا لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا إِلَّا بِنُورِ اللهِ، فَبِالحَقِّ يَسْمَعُ وَبِالحَقِّ يُبْصِرُ وَبِالحَقِّ يَبْطِشُ وَبِالحَقِّ يَمْشِي، فَيُحِبُّ مِنْهَا مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيَبْغُضُ مِنْهَا مَا يَبْغُضُهُ اللهُ، وَيُوَالِي مِنْهَا مَا وَالَاهُ اللهُ، وَيُعَادِي مِنْهَا مَا عَادَاهُ اللهُ، وَيَخَافُ اللهَ فِيهَا وَلَا يَخَافُهَا فِي اللهِ، وَيَرْجُو اللهَ فِيهَا وَلَا يَرْجُوهَا فِي اللهِ،

الشَّرْح

[١] المشائخ الصالحون إذا قال أحدهم: (أنا لا أرى إلا الله)، فمعناه: أنه لا يرى خالقًا ولا معبودًا حقًّا، ولا محبوبًا حقًّا، إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليس معنى «لا أرى إلا الله» أن المخلوقات كلها هي عين وجود الله جَلَّ وَعَلَا.

[٢] كما قال جَلَّ وَعَلَا في الحديث القدسي: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يبْصِرُ بِهِ، ويَدهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ التي يَمْشي بِهَا، وإنْ سَأَلَني لأعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتعَاذَنِي لأعيذَنَّهُ**»[(١)].

فمن حقق التوحيد، فالله معه معية نصرة وتأييد، معية خاصة، وليس المعنى أن الله حالٌّ فيه، في سمعه وبصره -تعالى الله-، وإنما المعنى: أن الله يحفظه ويسدده في حواسه وسمعه وبصره؛ فلا يسمع إلا ما يرضي الله،

(١) سبق تخريجه (ص٣٩٠).

ولا يبصر إلا ما يرضي الله، ولا يمشي إلا إلى طاعة الله، ولا يأخذ ويعطي بيده إلا في طاعة الله وما يحبه الله.

فالله يحب الأعمال الصالحة، ويبغض الكفر والشرك والمعاصي، فالمؤمن يحب ما يحبه الله من الطاعات، ويبغض ما يبغضه الله من المعاصي والشرك والكفر، وكذلك يحب من الأشخاص من يحبه الله من عباده وأوليائه الصالحين، ويبغض من أبغضه الله من الكافرين والمنافقين.

فَهَذَا هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الحَنِيفُ الْمُوَحِّدُ الْمُسْلِمُ الْمُؤْمِنُ الْعَارِفُ الْمُحَقِّقُ الْمُوَحِّدُ بِمَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَبِحَقِيقَتِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ[١].

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ: وَهُوَ الْفَنَاءُ فِي الْمَوْجُودِ[٢]: فَهُوَ تَحْقِيقُ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَعْرِفَتُهُمْ وَتَوْحِيدُهُمْ كَالْقَرَامِطَةِ وَأَمْثَالِهِمْ[٣].

وَأَمَّا النَّوْعُ الَّذِي عَلَيْهِ أَتبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ: فَهُوَ «الْفَنَاءُ الْمَحْمُودُ» الَّذِي يَكُونُ صَاحِبُهُ بِهِ مِمَّنْ أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ، وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ.

وَلَيْسَ مُرَادُ الْمَشَايِخِ وَالصَّالِحِينَ بِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الَّذِي أَرَاهُ بِعَيْنِي مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ هُوَ رَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي غَايَةِ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ؟ إِمَّا فَسَادُ الْعَقْلِ؛ وَإِمَّا فَسَادُ الِاعْتِقَادِ. فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْجُنُونِ وَالْإِلْحَادِ.

الشَّرْح

[١] القلب السليم هو: القلب السالم من كل قصد سيء والمتعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا بغيره، فلا يخاف إلا الله، ولا يخاف المخلوقين، ولا يرجوهم، وإنما يخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويرجوه، ولا يتعلق قلبه بالمخلوقين، وإنما يتعلق قلبه بالله، فهو مع الله دائمًا وأبدًا.

[٢] هذا مذهب أهل وحدة الوجود، وهو مذهب فرعون وأتباعه؛ حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

فهم يقولون: (إن المخلوقات هي الله)، وهو مذهب أهل وحدة الوجود، الذين يجعلون المخلوقات هي الله -تعالى الله عما يقولون-؛ ولهذا يقولون: (إن فرعون موحد، ولكنه حصر الربوبية فيه، فيكون توحيده ناقصًا، ولو أنه عمم، وقال: كل الموجودات هي الله، لكان هذا هو التحقيق)، تعالى الله عما يقولون!!

فالموحد الذي لا يعبد إلا الله عندهم مشرك، فالمشرك عندهم موحد، والموحد مشرك.

[٣] القرامطة من باطنية الشيعة[1]: خرجوا على المسلمين في مكة، وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام، وألقوهم في بئر زمزم، واقتلعوا الحجر الأسود، وذهبوا به إلى وطنهم هجر، وبقي عندهم مدة.

(١) هم أحد فرق الإسماعيلية، وهي حركة باطنية هدّامة تنتسب إلى شخص اسمه حمدان بن الأشعث، ويلقب بقرمط لقصر قامته وساقيه وهو من خوزستان في الأهواز ثم رحل إلى الكوفة، وكان ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية. وقد غلت هذه الفرقة في أسماء الله وصفاته، وبالغوا في نفيها وتأويلها، حتى قالوا: إنه لا يُقال إن الله موجْود ولا معدوم، بل قالوا: إنه لا يُعبر عنه بالحروف، وقد جعلوا تأويلها أن المراد بها كلها إمام الزمان عندهم، وهو عندهم المسمى الله، والمراد بلا إله إلا الله. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٢٦)، وتلبيس إبليس (ص١٢٦-١٢٨)، وفضائح الباطنية (ص١٢).

وَكُلُّ المَشَايِخِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الدِّينِ مُتَّفِقُونَ عَلَى مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مِنْ أَنَّ الخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ[١]، وَلَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ إِفْرَادُ الْقَدِيمِ عَنْ الحَادِثِ؛ وَتَمْيِيزُ الخَالِقِ عَنْ المَخْلُوقِ. وَهَذَا فِي كَلَامِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُمْكِنَ ذِكْرُهُ هُنَا.

الشَّرْح

[١] اعتقاد أهل السنة والجماعة، وجميع طوائف المسلمين، حتى أهل الضلال من الفرق المنحرفة أيضًا لا يرون أن الله حالٌّ في المخلوقات، ولا أن المخلوقات حالّةٌ في الله، وإنما يرون أن الله مباين للمخلوقات.

وأهل السنة يقولون: (إن الله بائن من خلقه مستوٍ على عرشه)؛ أي: ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا رد على الحلولية والاتحادية الذين يقولون: (إن الله هو هذا الكون كله، والكون هو الله).

[٢] «القديم» يُخْبَرُ به عن الله جَلَّ وَعَلَا، وإن كانت هذه اللفظة لم ترد، فالله سمى نفسه «الأول»، ولم يقل: «القديم»، لكن المعنى صحيح، فـ«القديم» يخبر عن الله، ولا يسمى به، و«الحادث»: هو المخلوق، فكل المخلوقات حادثة بعد أن لم تكن؛ أي: موجودة من عدم.

وَهُمْ قَدْ تَكَلَّمُوا عَلَى مَا يَعْرِضُ لِلْقُلُوبِ مِنْ الْأَمْرَاضِ وَالشُّبُهَاتِ، وَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَشْهَدُ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَيَظُنُّهُ خَالِقَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؛ لِعَدَمِ التَّمْيِيزِ وَالْفُرْقَانِ فِي قَلْبِهِ: بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَى شُعَاعَ الشَّمْسِ، فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّمْسُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ.

وَهُمْ قَدْ يَتَكَلَّمُونَ فِي «الْفَرْقِ وَالْجَمْعِ»، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْعِبَارَاتِ الْمُتْلِفَةِ نَظِيرُ مَا دَخَلَ فِي «الْفَنَاءِ»[١].

فَإِنَّ الْعَبْدَ إذَا شَهِدَ التَّفْرِقَةَ وَالْكَثْرَةَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ يَبْقَى قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِهَا، مُتَشَتِّتًا نَاظِرًا إلَيْهَا مُتَعَلِّقًا بِهَا: إمَّا مَحَبَّةً وَإِمَّا خَوْفًا وَإِمَّا رَجَاءً؛ فَإِذَا انْتَقَلَ إلَى الْجَمْعِ اجْتَمَعَ قَلْبُهُ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَالْتَفَتَ قَلْبُهُ إلَى اللهِ بَعْدَ الْتِفَاتِهِ إلَى الْمَخْلُوقِينَ فَصَارَتْ مَحَبَّتُهُ لِرَبِّهِ وَخَوْفُهُ مِنْ رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لِرَبِّهِ وَاسْتِعَانَتُهُ بِرَبِّهِ[٢]،

الشَّرْح

[١] فالذي أوقعهم في الضلال أنهم لا يميزون بين الخالق والمخلوق، فيظنون أن وجود المخلوق هو وجود الخالق، ولا فرق بينهما.

[٢] إذا تعلق قلب العبد بالله، واتخذ هذه المخلوقات عونًا له على طاعة الله، واستخدمها في طاعة الله، فهذا هو السعيد، أما إذا تعلق قلبه بالمخلوقات تعلق محبة وطمع ووله، فربما تجذبه وتأخذه عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعني

هذا أن نرفض الموجودات كلها؛ لأنها مخلوقة لنا؛ لنستعين بها على مصالحنا وعلى عبادة الله، وطاعته، ولكن القلب لا يتعلق بها، بل يتعلق بالله عَزَّوَجَلَّ الذي أوجدها وسخرها.

فإذا جمع قلبه وهمه على الله جَلَّوَعَلَا، زالت عنه هذه الأمور، وزال الانجذاب والالتفات إلى غير الله، وإذا نظر إلى المخلوقات نظر معجب بها، تفرق همه، وتفرقت مطامعه، وغفل عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وَهُوَ فِي هَذَا الحَالِ قَدْ لَا يَسَعُ قَلْبَهُ النَّظَرُ إِلَى المَخْلُوقِ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ، فَقَدْ يَكُونُ مُجْتَمِعًا عَلَى الحَقِّ مُعْرِضًا عَنْ الخَلْقِ نَظَرًا وَقَصْدًا وَهُوَ نَظِيرُ النَّوْعِ الثَّانِي مِنْ «الْفَنَاءِ»[١].

وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ، «الْفَرْقُ الثَّانِي»، وَهُوَ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ المَخْلُوقَاتِ قَائِمَةٌ بِاللهِ[٢]، مُدَبَّرَةٌ بِأَمْرِهِ[٣]، وَيَشْهَدَ كَثْرَتَهَا مَعْدُومَةً بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٤]، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ المَصْنُوعَاتِ وَإِلٰهُهَا وَخَالِقُهَا وَمَالِكُهَا[٥]، فَيَكُونُ مَعَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ عَلَى اللهِ -إِخْلَاصًا لَهُ وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً وَاسْتِعَانَةً وَتَوَكُّلًا عَلَى اللهِ وَمُوَالَاةً فِيهِ وَمُعَادَاةً فِيهِ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ- نَاظِرًا إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ[٦]، مُمَيِّزًا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا يَشْهَدُ تَفَرُّقَ المَخْلُوقَاتِ وَكَثْرَتَهَا مَعَ شَهَادَتِهِ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُهُ[٧]، وَأَنَّهُ هُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَهَذَا هُوَ الشُّهُودُ الصَّحِيحُ المُسْتَقِيمُ[٨] وَذَلِكَ وَاجِبٌ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ وَشَهَادَتِهِ[٩] وَذِكْرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ: فِي حَالِ الْقَلْبِ وَعِبَادَتِهِ وَقَصْدِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمُوَالَاتِهِ وَطَاعَتِهِ.

الشَّرْح

[١] وهذا فناء السوى؛ أي: صرف النظر عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

[٢] بمعنى أن الله هو الذي أقامها وأوجدها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، الذي أقام المخلوقات، فكلها قائمة بالله، فهو الذي أقامها، وأمدها، وأوجدها، وبدون الله ليست شيئًا.

[٣] معنى: (قَائِمَةٌ بِاللهِ)؛ أي: إن الله هو الذي أوجدها وأقامها، وذلك من معنى قوله: «القيوم»، و«القيام».

[٤] أي: يراها كلها راجعة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، مخلوقة لله، لم توجد نفسها، وإنما أوجدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[٥] فهي تدل على توحيد الربوبية، فكل الموجودات راجعة إلى الله، فالله هو الذي أوجدها، وعددها، وفاوت بينها، وهي ليست قديمة، وإنما هي محدثة ومخلوقة.

[٦] خلافًا لأهل وحدة الوجود.

[٧] أي: يعرف وحدة الخالق وتعدد المخلوقات، فالخالق واحد، هو الله الواحد القهار، لا أحد يخلق معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهل يمكن لأحد غير الله أن يوجد شيئًا معدومًا؟ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخلاق، وهو الخالق، وهو الواحد القهار، فلابد أن يعرف العبد هذا، ويعرف أن المخلوقات مهما تعددت وتنوعت وتكاثرت؛ فإنها كلها مخلوقة لله عَزَّوَجَلَّ، بقدرته وإرادته ومشيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وهذا فيه الرد على من ينفي التعدد والانقسام في الكون، وهم غلاة الصوفية. فمن وصل إلى هذا الحد، فهو الموحد التوحيد الصحيح، وهو الذي عرف ربه، وعرف المخلوقات، وفرق بينها. فهو العبد الموحد، وهو المؤمن، وهذا ما عليه الأنبياء والمرسلون وأتباعهم إلى يوم القيامة، فالله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وكل شيء فهو مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لاأحد يخلق مع الله، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]. الخالق هو الله جَلَّوَعَلَا.

[٨] الشهود الصحيح: أن لا يرى خالقًا إلا الله جَلَّوَعَلَا، ولاأحدًا يستحق العبادة إلا الله.

لا شهود غلاة الصوفية، الذين لا يرون في الكون تعددًا ولاانقسامًا، ويسمون ذلك هو التوحيد.

[٩] قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فالخلق غير الأمر، فالخلق: الإيجاد، والأمر: هو الشرع، فالذي يخلق هو الذي يشرع، ويأمر، وينهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ «شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَإِنَّهُ يَنْفِي عَنْ قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ مَا سِوَى الحَقِّ، وَيَثْبُتُ فِي قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةُ الحَقِّ[١]، فَيَكُونُ نَافِيًا لِأُلُوهِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ المَخْلُوقَاتِ مُثْبِتًا لِأُلُوهِيَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ[٢]، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ اجْتِمَاعَ الْقَلْبِ عَلَى اللهِ وَعَلَى مُفَارَقَةِ مَا سِوَاهُ، فَيَكُونُ مُفَرِّقًا: فِي عِلْمِهِ وَقَصْدِهِ فِي شَهَادَتِهِ وَإِرَادَتِهِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ، بِحَيْثُ يَكُونُ عَالِمًا بِاللهِ تَعَالَى ذَاكِرًا لَهُ عَارِفًا بِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ عَالِمٌ بِمُبَايَنَتِهِ لِخَلْقِهِ وَانْفِرَادِهِ عَنْهُمْ وَتَوَحُّدِهِ دُونَهُمْ، وَيَكُونُ مُحِبًّا للهِ مُعَظِّمًا لَهُ عَابِدًا لَهُ رَاجِيًا لَهُ خَائِفًا مِنْهُ مُوَالِيًا فِيهِ مُعَادِيًا فِيهِ مُسْتَعِينًا بِهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مُمْتَنِعًا عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَالخَوْفِ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ لَهُ وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ إِلَهِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٣].

الشَّرْح

[١] الألوهية معناها: العبودية، فالمؤمن ليس في قلبه، ولا في أعماله، ولا في تصرفاته قصد إلا الله جَلَّ وَعَلَا وحده.

[٢] وهذا معنى «لا إله إلا الله»؛ فالإله الحق هو الله، وأما الآلهة الأخرى المعبودة، فهي باطلة مهما كانت، فهذه الكلمة على اختصارها تجمع لك العقيدة، فـ» لا إله إلا الله» معناها: لا معبود حقًّا إلا الله جَلَّ وَعَلَا، وما سواه، فهو معبود بالباطل.

[٣] كل هذا رد على أهل الضلال أهل وحدة الوجود، فما دام الله هو الخلاق، وهو الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رب كل شيء وخالق كل شيء، فهو المستحق

للعبادة، وأما ما عداه، فهو مخلوق، ولا يستحق شيئًا من العبادة، وهو عبد لا يُعْبَدُ، وعلى المسلم أن يعرف ذلك؛ فلا ينخدع بأقوال المبطلين، قال تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف:١٩١]، فكيف يعبدون شيئًا، وهو مخلوق مثلهم؟! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٤]، وكيف تدعو عبدًا مثلك؟ هذا غاية الجهل والضلال؛ أن تدعو عبدًا مثلك، فقيرًا محتاجًا، والمعبودون إما أن يكونوا أمواتًا غير أحياء، قد فنيت عظامهم، وبليت أجسامهم تحت الأرض، وإما جمادات من أشجار وأحجار لاتسمع، ولا تبصر، ولا تخلق، ولا ترزق.

وَإِقْرَارُهُ بِأُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَى دُونَ مَا سِوَاهُ يَتَضَمَّنُ إِقْرَارَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ[١] **وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَمُدَبِّرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُوَحِّدًا للهِ.**

وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ أَفْضَلَ الذِّكْرِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؛ كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَغَيْرُهُمَا مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلهِ»**(١).

الشَّرْح

[١] هناك علاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، يجب أن نتنبه لها:

- فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية.
- وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

فمن أقر أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وأنه هو الرب، لزمه أن يعبده وحده لا شريك له، ومن عبده، تضمن أنه مقر بأنه هو الرب، فأنواع الدلالة ثلاثة(٢):

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي (١٠٥٩٩) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في درء التعارض (١٠/ ١٢): (فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على جميع المعنى الذي عناه المتكلم، ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على ما هو داخل في ذلك المعنى، ودلالة الالتزام: دلالة اللفظ على ما هو لازم لذلك المعنى خارج عن مفهوم اللفظ، فدلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على جميع هذه الماهية التي عناها المتكلم بلفظه، وهو دلالة على تمام الماهية، وذلك المدلول عليه بالمطابقة هو مقول في جواب ما هو، إذا قيل ما هو بحسب الاسم، وإذا سُئل عما هو المراد بهذا اللفظ، ذُكر مجموع ما دل عليه بالمطابقة، فالمدلول عليه بالتضمن هو جزء هذا المدلول، =

- دلالة الالتزام. - ودلالة التضمن. - ودلالة المطابقة.

[٢] فـ«لا إله إلا الله» هي خير الذكر وأفضل الذكر؛ لأنها فاصلة بين التوحيد والشرك، وهي كلمة الإخلاص، والعروة الوثقى، وكلمة التقوى.

فأفضل الذكر: «لا إله إلا الله»؛ تقولها بلسانك، وتعتقد معناها بقلبك، وتعمل بمقتضاها بجوارحك، وهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى، وهي كلمة الإخلاص.

فهي كلمة عظيمة، ولكن لمن عرف معناها، فلا يقولها بلسانه فقط، ولايدري ما معناها، أو يعرف معناها، ولا يعمل بمقتضاها، فيدعو غير الله، ويعبد غير الله، فهذا مخالف لمقتضاها، فهي كلمة عظيمة، من حققها، دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهي مفتاح الجنة.

=وهو جزء ماهيته، وهو داخل في ذاته، وأما اللازم لهذا المدلول فهو خارج عن حقيقته، عرض لازم له، فهذا تقسيم معقول ولكنه يعود إلى قصد المتكلم ومراده باللفظ). وانظر هذا البحث في: آداب البحث والمناظرة (١/ ١٢). اهـ.

وَفِي الْمُوَطَّإِ وَغَيْرِهِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَثِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١)[١].

الشَّرْح

[١] الأذكار الباطلة هي أذكار الصوفية المبتدعة، وأما أذكار أهل السنة والجماعة، فهي أذكار الأنبياء والمرسلين، وأعظمها: «لا إله إلا الله»، جميع هذه الكلمة العظيمة يؤتى بها كاملة بنفيها وإثباتها، وأذكار الصوفية أنهم يقتصرون على كلمة واحدة، فيقولون: (الله الله)، بالاسم المفرد، وهو ذكر الخاصة من الصوفية عندهم، أما خاصة الخاصة، فيقولون: (هو هو)، ولايأتون بالاسم الظاهر، إنما يقولون: (هو هو)، الضمير المنفصل، والاسم المفرد مظهر أو مضمر لا يفيد شيئًا، والاقتصار عليه في الذكر مخالف لذكر الرسل وأتباعهم، فهم يقولون: «لا إله إلا الله»؛ لأن هذه الكلمة جملة مفيدة، وأما هؤلاء، فيأتون بلفظ مفرد مبهم، لا يفيد معنى، والكلام لابد أن يكوم جملة مفيدة مركبة من مبتدأ وخبر، أو من فعل وفاعل.

(١) أخرجه مالك (١/ ٢١٤)، والبيهقي في الصغير (٢/ ١٨٨)، وفي الكبرى (٤/ ٤٧٠).

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ هَذَا ذِكْرُ الْعَامَّةِ، وَأَنَّ ذِكْرَ الخَاصَّةِ هُوَ الِاسْمُ الْمُفْرَدُ، وَذِكْرَ خَاصَّةِ الخَاصَّةِ هُوَ الِاسْمُ الْمُضْمَرُ، فَهُمْ ضَالُّونَ غَالِطُونَ[١].

الشَّرْح

[١] لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام السابق فضل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الله جَلَّوَعَلَا أمر بذكره، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حث على ذلك، بيَّن ما ابتدع في الذكر عند الصوفية، وذلك أنهم يقولون في الأذكار الواردة في القرآن والسنة، والتي هي جمل تامة مفيدة؛ مثل: لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله، يقولون: (هذا ذكر العامة الذين لم يصلوا إلى الحقيقة، أما الصوفية، فلهم ذكر خاص؛ وهو أفضل من ذكر العامة الذي قال فيه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»، أما ذكر الخواص من الصوفية، فهو إما اسم مفرد: «الله الله»، وإما ضمير منفصل: «هو هو»)، وبعضهم يقول: (أخشى لو قلت: «لا إله إلا الله»، أو «لا إله إلا هو» أن يدركني الموت قبل أن أكمل)! فيقتصر على كلمة واحدة وهي: «الله»، أو «هو»؛ خشية أن يأخذه الموت قبل أن يكمل.

وهذا لا شك أنه ليس ذكرًا؛ لأنه لا يفيد شيئًا، فلو قلت: «محمد»، أو «زيد» فقط، لم تأتِ بفائدة، فلابد أن تقول: (محمد رسول الله)، فتأتي

بجملة مفيدة، أما إذا قلت: «الله الله»، أو ما أشبه ذلك، فهذا ليس ذكرًا، وليس كلامًا، بل هو هذيان ليس فيه فائدة، ولغة العرب إنما جاءت بالجمل المفيدة؛ جملة اسمية مثل: (الله لا إله إلا هو)، أو جملة فعلية مثل: (تعالى الله)، (سبحان الله)، فلابد أن يكون الذكر جملة مفيدة.

وَاحْتِجَاجُ بَعْضِهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١] مِنْ أَبْيَنِ غَلَطِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ الِاسْمَ [الله] هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْأَمْرِ بِجَوَابِ الِاسْتِفْهَامِ فِي الْآيَةِ قَبْلَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام:٩١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩١][١]؛ أَيْ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى. فَالِاسْمُ [الله] مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ[٢]؛ كَمَا فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ تَقُولُ: مَنْ جَارُهُ؟ فَيَقُولُ: زَيْدٌ. وَأَمَّا الِاسْمُ الْمُفْرَدُ مُظْهَرًا[٣] أَوْ مُضْمَرًا[٤] فَلَيْسَ بِكَلَامٍ تَامٍّ[٥]،

الشرح

[١] استدلوا بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، نقول: هذا جواب سؤال سابق، هو: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١].

والجواب: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، والحذف والتقدير جارٍ في كلام العرب، فلفظ الجلالة في الآية مبتدأ.

[٢] (وَخَبَرُهُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ)، فخبر المبتدأ محذوف، دل عليه الاستفهام السابق، وهذا في لغة العرب الفصيحة؛ فحذف الخبر لأنه دل عليه ما سبق؛ لأجل الاختصار وعدم التكرار.

أنت -مثلًا- في كلامك تقول: من جاره؟ يقولون: زيد. بمعنى زيد جاره، وقد دل على ذلك السؤال، فالجواب يقدر من ضمن ما سبق في السؤال،

مثلًا: من أعطاك هذا الكتاب؟ تجيب، فتقول: محمد. أي: محمد أعطاني هذا الكتاب، فيدل على هذا السياق السابق، ولكن الصوفية يغالطون، أو لا يفهمون.

[٣] الاسم المفرد مثل: محمد وعلي.

[٤] المضمر هو الضمير المتصل والمنفصل؛ مثل: «هو» أو: «به» أو: «إنه»، الضمير المنفصل تارة يكون ظاهرًا في الكلام، وتارة يكون مقدرًا، إذا دل عليه دليل.

[٥] لأنه لا يفيد شيئًا؛ لأنه اسم مفرد ظاهر، أو ضمير لم ينضم إليه ما يترتب عليه فائدة، فهذا يعتبر هذيانًا، لا يفيد شيئًا، ولا يعتبر كلامًا.

وَلَا جُمْلَةً مُفِيدَةً وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَلَا شَرَعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يُعْطِي الْقَلْبَ بِنَفْسِهِ مَعْرِفَةً مُفِيدَةً وَلَا حَالًا نَافِعًا[١]، وَإِنَّمَا يُعْطِيهِ تَصَوُّرًا مُطْلَقًا لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ، فَإِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَلْبِ وَحَالِهِ مَا يُفِيدُ بِنَفْسِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ.

وَالشَّرِيعَةُ إِنَّمَا تُشَرِّعُ مِنَ الْأَذْكَارِ مَا يُفِيدُ بِنَفْسِهِ لَا مَا تَكُونُ الْفَائِدَةُ حَاصِلَةً بِغَيْرِهِ[٢].

الشرح

[١] فالاسم المفرد (لَا يُعْطِي الْقَلْبَ بِنَفْسِهِ مَعْرِفَةً مُفِيدَةً وَلَا حَالًا نَافِعًا)، فإذا قلت: «الله» ابتداءً، دون أن يسبقه شيء، أو يأتي بعده شيء، فهو لا يفيد شيئًا، وليس ذكرًا لله، ولا يحرك القلب مثلما إذا قلت: (الله على كل شيء قدير)، (الله خالق كل شيء)، (الله لا إله إلا هو)؛ فهذا يحرك القلب، ويفيد السامع.

[٢] بأن يكون جملة مفيدة تامة؛ فالشريعة لم تشرع الذكر بأسماء مجردة ولا ضمائر منفصلة، وعلى هذا فأذكار الصوفية بالأسماء المفردة ليست أذكارًا شرعية، وإنما هي أذكار بدعية.

ولهذا قال الشيخ: (وَقَدْ وَقَعَ بَعْضُ مَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ فِي فُنُونٍ مِنَ الْإِلْحَادِ وَأَنْوَاعٍ مِنَ الِاتِّحَادِ).

وَقَدْ وَقَعَ بَعْضُ مَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ فِي فُنُونٍ مِنْ الْإِلْحَادِ[١]، وَأَنْوَاعٍ مِنْ الِاتِّحَادِ؛ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَمَا يُذْكَرُ عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: (أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ) حَالٌ لَا يُقْتَدَى فِيهَا بِصَاحِبِهَا، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ الْغَلَطِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ؛ إذْ لَوْ مَاتَ الْعَبْدُ فِي هَذِهِ الحَالِ لَمْ يَمُتْ إلَّا عَلَى مَا قَصَدَهُ وَنَوَاهُ، إذْ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَمَرَ بِتَلْقِينِ الْمَيِّتِ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ»[١]، وَقَالَ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[٢]، وَلَوْ كَانَ مَا ذَكَرَهُ مَحْذُورًا لَمْ يُلَقَّنْ الْمَيِّتُ كَلِمَةً يُخَافُ أَنْ يَمُوتَ فِي أَثْنَائِهَا مَوْتًا غَيْرَ مَحْمُودٍ بَلْ كَانَ يُلَقَّنُ مَا اخْتَارَهُ مِنْ ذِكْرِ الِاسْمِ الْمُفْرَدِ.

الشَّرْح

[١] (وَقَدْ وَقَعَ بَعْضُ مَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ فِي فُنُونٍ مِنْ الْإِلْحَادِ)؛ أي: وقعوا بسبب ذلك في القول بوحدة الوجود؛ حيث يقولون: (إن الكون كله هو الله، ليس هناك غيره)، فوصل بهم هذا القول إلى الإلحاد، والرد على قولهم: (نخشى الموت قبل إكمال الذكر) هو:

---

(١) أخرجه مسلم (١) (٩١٦) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و(٢) (٩١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، والنسائي (١٠٩٠٧)، وأحمد (٣٦/ ٣٢٩) من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[٢] أنه (**لَوْ مَاتَ الْعَبْدُ فِي هَذِهِ الحَالِ لَمْ يَمُتْ إِلَّا عَلَى مَا قَصَدَهُ وَنَوَاهُ، إِذْ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**)، فلو أراد أن يقول: «لا إله إلا الله»، وابتدأ النطق بها، ثم مات قبل أن يكملها، فهو على ما نوى، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[(١)].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

(**وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أَمَرَ بِتَلْقِينِ المَيِّتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»)، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وهي كلمة تامة، ولم يقل: (لقنوا موتاكم الله أو هو)، وقال: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»، ولم يقل: (من كان آخر كلامه «الله»، أو «هو»، دخل الجنة).

فلو كان الميت (**يُلَقَّنُ مَا اخْتَارَهُ مِنْ ذِكْرِ الِاسْمِ الْمُفْرَدِ**)؛ أي: ما اختاره الصوفي، لم يأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يلقن «لا إله إلا الله»، بل يلقن «الله» أو «هو».

---

(١) سبق تخريجه (ص٤١٠).

وَالذِّكْرُ بِالِاسْمِ الْمُضْمَرِ الْمُفْرَدِ أَبْعَدُ عَنْ السُّنَّةِ، وَأَدْخَلُ فِي الْبِدْعَةِ وَأَقْرَبُ إِلَى إِضْلَالِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: «يَا هُوَ يَا هُوَ»، أَوْ: «هُوَ هُوَ»، وَنَحْوَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَّا إِلَى مَا يُصَوِّرُهُ قَلْبُهُ[١]، وَالْقَلْبُ قَدْ يَهْتَدِي، وَقَدْ يَضِلُّ[٢]، وَقَدْ صَنَّفَ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ» كِتَابًا سَمَّاهُ «كِتَابَ الْهُوَ»[٣].

الشَّرْح

[١] أي: لو قال: (يا هو، اغفر لي)، فالضمير لابد له من مرجع، والمرجع يطلق على كل أحد، ولم يكن هذا كلامًا عربيًا، أو حتى لم يكن من كلام المجانين، بل يكون هذيانًا.

ولكن لو قال: (يا الله، اغفر لي)، (يا رب، اغفر لي)، صار هذا استغفارًا وتوبة.

فإذا رجع الضمير إلى ما في قلب القائل، فهو يختلف حسبما في قلبه.

[٢] أي: فلابد للضمير في كلام العرب من مرجع مذكور في الكلام، يرجع إليه لا في القلب، وقول القائل: «يا هو» ليس له مرجع، إلا في نفس القائل، وما في نفس القائل لا يبنى عليه حكم.

[٣] أي: ألف صاحب كتاب «فصوص الحكم»، وهو ابن عربي رأس الملاحدة والقائل بوحدة الوجود، صنف كتابًا سماه «الهو»؛ يعني: الذكر بـ«الهو».

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] مَعْنَاهُ: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هَذَا الِاسْمِ، الَّذِي هُوَ «الْهُوَ»، وَقِيلَ هَذَا، وَإِنْ كَانَ مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ بَلْ الْعُقَلَاءُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَبْيَنِ الْبَاطِلِ، فَقَدْ يَظُنُّ ذَلِكَ مَنْ يَظُنُّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ، حَتَّى قُلْتُ مَرَّةً لِبَعْضِ مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ: لَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قُلْتَهُ لَكُتِبَتْ (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هُوَ) مُنْفَصِلَةً[١].

ثُمَّ كَثِيرًا مَا يَذْكُرُ بَعْضُ الشُّيُوخِ أَنَّهُ يَحْتَجُّ عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِ: «اللهُ» بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١] وَيَظُنُّ أَنَّ اللهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَقُولَ الِاسْمَ الْمُفْرَدَ، وَهَذَا غَلَطٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩١] مَعْنَاهُ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَهُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩١]؛ أَيْ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، رَدَّ بِذَلِكَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، فَقَالَ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام:٩١]، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أَنْزَلَهُ ثُمَّ ذَرْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ، ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:٩١].

الشَّرْح

[١] ومما احتجوا به قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ أي: ما يعلم تأويل «هو» إلا الله؛ فجعل الضمير المتصل في

قوله: ﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ ضميرًا منفصلًا، ولو كان كما قال، لم يوصل الضمير، بل كتب هكذا (وما يعلم تأويل «هو» إلا الله)، وهذا من أبطل الباطل المجمع على بطلانه؛ لأنه ليس موجودًا في لغة العرب.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ مَا تَقَدَّمَ: مَا ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ أَنَّ الْعَرَبَ يَحْكُونَ بِالْقَوْلِ مَا كَانَ كَلَامًا، لَا يَحْكُونَ بِهِ مَا كَانَ قَوْلًا، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ إِلَّا كَلَامٌ تَامٌّ، أَوْ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أَوْ فِعْلِيَّةٌ، وَلِهَذَا يَكْسِرُونَ إِنَّ إِذَا جَاءَتْ بَعْدَ الْقَوْلِ، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ اسْمٌ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ أَحَدًا بِذِكْرِ اسْمٍ مُفْرَدٍ، وَلَا شَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ اسْمًا مُفْرَدًا مُجَرَّدًا، وَالِاسْمُ الْمُجَرَّدُ لَا يُفِيدُ الْإِيمَانَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ الْعِبَادَاتِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ الْمُخَاطَبَاتِ.

وَنَظِيرُ مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى الِاسْمِ الْمُفْرَدِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ مَرَّ بِمُؤَذِّنٍ يَقُولُ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللهِ» بِالنَّصْبِ فَقَالَ: مَاذَا يَقُولُ هَذَا؟ هَذَا الِاسْمُ فَأَيْنَ الْخَبَرُ عَنْهُ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ؟[١] وَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل:٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١]. وَقَوْلِهِ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]. وَقَوْلِهِ: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٧٤].

الشَّرْح

[١] سمع أعرابي مؤذنًا يلحن في الأذان، يقول: (أشهد أن محمدًا رسولَ الله) بفتح «رسول»، ولما نصب «رسول» استنكر الأعرابي ذلك؛ لأن بديهته وسليقته في اللغة العربية لا تقبل ذلك، قال: (**هَذَا الِاسْمُ فَأَيْنَ الْخَبَرُ عَنْهُ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ؟**)؛ لأنها لا تحصل الفائدة إلا بذلك، فالأعرابي استنكر كلام هذا المؤذن؛ لأنه عربي.

وَنَحْوُ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي ذِكْرَهُ مُفْرَدًا[١]، بَلْ فِي «السُّنَنِ» «أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٧٤]، قَالَ: اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ، قَالَ: اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ، وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١] قَالَ: اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»[١]، فَشَرَعَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا فِي الرُّكُوعِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، وَفِي السُّجُودِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى).

وَفِي «الصَّحِيحِ»: «أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ)، وَفِي سُجُودِهِ: (سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى)»[٢]، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ وَسُجُودِكُمْ» بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

الشَّرْح

[١] ولهم شبهة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ [المزمل:٨].

قالوا: (المراد: الاسم المفرد؛ تقول: «الله الله»، أو «هو هو»، وهو -بزعمهم- المراد باسم ربك).

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧) من حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٠٣) (٧٧٢) عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ».

والجواب: أن هذا (لَا يَقْتَضِي ذِكْرَهُ مُفْرَدًا)؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين كيف يسبح اسم الرب؛ بأن تقول: (سبحان ربي العظيم)؛ لأنها لما نزلت الآية: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٧٤]، قال: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»، ولما نزل قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١]، قال: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»، فجاء بجملة مفيدة، وهذا يفسر قوله: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ و﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾، لكن الصوفية والذين في قلوبهم مرض يتبعون ما تشابه منه.

فَتَسْبِيحُ اسْمِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَذِكْرُ اسْمِ رَبِّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ هُوَ بِالْكَلَامِ التَّامِّ الْمُفِيدِ؛ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ -وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ-: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»(١)[١].

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(٢)[٢].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي يَوْمِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ. وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ. وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا رَجُلٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ»(٣).

الشَّرْح

[١] ومما يدل على أن الذكر لا يكون باسم مفرد قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه مسلم (١٢) (٢١٣٧) عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ». وأخرجه ابن ماجه (٣٨١١)، والنسائي (١٠٦١٥)، وأحمد (٣٣/ ٢٩٨)، والطبراني في الكبير (٧/ ١٨٧)، وابن حبان (٣/ ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٣١) (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٨) (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«**أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ** -وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ-: **سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»، وهذه جمل مفيدة، وليست أسماء مفردة.

[٢] وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، وكل هذه جمل مفيدة، سماها كلمات، فالكلمة هنا يراد بها الجملة، لا الاسم المفرد؛ ولهذا يقول ابن مالك في «الألفية»[(١)]:

كَلامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كاسْتَقِمْ ... وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ

واحِدُهُ كَلِمَةٌ والقَوْلُ عَمْ ... وَكِلْمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمْ

فقوله: (وَكِلْمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمْ)؛ أي: قد يقصد بالكلمة الكلام التام، لا الاسم المفرد.

(١) انظر: ألفية ابن مالك (ص٩)، وشرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك (ص٥).

«وَمَنْ قَالَ فِي يَوْمِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»(١)[١].

وَفِي الْمُوَطَّإِ وَغَيْرِهِ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(٢)[٢].

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ وَغَيْرِهِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلهِ»(٣)[٣].

وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ كَثِيرَةٌ فِي أَنْوَاعِ مَا يُقَالُ مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ.

وَكَذَلِكَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]. وَقَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤] إِنَّمَا هُوَ قَوْلُهُ: (بِسْمِ اللهِ)، وَهَذَا جُمْلَةٌ تَامَّةٌ؛ إِمَّا اسْمِيَّةٌ -عَلَى أَظْهَرِ قَوْلَيْ النُّحَاةِ-، أَوْ فِعْلِيَّةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: ذَبْحِي بِاسْمِ اللهِ، أَوْ اذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْقَارِئِ، فَتَقْدِيرُهُ: قِرَاءَتِي بِسْمِ اللهِ، أَوْ اقْرَأْ بِسْمِ اللهِ.

الشَّرْح

[١] ولم يقل: (من قال في يومه مائة مرة: «الله الله»، أو «هو هو»، فإنه يحصل له هذا الثواب)، بل جاء بجملة مفيدة تامة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٨) (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٤٦٥).

(٣) سبق تخريجه (ص٤٦٣).

[٢] ولم يقل: (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: «هو هو»، أو: «الله الله»)!

[٣] وهاتان جملتان مفيدتان، وليستا اسمًا فقط، أو ضميرًا فقط.

ومن شبههم: الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، يقولون: (أي: لم يقل عليه «الله»)، وليس هذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، بل المراد: إذا لم يقل الذابح: (باسم الله)، ولكنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وقد فسره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن قال: (بسم الله) على الذبيحة، لما ذبح أضحيته.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُضْمِرُ فِي مِثْلِ هَذَا: ابْتِدَائِي بِسْمِ اللهِ؛ أَوْ ابْتَدَأْتُ بِسْمِ اللهِ. وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ كُلَّهُ مَفْعُولُ بِسْمِ اللهِ، لَيْسَ مُجَرَّدُ ابْتِدَائِهِ؛ كَمَا أَظْهَرَ الْمُضْمَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود:٤١].

وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»(١)[١].

الشَّرْح

[١] مثل ما جاء في هذه الأحاديث، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر بذكر اسم الله، ويريد بذلك الجملة المفيدة، فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»، وقوله: «فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»؛ أي: ليقل: (بسم الله)، فهذا يفسر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]؛ أن المراد باسم الله ليس الاسم المجرد، وإنما هو الجملة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٠٠)، ومسلم (١) (١٩٦٠) عَنْ جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ البَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «ضَحَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُضْحِيَةً ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا أُنَاسٌ قَدْ ذَبَحُوا ضَحَايَاهُمْ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، رَآهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ قَدْ ذَبَحُوا قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى، وَمَنْ كَانَ لَمْ يَذْبَحْ حَتَّى صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ».

وقال لعمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جالت يده في الصفحة، «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»(١)، فقوله: «**سَمِّ اللهَ**»؛ أي: قل: (بسم الله)، وليس المراد أن يقول: «الله»، أو «هو».

وكان عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصيد ما يأكل منه وما يترك؛ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ**»(٢)، والمراد بقوله: «**وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ**» أن تقول: (بسم الله) عند إرساله، وليس المراد أن تقول: «الله» فقط.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (١٠٨) (٢٠٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٨٣)، ومسلم (١) (١٩٢٩) عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: إِنَّا قَوْمٌ نَصِيدُ بِهَذِهِ الكِلَابِ؟ فَقَالَ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كِلَابَكَ الْمُعَلَّمَةَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ، فَكُلْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَإِنْ قَتَلْنَ، إِلَّا أَنْ يَأْكُلَ الكَلْبُ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنْ خَالَطَهَا كِلَابٌ مِنْ غَيْرِهَا فَلَا تَأْكُلْ**».

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِرَبِيبِهِ عُمَرَ ابْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»[1]، فَالْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ اللهِ. لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَذْكُرَ الِاسْمَ مُجَرَّدًا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ، وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلْ»[2].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مَنْزِلَهُ فَذَكَرَ اسْمَ اللهِ عِنْدَ دُخُولِهِ؛ وَعِنْدَ خُرُوجِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ. قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ»[3]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

الشَّرْح

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مَنْزِلَهُ فَذَكَرَ اسْمَ اللهِ عِنْدَ دُخُولِهِ؛ وَعِنْدَ خُرُوجِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ. قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ»، فإذا أراد الإنسان أن يدخل بيته، أو يخرج منه، فليقل: (بسم الله)، ولم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إذا أردت دخول بيتك، أو الخروج منه، قل: «الله» أو «هو»).

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٨٤).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٨٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٠٣) (٢٠١٨) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ».

فقول: «الله أكبر الله أكبر» جملة تامة، وقول: «أشهد أن لا إله إلا الله؛ أشهد أن محمدًا رسول الله» جملة تامة، وكلاهما لفظ مفيد، وكذلك قول: «الله أكبر»، «سبحان ربي العظيم»، «سبحان ربي الأعلى»، «سمع الله لمن حمده»، «ربنا ولك الحمد»، «التحيات لله» كلها جمل مفيدة، لا أن تقول: «الله» فقط، أو «هو».

وهكذا كل الأذكار التي جاءت في الصلاة وغير الصلاة جمل مفيدة، وليست أسماء مفردة ظاهرة أو مضمرة؛ كما يقول الصوفية، فليس لهم مجال أبدًا.

وَكَذَلِكَ مَا شَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي صَلَاتِهِمْ وَآذَانِهِمْ وَحَجِّهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى إِنَّمَا هُوَ بِالْجُمْلَةِ التَّامَّةِ كَقَوْلِ الْمُؤَذِّنِ: (اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ)، وَقَوْلِ الْمُصَلِّي: (اللهُ أَكْبَرُ. سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ. سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى. سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ. التَّحِيَّاتُ للهِ)، وَقَوْلِ الْمُلَبِّي: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ)، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

فَجَمِيعُ مَا شَرَعَهُ اللهُ مِنْ الذِّكْرِ إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ تَامٌّ لَا اسْمٌ مُفْرَدٌ لَا مُظْهَرٌ وَلَا مُضْمَرٌ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ «كَلِمَةً»[١]؛ كَقَوْلِهِ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(١)، وَقَوله: «أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ»(٢).

الشَّرْح

[١] أي: جملة مفيدة، وليست لفظًا مفردًا؛ مثل ما جاء في هذه الأحاديث:

من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ. ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ. حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»، قال: «كَلِمَتَانِ»، مع أنها جمل.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٣) (٢٢٥٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةُ لَبِيدٍ: [البحر الطويل]
أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ**»، في قصيدة مبدؤها:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

فقوله: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ»، سماها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كلمة»، مع أنها جملة.

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:٥] الْآيَةَ، وَقَولِهِ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا اُسْتُعْمِلَ فِيهِ لَفْظُ الْكَلِمَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَلْ وَسَائِرِ كَلَامِ الْعَرَبِ، فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ؛ كَمَا كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ الحَرْفَ فِي الِاسْمِ، فَيَقُولُونَ: (هَذَا حَرْفٌ غَرِيبٌ)؛ أَيْ: لَفْظُ الِاسْمِ غَرِيبٌ.

وَقَسَّمَ سِيبَوَيْهِ الْكَلَامَ إِلَى اسْمٍ وَفِعْلٍ وَحَرْفٍ جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَفِعْلٍ.

وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ يُسَمَّى حَرْفًا لَكِنَّ خَاصَّةَ الثَّالِثِ أَنَّهُ حَرْفٌ جَاءَ لِمَعْنًى لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ؛ وَسُمِّيَ حُرُوفُ الْهِجَاءِ بِاسْمِ الحَرْفِ وَهِيَ أَسْمَاءٌ، وَلَفْظُ الحَرْفِ يَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ وَغَيْرَهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ: أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»(١).

وَقَدْ سَأَلَ الخَلِيلُ أَصْحَابَهُ عَنْ النُّطْقِ بِحَرْفِ الزَّايِ مِنْ زَيْدٍ فَقَالُوا: زَايٌ، فَقَالَ: جِئْتُمْ بِالِاسْمِ، وَإِنَّمَا الحَرْفُ «ز»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠): عَنْ أَيُّوبَ بْنِ مُوسَى، قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ القُرَظِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».

(٢) انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٣٢٠).

الشَّرْح

[١] وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية [الكهف:٥]، وهي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف:٤]، وهو كلام، لا كلمة مفردة.

ثُمَّ إنَّ النُّحَاةَ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ هَذَا الْمُسَمَّى فِي اللُّغَةِ بِالحَرْفِ يُسَمَّى كَلِمَةً، وَأَنَّ لَفْظَ الحَرْفِ يُخَصُّ لِمَا جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ، كَحُرُوفِ الجَرِّ وَنَحْوِهَا.

وَأَمَّا أَلْفَاظُ حُرُوفِ الهِجَاءِ، فَيُعَبَّرُ تَارَةً بِالحَرْفِ عَنْ نَفْسِ الحَرْفِ مِنْ اللَّفْظِ، وَتَارَةً بِاسْمِ ذَلِكَ الحَرْفِ، وَلَمَّا غَلَبَ هَذَا الِاصْطِلَاحُ، صَارَ يَتَوَهَّمُ مَنْ اعْتَادَهُ أَنَّهُ هَكَذَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ لَفْظَ الْكَلِمَةِ فِي اللُّغَةِ لَفْظًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الِاسْمِ مَثَلًا وَبَيْنَ الْجُمْلَةِ، وَلَا يَعْرِفُ فِي صَرِيحِ اللُّغَةِ مِنْ لَفْظِ الْكَلِمَةِ إلَّا الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ.

وَالمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ المَشْرُوعَ فِي ذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ هُوَ ذِكْرُهُ بِـ«جُمْلَةٍ تَامَّةٍ»، وَهُوَ المُسَمَّى بِـ«الْكَلَام»، وَالْوَاحِدُ مِنْهُ بِـ«الْكَلِمَةِ»، وَهُوَ الَّذِي يَنْفَعُ الْقُلُوبَ، وَيَحْصُلُ بِهِ الثَّوَابُ وَالْأَجْرُ، وَالْقُرْبُ إلَى اللهِ وَمَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَخَشْيَتُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ المَطَالِبِ الْعَالِيَةِ وَالمَقَاصِدِ السَّامِيَةِ.

وَأَمَّا الِاقْتِصَارُ عَلَى «الِاسْمِ المُفْرَدِ» مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا فَلَا أَصْلَ لَهُ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذِكْرِ الخَاصَّةِ وَالْعَارِفِينَ، بَلْ هُوَ وَسِيلَةٌ إلَى أَنْوَاعٍ مِنْ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَذَرِيعَةٌ إلَى تَصَوُّرَاتِ أَحْوَالٍ فَاسِدَةٍ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْإِلْحَادِ، وَأَهْلِ الِاتِّحَادِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ[١].

الشَّرْح

[١] وهكذا البدع تجر إلى الشر دائمًا وأبدًا، وأما السنن، فهي تفيد القلوب، وتفيد السامعين، وتفيد المتكلم.

وَجِمَاعُ الدِّينِ «أَصْلَانِ»[١]: **أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ، وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدَهُ بِالْبِدَعِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ «الشَّهَادَتَيْنِ»: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

الشَّرْح

[١] الذي يجمع الدين الصحيح الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم أصلان لا ثالث لهما، وهذا الأصلان يبنى عليهما الدين كله:

الأول: (أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ)، وهناك من يعبد مع الله غيره.

فالأصل الأول: (أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ)، فلا نشرك به شيئًا؛ بأي شيء سمي هذا الشرك؛ لأنه قد لا يسمى شركًا، بل يسمونه توسلًا، أو محبة للصالحين، أو ما أشبه ذلك، فيقولون: (نحن نعلم أنه لا ينفع، ولا يضر، ولا يخلق، ولا يرزق إلا الله، ولكن نتخذ هذه الوسائط بيننا وبين الله؛ لتشفع لنا عنده، مجرد شفاعة)؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فهم لا يسمونه شركًا، وإنما يسمونه طلبًا للشفاعة عند الله.

الأصل الثاني: ليس للإنسان أن يعبد الله إلا بما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمر به على ألسن أنبيائه ورسله، فليس باب العبادة مفتوحًا بأن تعبد الله بأي

طريقة، ليس هناك إلا طريق واحد، هو ما شرعه الله، وهو الذي نعبد به الله، ويقبل عند الله، وأما الابتكارات في العبادات والتقربات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فهذه مردودة، وهي بدع محدثة، حذر منها الأنبياء، خصوصًا نبينا محمدًا ﷺ؛ فقد حذر من البدع، قال: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[1].

(١) سبق تخريجه (ص٤٠٦).

فَفِي الْأُولَى: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَفِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ رَسُولُهُ الْمُبَلِّغُ عَنْهُ؛ فَعَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ خَبَرَهُ وَنُطِيعَ أَمْرَهُ[١]، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا مَا نَعْبُدُ اللهَ بِهِ، وَنَهَانَا عَنْ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢][٢].

كَمَا أَنَّا مَأْمُورُونَ أَنْ لَا نَخَافَ إِلَّا اللهَ وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى اللهِ، وَلَا نَرْغَبُ إِلَّا إِلَى اللهِ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِاللهِ: وَأَنْ لَا تَكُونَ عِبَادَتُنَا إِلَّا للهِ[٣]،

الشَّرْح

[١] ونعمل بشريعته، فمعنى شهادة «أن محمدًا رسول الله»: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

[٢] بين لنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما نعبد الله به، ونهانا عن البدع، ونهانا عن الشرك، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١)، والأصلان جاءا في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ ﴾ [البقرة:١١٢]؛ فـ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾؛ أي: أخلص عمله، وهذا هو الأصل الأول، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾؛ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو الأصل الثاني.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤٩).

[٣] فكما أننا مأمورون بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة بجميع أنواعها -من خوف، ورجاء، ورغبة، ورهبة، وتوكل...، إلى آخر أنواع العبادة-، فكذلك نحن مأمورون باتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنعمل بما جاء به، ونترك ما نهانا عنه، وقد أمرنا بعبادة الله، ونهانا عن البدع والمحدثات.

فَكَذَلِكَ نَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَتَّبِعَ الرَّسُولَ[١] وَنُطِيعَهُ وَنَتَأَسَّى بِهِ[٢]؛ فَالحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ وَالحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ[٣]، وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ[٤].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة:٥٩][٥]، فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ للهِ وَالرَّسُولِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧][٦].

الشَّرْح

[١] أي: إننا مأمورون أن نتبع سنته، ونسير على نهجه، ونطيعه؛ لانطيع أهواءنا، ولا نطيع غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمور العبادة، وهو واجبنا نحو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢] أي: نقتدي به، هو القدوة، لا نقتدي بغيره في أمور العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]؛ أي: قدوة؛ تتأسون به، وتقتدون به.

[٣] الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، أما أقوال الناس وأقوال العلماء، فما وافق قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخذناه، وما خالف قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تركناه، لا أحد يحلل ويحرم من عنده، وإنما هذا راجع إلى ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٤] فلو جاء شخص، وحرم شيئًا لم يحرمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا نطيعه، ولو جاء أحد، وأحل ما حرمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا نطيعه، ولو جاء أحد بدين غير دين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا نقبله، لا نقبل دينًا غير دين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٥] هذه الآية في سياق الرد على المنافقين، الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة:٥٨-٥٩].

[٦] فهذا ليس فيه شرك، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤتي، والله يؤتي؛ لأن هذا معناه العطاء من الصدقات والمال.

وَجَعَلَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ[١] بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [التوبة:٥٩][٢]، وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ[٣]؛ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣][٤].

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤][٥]؛ أَيْ حَسْبُكَ وَحَسْبُ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَمَا قَالَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦][٦].

الشرح

[١] أما التوكل، فهو عبادة، فلا يكون إلا لله وحده، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

[٢] أي: كافينا.

[٣] أي: لم يقل: «حسبنا الله ورسوله»؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله.

[٤] فالشاهد في قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾؛ أي: كافينا، ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

ولما توكلوا على الله تعالى، واعتمدوا عليه، وخرجوا يريدون القتال، فكفاهم الله شر أعدائهم.

[٥] قوله: (وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾)؛ أي: كافيك.

(﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾)؛ أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين؛ فهو كافيهم -أيضًا-، فالله كافٍ رسوله، وكافٍ المؤمنين، فالواو عاطفة، والمعطوف عليه ضمير المخاطب ﴿حَسْبُكَ﴾، فيكون المعنى: حسبك الله، وحسب من اتبعك من المؤمنين، وليس المراد أن: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾} معطوف على الله جَلَّ وَعَلَا.

[٦] استفهام تقرير؛ أي: هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حافظه ومؤيده.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:٣٦]، فلا تلتفت إلى تخويفهم.

ثُمَّ قَالَ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة:٥٩]، فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ للهِ وَالرَّسُولِ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْفَضْلِ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَالَ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩]، فَجَعَلَ الرَّغْبَةَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:٧-٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»(١)[١].

وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى للهِ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالمَحَبَّةَ للهِ وَرَسُولِهِ[٢]؛

الشَّرْح

[١] أي: احفظ أوامره، واجتنب نواهيه، يحفظك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مما تكره في الدنيا والآخرة؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

«احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»؛ أي: أمامك، فإذا وقعت في شدة، فإن الله يخلصك منها؛ لأنك حفظت دينه في حال الرخاء، فيحفظك الله في حال الشدة، وتجده تجاهك.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢١).

«وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»؛ لأن الاستعانة من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

[٢] جعل المحبة والطاعة لله وللرسول، فالمؤمن يحب الله، ويحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس في هذا شرك، فمحبة الرسول تابعة لمحبة الله، والطاعة كذلك، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢]، فطاعة الرسول تكون تابعة لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، بينما العبادة والخشية والتقوى لله، فلا يشاركه فيها أحد.

كَمَا فِي قَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح:٣][١].

وَقَولِهِ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢][٢]، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ[٣].

فَالرُّسُلُ أُمِرُوا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ[٤] وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ والتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَطَاعَتِهِ وَالطَّاعَةِ لَهُم[٥].

فَأَضَلَّ الشَّيْطَانُ النَّصَارَى وَأَشْبَاهَهُمْ[٦]، فَأَشْرَكُوا بِاللهِ وَعَصَوْا الرَّسُولَ فَـ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١].

الشَّرْح

[١] قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾: العبادة خاصة بالله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ التقوى خاصة بالله عَزَّوَجَلَّ، ثم قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأن طاعته طاعة لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

[٢] فالطاعة لله وللرسول، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور:٥٢]؛ فالخشية والتقوى لله، ولم يقل: (ومن يخشَ الرسول، ويتقِ الرسول).

[٣] أي: أمثال ذلك كثير في القرآن، لكن القرآن يحتاج إلى تدبر وإلى انتباه لسياقاته وأوامره ونواهيه؛ حتى يفهم الإنسان القرآن على الوجه الصحيح.

[٤] جميع الرسول أمروا بعبادة الله، وأنكروا الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

كل الرسل أمروا بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، فكل الرسول جاؤوا بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الشرك، هذا أجمع عليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام.

[٥] لأن هذه أنواع العبادة.

[٦] فالنصارى -وهم الذين ينتسبون إلى دين المسيح عيسى ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ- عصوا المسيح، وخالفوا أمره، وعبدوا الله بما لم يشرعه لهم.

فَجَعَلُوا يَرْغَبُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْأَلُونَهُمْ، مَعَ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَمْرِهِمْ وَمُخَالَفَاتِهِمْ لِسُنَّتِهِمْ[١]، أَهْلَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ؛ فَلَمْ يَكُونُوا مِنْ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ[٣]، فَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، وَأَسْلَمُوا وُجُوهَهُمْ لِلَّهِ، وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَأَحَبُّوهُ، وَرَجَوْهُ، وَخَافُوهُ، وَسَأَلُوهُ، وَرَغِبُوا إِلَيْهِ، وَفَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَأَطَاعُوا رُسُلَهُ، وَعَزَّرُوهُمْ، وَوَقَّرُوهُمْ، وَأَحَبُّوهُمْ، وَوَالُوهُمْ، وَاتَّبَعُوهُمْ، وَاقْتَفَوْا آثَارَهُمْ، وَاهْتَدَوْا بِمَنَارِهِمْ[٤].

الشَّرْح

[١] هم ينتسبون إلى المسيح، وهم يعصونه، يخالفونه، وهذا تناقص منهم.

[٢] أي: من النصارى؛ فمنهم ناس مخلصون وعباد لله عَزَّوَجَلَّ، يعبدون الله وحده لا شريك له، والضلال والشرك إنما حصلا من بعضهم.

[٣] وقد أمرنا الله جَلَّوَعَلَا أن نستعيذ من سبيل أهل الضلال وطريقهم وصراطهم، قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، وهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم الذين أخذوا العلم، وتركوا العمل وهم اليهود.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، وهم الذين أخذوا العمل، وتركوا العلم، فهم يعبدون الله على جهل وضلال.

[٤] هؤلاء هم المنعم عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، فهذه صفاتهم.

(**وَأَطَاعُوا رُسُلَهُ**)؛ كل الرسل، فالواجب طاعة الرسل كلهم، فمن جحد رسالة واحد منهم، فهو كافر بالجميع، فلابد من الإقرار برسالاتهم جميعًا.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]، ولابد من طاعتهم فيما جاءوا به من التوحيد والإخلاص في العبادة لله عَزَّوَجَلَّ.

(**وَعَزَّرُوهُمْ**)؛ يعني: وقروهم، تعزير فلان معناه: التوقير والاحترام، ولم يتنقصوا أحدًا منهم.

(**وَأَحَبُّوهُمْ**)؛ أي: في الله عَزَّوَجَلَّ، أولًا محبة الله، ثم محبة الرسل، ثم محبة المؤمنين.

وَذَلِكَ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ الرُّسُلِ، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا إِلَّا إِيَّاهُ[١]، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

نَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهِ، وَيُكْمِلَهُ لَنَا، وَيُمِيتَنَا عَلَيْهِ وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ، وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرْح

[١] الإسلام الذي هو: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة بما شرعه، وهذا هو دين جميع المرسلين من أولهم إلى آخرهم.

(وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا إِلَّا إِيَّاهُ)؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال جَلَّوَعَلَا في أول السورة: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وفي ذلك إخلاص العبادة عَزَّوَجَلَّ.

فهرس المراجع

- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، اسم المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، دار النشر: دار الراية للنشر - السعودية - ١٤١٨هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: عثمان عبد الله آدم الأثيوبي.
- آداب البحث والمناظرة (ط. مجمع الفقه)، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، المحقق: سعود بن عبد العزيز العريفي، الناشر: دار عالم الفوائد - مجمع الفقه الإسلامي بجدة، عدد المجلدات: ١.
- الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب، عدد الأجزاء: ٣.
- أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ١.
- أساليب بلاغية، الفصاحة - البلاغة - المعاني، المؤلف: أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، الناشر: وكالة المطبوعات - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٠ م، عدد الأجزاء: ١.
- الأسماء والصفات للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ

مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، عدد الأجزاء: ٢.

- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، المؤلف: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ٢.
- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر ابن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، المحقق: علي سامي النشار، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، عدد الأجزاء: ٤.
- ألفية ابن مالك، المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، الناشر: دار التعاون، عدد الأجزاء: ١.
- الأمثال والحكم، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠ هـ)، تحقيق ودراسة: المستشار الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ١.

- الأنساب، المؤلف: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م، عدد الأجزاء: ١.
- البحر المحيط في أصول الفقه، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد ابن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ٨.
- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.
- البدء والتاريخ، المؤلف: المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ)، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، عدد الأجزاء: ٦.
- البداية والنهاية، لعماد الدِّين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٥هـ.
- بدائع التفسير، ابن القيم، دار ابن الجوزي.
- بدائع الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: ٤.
- البرهان في أصول الفقه، المؤلف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة، الناشر: دار الكتب

العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٢.

- بغية الطلب في تاريخ حلب، المؤلف: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (المتوفى: ٦٦٠هـ)، المحقق: د. سهيل زكار، الناشر: دار الفكر، عدد الأجزاء: ١٢.
- بيان تلبيس الجهمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى١٣٩٢هـ.
- البيان والتبيين، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ، عدد الأجزاء: ٣.
- تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر تدمري، طبعة ١٤٠٩هـ.
- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: هـ)، (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ)، الناشر: دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ، عدد الأجزاء: ١١.
- تاريخ بغداد، اسم المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
- تاريخ دمشق، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر:

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، عدد الأجزاء: ٨٠ (٧٤ و ٦ مجلدات فهارس).

- تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ـ دار الفكر ـ بيروت.
- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، الطبعة الحجرية، دار الكتاب العربي، بيروت.
- التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ، عدد الأجزاء: ١٠.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- التَّفْسِيرُ البَسِيْط، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ، عدد الأجزاء: ٢٥ (٢٤ وجزء للفهارس).
- تفسير الثوري، المؤلف: أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (المتوفى: ١٦١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.
- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى:

٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢٦ مجلد ٢٤ مجلد ومجلدان فهارس.

- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.
- تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- تلبيس إبليس، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ١.

- تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، المؤلف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (المتوفى: ٤٠٣هـ)، المحقق: عماد الدين أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ١.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المؤلف: أبو عمر يوسف ابن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، عام النشر: ١٣٨٧ هـ، عدد الأجزاء: ٢٤.
- تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٨.
- جامع الرسائل، المؤلف: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء-الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢.
- جامع المسائل - المجموعة الثالثة، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ)، تحقيق: محمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءا (في ١٠ مجلدات).
- الجرح والتعديل، المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، الناشر: طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٢٧١هـ-١٩٥٢م.
- جمهرة اللغة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٣.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، أو الداء والدواء، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة - المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ١.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها، ١ - دار الكتاب العربي - بيروت. ٢ - دار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع، بيروت. ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)، عدد الأجزاء: ١٠.

- حياة الحيوان الكبرى، المؤلف: محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ، عدد الأجزاء: ٢.
- الدر الفريد وبيت القصيد، المؤلف: محمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩هـ- ٧١٠ هـ)، المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، عدد الأجزاء: ١٣ (آخر جزءين فهارس).
- درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الذهبية، الرياض، طبعة ١٣٩١هـ.
- دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وَلِيد بِن أحمد بن صَالِح الحُسَيْن، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي، الناشر: مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، عدد الأجزاء: ٤ (في ترتيب مسلسل واحد).
- الدعاء للطبراني، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣، عدد الأجزاء: ١.

- الدعوات الكبير، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: غراس للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة: الأولى للنسخة الكاملة، ٢٠٠٩ م، عدد الأجزاء: ٢.
- ديوان قيس بن الملوح، جمع وتحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: مكتبة مصر - القاهرة، عدد الصفحات: ٢٦٨.
- ذم الكلام وأهله، المؤلف: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٥.
- ذيل طبقات الحنابلة، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ).
- روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٧.

- الروض الداني (المعجم الصغير)، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، عدد الأجزاء: ٢.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة١٤٠٣هـ.
- روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد ابن حنبل، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، الناشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ٢.
- زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ.
- الزاهر في معاني كلمات الناس، المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، المحقق: د. حاتم صالح

الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢، عدد الأجزاء: ٢.

- الزهد والرقائق لابن المبارك، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك ابن واضح الحنظلي، التركي ثم المَرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.
- السحر الحلال في الحكم والأمثال، المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ١.
- السنة، المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك ابن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠، عدد الأجزاء: ٢.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ.
- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.
- سنن الدارقطني، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ابن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)،

حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبداللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ٥.

- سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- السنن الصغرى للنسائي (المجتبى)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- السنن الصغير للبيهقي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي - باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، عدد الأجزاء: ٤.
- السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، المحقق: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: (١٠ و ٢ فهارس).
- سنن سعيد بن منصور، اسم المؤلف: سعيد بن منصور الخراساني، دار النشر: الدار السلفية - الهند - ١٤٠٣هـ -١٩٨٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ.

- السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٦ م.
- السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م، عدد الأجزاء: ٢.
- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، المؤلف: بدر الدين محمد ابن الإمام جمال الدين محمد بن مالك (ت ٦٨٦ هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة؛ لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ)، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ ابن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية،

والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ١.

- شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
- شرح الكوكب المنير، المؤلف: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي (المتوفى: ٩٧٢هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٤.
- شرح مختصر الروضة، المؤلف: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى: ٧١٦هـ)، المحقق: عبد الله ابن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٣.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.
- صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
- صفة الصفوة، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢.
- طبقات الحنابلة، المؤلف: أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (المتوفى: ٥٢٦هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، عدد الأجزاء: ٢.
- طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، عدد الأجزاء: ١٠.
- الطيوريات، انتخاب: صدر الدين، أبو طاهر السِّلَفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه الأصبهاني (المتوفى: ٥٧٦هـ)، من أصول: أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري (المتوفى: ٥٠٠هـ)، دراسة وتحقيق: دسمان يحيى معالي، عباس صخر الحسن، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ٤.
- العبر في خبر من غبر، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو هاجر محمد

السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، عدد الأجزاء: ٤.

- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت/ مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، عدد الأجزاء: ١.
- العدة في أصول الفقه، المؤلف: القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وعلق عليه وخرج نصه: د أحمد بن علي بن سير المباركي، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض – جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، الناشر: بدون ناشر، الطبعة: الثانية ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء في ترقيم مسلسل واحد.
- العرش، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ابن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ٢.
- العزلة، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي. المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عَزَّوَجَلَّ ومعاشرته مع العباد، المؤلف: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن

إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّيْنَوَريُّ، المعروف بابن السُّنِّي (المتوفى: ٣٦٤هـ)، المحقق: كوثر البرني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت، عدد الأجزاء: ١.

- العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.
- غريب الحديث، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلَّام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٤.
- الغريبين في القرآن والحديث، المؤلف: أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (المتوفى ٤٠١ هـ)، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعه: أ. د. فتحي حجازي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٦ (في ترقيم واحد متسلسل).
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية

الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، عناية محب الدين الخطيب، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة، بيروت.
- فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.
- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الإسفراييني، أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ)، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧م، عدد الأجزاء: ١.
- فضائح الباطنية، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، المحقق: عبد الرحمن بدوي، الناشر: مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت، عدد الأجزاء: ١.
- فضائل القرآن للقاسم بن سلام، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلَّام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الناشر: دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ -١٩٩٥ م.
- الفقيه والمتفقه، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن

يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ، عدد الأجزاء: ٢.

- فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.
- القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ١.
- القضاء والقدر، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد بن عبد الله آل عامر، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض / السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.
- كتاب الزهد الكبير، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٦، عدد الأجزاء: ١.
- كتاب القدر، المؤلف: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي (المتوفى: ٣٠١هـ)، المحقق: عبد الله بن حمد المنصور، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م، عدد الأجزاء: ١.

- الكتاب، المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ٤.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مصطفى ابن عبد الله أبو طاهر القسطنطني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٣هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١٠.
- الكنى والأسماء، المؤلف: أبو بِشْر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار ابن حزم – بيروت/ لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٣.
- لسان العرب، لابن منظور جمال الدِّين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ثمّ المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- مجاني الأدب في حدائق العرب، المؤلف: رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو (المتوفى: ١٣٤٦هـ)، الناشر: مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، عام النشر: ١٩١٣ م، عدد الأجزاء: ٦.

- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، عدد الأجزاء:٢.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، المحقق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤م، عدد الأجزاء: ٢٩.
- مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِينْ، المؤلف: نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٨٩هـ)، قدم له: الأستاذ محمد

أحمد دهمان، الناشر: مكتبَةُ دَارِ البَيَانْ، دمشق، عام النشر: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، عدد الأجزاء: ١.

۞ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٢.

۞ المدخل إلى السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت، عدد الأجزاء: ١.

۞ مستخرج أبي عوانة، المؤلف: أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ٥.

۞ المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

۞ المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء.

- المستصفى، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ١.
- مسند أبي يعلى، المؤلف: أبو يعلى أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى ابن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ١٣.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.
- مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ٤.
- مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

- مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد).
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
- المصنف، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي - الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣، عدد الأجزاء: ١١.
- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي ابن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: (١٧) رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، تنسيق: د. سعد ابن ناصر بن عبد العزيز الشثري، الناشر: دار العاصمة، دار الغيث - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ، عدد الأجزاء: ١٩.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم

الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٨.

- معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٥.
- المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ.
- المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة: الثانية، عدد الأجزاء:٢٥، ويشمل القطعة التي نشرها لاحقا المحقق الشيخ حمدي السلفي من المجلد ١٣ (دار الصميعي - الرياض / الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م).
- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٦.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٢ في ١.
- المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان

الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

۞ المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك)، المؤلف: أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي (المتوفى ٧٩٠ هـ)، المحقق: مجموعة محققين، الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م، عدد الأجزاء: ١٠ (الأخير فهارس).

۞ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ)، عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، الناشر: دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، عدد الأجزاء: ١.

۞ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، المؤلف: إبراهيم بن محمد ابن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (المتوفى: ٨٨٤هـ)، المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، عدد الأجزاء: ٣.

۞ الملل والنحل، المؤلف: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، المحقق: محمد سيد كيلاني، الناشر: مؤسسة الحلبي، عدد الأجزاء: ٣.

- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١٩.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد المجلدات: ٩.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، المؤلف: أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (ت ٣٧٠ هـ)، المجلد الأول والثاني: تحقيق/ السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف - الطبعة الرابعة [سلسلة ذخائر العرب (٢٥)]، المجلد الثالث: تحقيق / د. عبد الله المحارب (رسالة دكتوراه) [قال المحقق في آخره: الكتاب لا يزال ناقصًا .. ولعل الله يمن بالعثور على نسخة كاملة لهذا الكتاب النفيس...]، الناشر: مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٣.
- موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر.
- النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة١٣٨٦هـ.

- نثر الدر في المحاضرات، المؤلف: منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبي (المتوفى:٤٢١هـ)، المحقق: خالد عبد الغني محفوظ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، عدد الأجزاء: ٤×٧.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، عدد الأجزاء: ٥.
- نوادر الخلفاء المشهور بـ«إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»، المؤلف: محمد، المعروف بدياب الإتليدي (المتوفى: ق ١٢هـ)، المحقق: محمد أحمد عبد العزيز سالم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ١.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث - القاهرة، رقم الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩ م.
- الوافي بالوفيات، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر:١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٩.

❁ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الجزء: ١ – الطبعة: ٠، ١٩٠٠، الجزء: ٢ – الطبعة: ٠، ١٩٠٠، الجزء: ٣ – الطبعة: ٠، ١٩٠٠، الجزء: ٤ – الطبعة: ١، ١٩٧١، الجزء: ٥ – الطبعة: ١، ١٩٩٤، الجزء: ٦ – الطبعة: ٠، ١٩٠٠، الجزء: ٧ – الطبعة: ١، ١٩٩٤، عدد الأجزاء: ٧.

فهرس الموضوعات

مقدمة الناشر..... ٥
مقدمة الشارح..... ٩
السؤال المقدم لشيخ الإسلام ابن تيمية..... ١١
جواب شيخ الإسلام..... ١٣
تعريف العبادة وفروعها..... ١٣
دعوة الأنبياء إلى عبادة الله..... ١٧
وصف عباد الرحمن بالعبادة..... ٢٥
وصف الملائكة بالعبادة..... ٢٧
وصف الأنبياء بالعبادة..... ٣٠
الدين: إسلام، وإيمان، وإحسان..... ٣٥
مراتب الحب..... ٣٩
وجوب تقديم محبة الله والرسول على كل شيء..... ٤١
جنس المحبة والطاعة لله ولرسوله..... ٤٣
العبادة لله تعالى وحده..... ٤٤
الله هو حسب المؤمنين..... ٤٦
المخلوقون كلهم عباد الله..... ٤٩
العبودية المتعلقة بربوبية الله..... ٥١
حقيقة العبودية..... ٥٣

تحليل لفكرة (الحقيقة) عند الصوفية، والكشف عن حقيقتها، وبيان موقف الإسلام منها..... ٥٧
الفرق بين الحقيقة الكونية، والحقيقة الدينية..... ٦١
العبادة التي يرضاها الله تعالى. والكلام على القضاء والقدر..... ٦٩
القدر الذي أمرنا أن نرضى به ونصبر عليه..... ٨٠
محاجة آدم موسى في القدر..... ٨٣
ما يجب على المذنب فعله..... ٨٥
لا يستوي المتقون والمفسدون..... ٩٤
الفرق بين أهل الحق والباطل..... ٩٧
كفر من اعتقد بـ (الحلول)..... ٩٩
حقيقة العبادة والطاعة..... ١٠٩
من العبادة الأخذ بالأسباب..... ١١٢
لا احتجاج بالقدر في مخالفة الشريعة..... ١١٦
الإنسان مخير في أفعاله، ولا يسقط عنه التكليف..... ١٢٠
الأمر والنهي، لا يسقطان حتى الموت..... ١٢١
اعتقاد سقوط الأمر والنهي، محادة لله ورسوله..... ١٢٣
الاحتجاج بالقدر، من مقالات المبتدعة..... ١٢٥
تحليل الحرام، وعبادة الله بما لم يشرع الله..... ١٢٦
ليست الحقيقة بما يراه ويذوقه..... ١٣٠
ما خالف الكتاب والسنة ضلال..... ١٣٢

ضلال من قدم القياس على النص..... ١٣٤
حلاوة الإيمان، وكيف يوجد..... ١٣٤
محبة أهل الأهواء لأهوائهم، ومحبة أهل الأصنام لأصنامهم..... ١٣٦
المحبة المطلقة لأهل الإيمان وغيرهم..... ١٣٦
الأمر باتباع الشريعة، وعدم اتباع الأهواء..... ١٣٨
الأمر مقرون بالعبادة والعمل..... ١٤٥
الاعتصام بالسنة نجاة..... ١٤٩
العمل الصالح هو الإحسان..... ١٥٦
تعريف الخالص والصواب من الأعمال..... ١٥٨
تعريف الإحسان والمنكر..... ١٦١
تنوع دلالة الاسم، بحال الانفراد، والاقتران..... ١٦٣
بحث في الخاص والعام، وأن الخاص لا يدخل في العام حال الاقتران... ١٦٤
تلاوة الكتاب (القرآن الكريم): حقيقة اتباعه والعمل به..... ١٦٨
التوكل والاستعانة عبادة..... ١٧١
ازدياد الكمال عند تحقق العبودية لله..... ١٧١
وصف أكابر الخلق بالعبادة..... ١٧٣
دعوة الرسل إلى العبادة..... ١٨١
تعريف عباد الله المخلصين..... ١٩٢
نعت من اصطفى الله بالعبودية..... ١٩٥
مخاطبة الله لنبينا ﷺ بالعبودية..... ١٩٧

تفاضل الناس في حقيقة الإيمان..... ٢٠٠
حال من عبد المال..... ٢٠٣
ذم الطمع، ومدح القناعة..... ٢١١
النهي عن سؤال الناس، إلا عند الضرورة..... ٢١٥
الأمر بسؤال الخالق، والنهي عن سؤال المخلوق..... ٢٢٠
سؤال الرزق من الخالق والشكوى إليه..... ٢٢٥
معنى الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل..... ٢٢٥
شكوى موسى ومحمد صلوات الله عليهما إلى الله..... ٢٢٧
الأمر بالتوكل على الحي الذي لا يموت..... ٢٣٣
حرية القلب وعبوديته..... ٢٣٦
عذاب من استعبده عشق الصور المحرمة، غير المباحة..... ٢٤٢
إعراض القلب عن الله بلاء عظيم..... ٢٤٤
صرف الحب الفاسد بالحب الصالح..... ٢٤٤
سبب تزكية النفوس وتطهيرها..... ٢٥٥
عبودية أصحاب المصالح لبعضهم..... ٢٦١
طلب ما يحتاج إليه الإنسان، وترك ما سواه..... ٢٦٧
أوثق عرى الإيمان..... ٢٧٦
علامات محبة الله تعالى..... ٢٨٢
علامات محبة الرسول ﷺ..... ٢٨٤
توعد من قدم محبة الأهل والمال، على حب الله ورسوله..... ٢٨٨
حقيقة المحبة موالاة المحبوب..... ٢٨٨

الجهاد وتعريفه..... ٢٩١
كلما ازداد القلب حبًّا لله، ازداد عبودية له..... ٢٩٣
القلب فقير إلى الله..... ٢٩٥
حقيقة العبودية..... ٣٠٠
أفضل الخلق أتمهم عبودية له..... ٣٠٤
حقيقة دين الإسلام، الاستسلام لله وحده..... ٣٠٤
لا يدخل الجنة متكبر..... ٣٠٦
شعار الصلاة والأذان والأعياد: التكبير..... ٣٠٩
من استكبر عن عبادة الله، عبد غير الله..... ٣١٣
كل مستكبر عن عبادة الله، فهو مشرك..... ٣١٨
كمال العبودية البراءة من الشرك والكبر..... ٣٢٥
جميع الأنبياء بعثوا بالإسلام..... ٣٣٢
إسلام الكائنات لله طوعًا أو كرهًا..... ٣٣٣
الله وحده هو الغني عن كل ما سواه..... ٣٣٧
أعظم الظلم الشرك بالله..... ٣٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾..... ٣٤٥
اتخاذ الله تعالى محمدًا ﷺ خليلًا..... ٣٥١
الفرق بين الخلة والمحبة، التي أنكرتها الجهمية..... ٣٥٥
الخلة أعلى من المحبة..... ٣٥٧
محبة الله لعباده المؤمنين..... ٣٦٢

خطأ الفلاسفة في تعريف اللذة.....٣٦٦
أقسام المحبة.....٣٦٦
كراهة مجالسة مكثر ذكر المحبة بلا خشية.....٣٦٨
الانبساط في دعوى المحبة.....٣٦٨
لا يفعل المحب ما يبغض المحبوب.....٣٧١
دعوى بعض السالكين في حب الله.....٣٧١
محبة الله تكون باتباع الرسول وطاعته.....٣٧٧
الجهاد أساس محبة الله.....٣٧٨
لا يمكن لأحد أن يحب كل موجود.....٣٨٢
الفرق بين الحب والادعاء.....٣٨٦
التقرب إلى الله بالواجبات والمستحبات.....٣٩٠
ترك المجاهدة مخالفة للشرع.....٣٩٢
الدين الحق: عبادة الله بما شرع الله.....٤٠٤
كل عمل لا يراد به وجه الله: باطل.....٤٠٤
مدار الثواب على صحة النية.....٤١١
فساد الدين بالحرص على الشرف والمال.....٤١٧
ثمرة الإخلاص تظهر بتذوق الطاعة.....٤٢٠
القلب المنيب إلى الله.....٤٢٢
بعض نتائج الإخلاص.....٤٢٤
من لم يكن عبدا لله استعبدته الكائنات.....٤٢٧

الفرق بين أئمة الحنفاء، وأئمة المشركين..... ٤٢٩
الحقيقة: طاعة، بلا معصية..... ٤٣٦
الفناء ثلاثة أنواع..... ٤٣٦
النوع الأول من أنواع الفناء..... ٤٣٦
النوع الثاني من أنواع الفناء..... ٤٣٩
خطأ من يقول بوحدة الوجود..... ٤٤٢
الأنبياء والصحابة، لم يقعوا في الوله والفناء..... ٤٤٢
أول من قال بالفناء والسكر..... ٤٤٥
الكمل من المؤمنين قلوبهم عامرة بمحبة الله وإرادته وعبادته..... ٤٤٥
النوع الثالث من أنواع الفناء..... ٤٤٨
تجريد العبودية لله..... ٤٥١
تفريق من اقتدي بهم، بين الخالق والمخلوق..... ٤٥٣
مباينة الله سبحانه لخلقه..... ٤٥٥
إخلاص العبادة لله، يمحو عبادة ما سواه..... ٤٦١
الإقرار بالألوهية والربوبية: هو التوحيد..... ٤٦٣
أفضل الذكر لا إله إلا الله..... ٤٦٥
بطلان الذكر بالاسم المفرد (الله، الله) مظهرًا كان أو مضمرًا..... ٤٦٦
فائدة الأذكار الشرعية..... ٤٧٠
إبطال قول: أخاف الموت بين النفي والإثبات..... ٤٧١
الذكر بالاسم الفرد (الله، الله) ليس من السنة..... ٤٧٣

إبطال الاستدلال على الذكر بالاسم الفرد بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.....٤٧٤
الاسم المجرد، لا يفيد شيئًا من الإيمان.....٤٧٦
تفسير ما ورد في الآيات من لفظ الاسم.....٤٧٦
بيان أن الذكر، لا يكون إلا بالجملة التامة.....٤٧٩
بعض ما في القرآن والسنة من الذكر.....٤٧٩
بيان متعلق الباء في قولك: باسم الله.....٤٨١
لم يرد الاسم المفرد في الأذكار المشروعة.....٤٨٧
لفظ (الكلمة) يراد منها الجملة في الكتاب والسنة.....٤٨٩
بيان معنى الحرف.....٤٩١
الذكر بالاسم المفرد، لا أصل له.....٤٩١
جماع الدين أصلان.....٤٩٢
١- الدين ما شرعه الله تعالى.....٤٩٤
٢- العبادة والخشية لله تعالى وحده.....٥٠٢
أهل الصراط المستقيم.....٥٠٤
الإسلام دين الرسل جميعًا.....٥٠٦
فهرس المراجع.....٥٠٧
فهرس الموضوعات.....٥٣٧

تم بحمد الله